روايات تاريخ الإسلام

أسير المتمهدي

تتضمن وصف مصر والسودان في الربع الأخير من القرن الماضي، ودسائس الدول الأجنبية التي أدت إلى الثورة العرابية في مصر والثورة المهدية في السودان، والإحتلال البريطاني لوادي النيل

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

obeikandl.com

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٣٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

obeikandl.com

أبطال الرواية

الخديو محمد توفيق	:	خديو مصر
أحمد عرابي باشا	:	قائد الثورة العرابية
محمد أحمد المهدي	:	الخليفة المتمهّدي
هيكس باشا	:	قائد الحملة المصرية
غوردون باشا	:	حكمدار السودان
الامير عبد الحليم	:	قائد جند المتمهّدي
إبراهيم	:	موظف بالقنصلية الانجليزية
سعدى	:	زوجة إبراهيم
الكابتن شفيق	:	(أسير المتمهّدي)
فدوى	:	بنت أحد الباشوات الموراليين
عزيز	:	من أبناء الذوات
بخيت	:	خادم فدوى
أحمد	:	خادم شفيق

obeikandl.com

obeikandl.com

-١-

فذلكة تاريخية

في سنة ١٨٧٨، كانت القاهرة حيث جرت وقائع هذه الرواية قد اتسع عمرانها، وازداد سكانها وروادها، وكان الخلفاء الفاطميون هم الذين أنشأوها في منتصف القرن الرابع للهجرة، في المكان الذي أناخوا فيه جمالهم يوم جاءوا لافتتاح الفسطاط عاصمة مصر إذ ذاك — وفي ذلك المكان الآن حي الجمالية والجامع الأزهر وما جاورهما من الجوامع القديمة — وما زالت القاهرة تتسع عمارتها ولا سيما منذ حكمت الأسرة المحمدية العلوية، وعلى الأخص في عهد الخديوي إسماعيل، الذي أراد أن يجعلها قطعةً من أوروبا، فأكثر فيها من فتح الشوارع الحديثة وإنشاء الأحياء الجديدة المنظمة، فأنشئت تبعاً لذلك ألوف المنازل والقصور والحدائق خارج المدينة الأصلية، وزودت هذه الشوارع الجديدة المتسعة بالأشجار تحف بها من الجانبين، وأنيرت المدينة كلها بالغاز، فأصبح ليلها كنهارها وازدادت بهجةً ورونقاً، وكثرت بها الأماكن العامة ولا سيما حول حديقة الأزبكية.

وقد أمر الخديوي إسماعيل بأن ينشأ حول الحديقة سور حديدي أنيق تحدق به هالة من الأنوار الغازية، كما أمر بأن تعزف الموسيقى العسكرية كل مساء بالقرب من البحيرة المستديرة بالحديقة.

وكنت إذا دخلت الحديقة في المساء، وأتيت المنصة المستديرة المزينة بالأنوار الغازية حيث تعزف الموسيقى، رأيت الناس محدقين بها أفواجاً على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم ومراتبهم ولغاتهم وألوانهم، من القوقازي الأبيض الناصع، إلى الزنجي الأسود الحالك. وعلى اختلاف أزيائهم بين العمامة العربية والطربوش العثماني والقاووق الفارسي والقبعة الإفرنجية والبنطلون والقفطان والسراويل، وبين الخمار المغربي والحبرة المصرية والإزار وغير ذلك من الأنواع والأشكال مما لا يتفق وجوده في مصر.

أما المدينة الأصلية، فكانت على عكس ذلك، ما زال معظم أسواقها

على النمط القديم، من الضيق وعدم الانتظام، و لم تستجب حاراتها لوسائل التنظيف والتنظيم التي أرادها الخديوي، فبقيت ضيقة الطرق معوجة الدروب. وكأن الأقدمين أرادوا بتضييق الطرق استجلاب البرودة بحجب أشعة الشمس عنها. فرأى الخديوي إسماعيل أن يعوض عن ذلك في الشوارع الحديثة بغرس الأشجار التي تظلل الطرق وترطب الهواء بما يتصاعد عنها وعن الطرق المرشوشة من البخار.

-٢-

شفيق وفدوى

كان في شارع العباسية بالقاهرة سنة ١٨٧٨ منـــزل مبني على الطراز الحديث كسائر المنازل الحديثة هناك، ولكنه من أقلها فخامة واتساعاً، وبه حديقة بسيطة صغيرة، تشرف على الشارع الحديث المظلل بأشجار اللبخ المغروسة على جانبيه.

وكان هذا المنـــزل يشتمل على غرف عدة مفروشة بالأثاث البسيط غير الثمين ولكنه غاية في النظافة والترتيب. وبينها غرفة بها خزانتان تشتملان على كتب بلغات مختلفة، وفي أحد أركانها منضدة عليها بعض الكتب وبجانبها رجل في العقد الخامس من عمره يرتدي الزي الإفرنجي وليس على رأسه شيء، وقد جلس على كرسي هناك وفي يده كتاب يطالع فيه وليس في الغرفة غيره والباب مغلق عليه.

كان الرجل قمحي اللون أسود الشعر واسع الجبهة حليق اللحية، في شعره شيب، وفي وجهه تجعد وفي عينيه ذكاء وفي مظهره عبوس، كأنه ناقم على الدهر الذي قضى عليه بالاكتفاء من الدنيا بولد ذكر أنفق كل حياته في تربيته وتثقيفه، فضلاً عن أنه ما انفك منذ سنين كاسف البال مرتبك الأفكار منقبض النفس كأنه أصيب بنكبة من نكبات الزمان. و لم يكن أحد يعلم سبب ذلك الارتباك حتى ولا امرأته مع أنها حاولت

استطلاع ذلك مراراً إذ كان ينكر عليها تارةً ويعدها أخرى، وقد مر عليها منذ تزوجها نحو العشرين سنةً وهي حائرة في أمره، لا يهدأ لها بال لجهلها سبب ذلك الانقباض.

ومما زاد في حيرتها ودهشتها أن زوجها كان يحتفظ بصندوق صغير لم يفتحه منذ تزوجته. وقد طالما سألته أن يطلعها على ما فيه، فكان يرفض ذلك ويقول لها: "سيأتي يوم تعرفين فيه سر جميع هذه الغرائب وتعذريني على كتمانها عنك". ولم يكن هذا الكلام إلا ليزيد في تشوقها وتلهفها لمعرفة ما في ذلك الصندوق، فمضت تلح عليه في ذلك إلى أن وعدها بأن يطلعها على ما في الصندوق بشرط أن تكتفـــي بذلك وتبقيه مكتوماً عن كل إنسان سواهما، وألا تعود وتسأله شيئاً من التفصيل. لأنه لن يفوه بكلمة واحدة بعد ذلك. فقبلت هذا الشرط، وحدد منتصف الليلة التالية موعداً لفتح الصندوق بعد أن ينام أهل البيت جميعاً.

وكان الرجل في تلك الساعة جالساً يفكر في مسألة الصندوق، وقلبه يرتجف كلما تصور أنه فتحه، فأخذ يتلهى بمطالعة بعض الكتب والجرائد. فلما كان الغروب انتبه بغتةً كمن هب من رقاد، ونظر إلى الساعة ثم دق جرساً أمامه، فحضر خادم أسمر عليه جلباب وعمامة، فقال له الرجل: "ألم يحضر شفيق بعد؟".

فقال الخادم: "لا يا سيدي، لم أره هذا المساء". فاضطرب الرجل وسكت هنيهة ثم قال للخادم: "اذهب يا أحمد فادع سيدتك سعدى إلى هنا". فحنى أحمد رأسه مجيباً، وخرج.

وبعد قليل جاءت سعدى، وهي أصغر سناً من زوجها، ووجهها أكثر طلاقة، ولباسها على الطراز التركي وفي يدها مجلة المقتطف كانت تتلهى بمطالعتها في غرفتها إلى أن يحين موعد فتح الصندوق.

فاستقبلها قائلاً: "ألم يأت شفيق بعد يا سعدى؟". فقالت: "لم أره هذا المساء، وكنت أحسب أنه جاء ودخل حجرتك يطالع الجرائد أو يقرأ شيئاً

آخر. ويلاه! ترى أين ذهب الليلة فلم يحدث أن تأخر إلى مثل هذا الوقت؟".

وأخذت تدق يداً بيد، ثم سألت زوجها: "كم الساعة؟". فلما علمت أنها السابعة بعد الظهر قالت: "إنه يحضر عادة بعد إغلاق المدرسة التجهيزية بساعة، أي في الساعة الخامسة فماذا أخره؟".

فلما عاين زوجها اضطرابها ندم على ما أظهره من القلق أمامها وقال: "لا بأس عليه من التأخير، فالمدينة في أمان، والشوارع لا تخلو من المارة إلى ما بعد منتصف الليل، فلعل شفيقاً ذهب مع زملائه التلامذة إلى حديقة الأزبكية ليسمعوا أنغام الموسيقى العسكرية، أو لعلهم دعوا إلى منـــزل أحدهم، فلا داعي للقلق".

فقالت سعدى: "لا تعتمد على الظنون يا إبراهيم، وما دام وحيدنا قد تأخر على غير عادته، فيجب أن نبحث الأمر".

فأجابها بصوت منخفض قائلاً: "لا خوف عليه بإذن الله، وأؤكد لك أنك سترينه أمامك هنا عما قليل، وها أنذا قد أحضرت له بعض الجرائد الإفرنجية والمقالات العلمية ليطالعها".

فقالت سعدى: "وأنا أيضاً سأطلعه على مقالة في هذه المجلة تدور حول مآثر العرب في الأندلـــس، ولكني ما زلت قلقة لتأخره".

فقال: "لا تجزعي إنه في حراسة الله".

فسكتت سعدى مراعاة لشعور زوجها واحتراماً لرأيه، وعادت إلى حجرتها حيث استندت إلى نافذة مشرفة على الشارع، ولبثت تنتظر مجيء ولدها وهي على مثل الجمر، وقد نسيت اشتياقها إلى استطلاع ما في الصندوق.

أما إبراهيم زوجها فلم يعد يستطيع صبراً. فأخذ يقلب كتاباً أمامه ليشغل نفسه به ريثما يأتي ابنه. وقد أظلمت الدنيا في عينيه، لأن شفيقاً لم

يتأخر من قبل إلى مثل تلك الساعة. ثم سمع الساعة تدق ثماني دقات فازدادت دقات قلبه ودعا الخادم وسأله: "أتعرف بيت عزيز أفندي صديق شفيق؟".

قال: "نعم يا سيدي.. إنه ذلك البناء الكبير في شارع عابدين".

فقال: "إذن اذهب إليه الآن واسأل عن شفيق، فإن وجدته هناك فأت به معك لأننا في انتظاره لتناول العشاء".

فحنى رأسه سمعاً وطاعة ومضى. ولم يكد يخرج حتى عادت سعدى إلى غرفة زوجها تسأله عن شفيق فأخبرها بما فعل ثم عادت إلى غرفتها. ولبث الاثنان ينتظران حتى عاد الخادم وحده، فبادر إبراهيم بالسؤال عن شفيق فقال: "قد ذهبت إلى بيت عزيز أفندي، فقيل لي إنه لم يجئ إلى البيت بعد، إلا أنهم غير قلقين لذلك فليست هي أول ليلة باتها خارج المنـــزل".

فقال إبراهيم: "هل تحققت ذلك؟". قال: "نعم يا سيدي، وأنا أعلم أن سيدي شفيقاً لا يألف الجلوس في المقاهي. ولذلك لم أبحث عنه هناك".

فازداد إبراهيم قلقاً واضطراباً لكنه كظم ما به خوفاً على امرأته لأنها كانت شديدة التعلق بوحيدها، ولم يكن هو أقل تعلقاً به منها. إلا أن الرجل أكثر صبراً على مثل ذلك من النساء.

وفيما هو واقف يخاطب الخادم جاءت امرأته مسرعة، فلما لم تر شفيقاً صاحت قائلة: "أين شفيق يا أحمد؟". فقال الخادم: "لم أجده في بيت عزيز أفندي يا سيدتي، وقد سألت الخدم هناك فلم أجد لديهم علماً بشيء عن تأخرهما".

فبادرها زوجها قائلاً: "لا يلبث شفيق أن يأتي كما قلت لك، فلا يضطرب قلبك يا سعدى ولنصبر قليلاً فإن لم يجئ فسأذهب أنا للبحث عنه".

فضربت سعدى كفاً بكف ووقفت صامتة وقد ملأت الدموع عينيها، إذ لم تستطع التجلد، ونظرت إلى زوجها فإذا هو غارق في بحار الهواجس

على أنه حين التفت فرآها تنظر إليه. تكلف الابتسام إخفاء لعواطفه وقال: "سامح الله شفيقاً، إنه الآن يلهو ويمرح مع صحبه وزملائه، ولا يبالي ما يسببه تأخره من عناء لوالديه. صدق من قال: "قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر". على أني سأعنفه متى جاء لكيلا يعود ثانيةً إلى مثل هذا".

لم تستطع سعدى الجلوس لشدة قلقها على وحيدها، فذهبت إلى النافذة ووقفت تنظر إلى الشارع المضيء بالغاز وعلى جانبيه الأشجار، وما دقت الساعة التاسعة حتى هب زوجها ولبس طربوشه ثم قال لها: "ها أنذا ذاهب للبحث عن شفيق، ولن أغيب عنك أكثر من ساعة حتى أرجع به بإذن الله". ثم أخذ عصاه بيده وغادر امرأته على مثل جمر الغضا. فبقيت مطلة من النافذة لا تحول نظرها عن الشارع حتى دقت الساعة العاشرة. ولما لم يرجع أحد زاد خفقان قلبها وأخذت ركبتاها ترتجفان وهي إلى تلك الساعة لم تذق طعاماً. ثم مضت تفكر في ولدها وزوجها ناسية أو متناسية أمر الصندوق، حتى دقت الساعة الحادية عشرة فأظلمت الدنيا في عينيها، وجلست معتمدة رأسها بيديها على المنضدة وأخذت تندب سوء حظها.

وفيما هي في ذلك سمعت طارقاً يطرق باب الحجرة طرقاً خفيفاً، فمضت إلى الباب بعد أن مسحت دموعها، وكان الخادم هو الطارق وقد جاء ليقول لها: "إذا أذنت لي فإني أسير وآتيك بسيدي شفيق". فأجفلت وقالت: "وهل تعلم مكانه؟".

قال: "نعم، لأني تذكرت حديثاً جرى بينه وبين عزيز أفندي..". وسكت فقالت بلهفة: "وأين تظن مكانه؟". فحرق أسنانه وقال: "أظن أنه ذهب مع عزيز أفندي للتفرج على الاحتفال بفتح الخليج، لأني سمعت عزيزاً منذ بضعة أيام يحبب إليه الذهاب إلى هناك لمشاهدة الأنوار واستماع الأنغام، وكان سيدي شفيق يتمتع أول الأمر مؤكداً أن المطالعة أحب لديه

من مثل هذا الاحتفال، ولكنك تعرفين سلامة نيته وإخلاصه لأصدقائه فما لبث أن اقتنع بقول عزيز أفندي".

فقالت سعدى وقد لاحت على وجهها أمارات البشر: "وما الذي كان يخشاه من ذهابه إلى ذلك الاحتفال؟ لو أنه أخبر بذلك أباه ما كان ليمنعه".

فقال أحمد: "أظن أن سيدي كان يمنعه لأن أمثال هذه الاحتفالات تحدث فيها أحياناً أمور مغايرة للآداب لا يرضاها سيدي الكبير". فتنهدت وقالت: "كيفما كان الحال فإن المراد أن تأتي بشفيق". فحنى رأسه موافقاً، ومضى.

وكان أحمد هذا من قبل جندياً في الجيش، وقد تقلب مع الدهر وعرف دخائل الناس، وكان لا يرتاح للصداقة التي بين سيده شفيق وزميله عزيز، ولكنه لم يكن له أن يتدخل في ذلك.

فلما أذنت له سيدته بالخروج توجه إلى فم الخليج، ومكثت هي في البيت وقد اشتد قلقها فدعت إحدى جاراتها للاستئناس بها وأتتها ببعض المنعشات، وجلست تتلهى بالحديث معها.

★★★

كان شفيق في التاسعة عشرة من عمره، طويل القامة معتدلها، قمحي اللون، ذا عينين سوداوين تحت حاجبين متصلين، صغير الفم واسع الجبهة أسود الشعر خفيف العارضين. وكان قد ربي في بيت أبيه تربيـــة حسنة فشب كريم العنصر طيب السريرة لا يعرف أساليب المكر والخداع وإن كان ذكياً حاذقاً، فأدخله أبوه المدرسة التجهيزية الأميرية ليتم دروسه على نفقة الحكومة، لأنه لم يكن في سعة كبيرة من العيش، على أن يعلمه مهنة الطب أو المحاماة بعد ذلك.

وكانت ملابسه غاية في البساطة، تتألف من السترة والبنطلون والطربوش. ورغم صغر سنه كان ذا مهابة، لا يجرؤ أصدقاؤه على ممازحته

ولو كانوا أكبر منه سناً، وكان أساتذة المدرسة وتلامذتها يحبونه ويجلونه لأدبه وذكائه واجتهاده في الدرس.

أما عزيز فكان على نقيض هذه الصفات، لكنه على جانب عظيم من الثروة التي خلفها له أبوه. وكان قصير القامة كبير الأنف شديد سمرة البشرة، محباً للتفرنج فلا يخرج إلى الشوارع إلا ونظارته على عينيه وخيطها مسترسل على صدره، دون ما يدعو إلى ذلك. وكان يميل طربوشه فوق رأسه تيهاً وعجباً، وحول عنقه ياقة منشاة لا تمكنه من إدارة رأسه ذات اليمين أو ذات اليسار إلا بصعوبة. وإذا وقف يقف منتصباً وإن شئت فقل متطاولاً، وفي يده اليمنى عصا غليظة معقوفة الرأس، وفي اليسرى سلسلة ساعته الذهبية الغليظة يلاعب بها الهواء، وفي فمه السيكارة الإفرنجية الضخمة، ومن شر أخلاقه الادعاء والحسد والرياء وحب الرفعة من غير استحقاق.

وكان شفيق غير راضٍ عن أخلاقه هذه، ولكنه اضطر إلى صحبته بحكم تجاورهما في المدرسة فقط. وكثيراً ما تظاهر عزيز أمامه بما يرضيه استبقاء لصداقته لأنه كان يحتاج إليه في أشياء كثيرة أهمها مراجعة الدروس معه.

وكان من عادة الخديوي إسماعيل أن يختار أنجب تلامذة المدرسة لإرسالهم إلى أوروبا لدراسة الطب والحقوق وغيرهما، وقد توقع جميع التلاميذ تلك السنة وقوع الاختيار على شفيق. فكان عزيز كلما تصور ذلك كاد يتميز غيظاً، لا رغبةً منه في العلم بل حباً بالفخر، وكأنما عز عليه أن يكون شفيق أجل مقاماً منه في حين أنه ليس في غناه، فكان لا ينفك باحثاً عن وسيلة يحط بها قدر شفيق في عيون الأساتذة والتلاميذ، وما زال كذلك حتى أوشك العام الدراسي أن ينتهي وأخذ التلامذة في مراجعة الدروس، فلاح له أن يعمل على إلهاء شفيق عن دروسه، وعلى إيقاعه فيما يشينه، ليحول دون اختياره للبعثة. فأخذ قبل الاحتفال بفتح الخليج ببضعة

أيام يحسن له حضوره. ثم اصطحبه إلى هناك عقب مغادرهما المدرسة، وحال دون استئذانه أباه في ذلك مقنعاً إياه بأنه أرسل خادمه ليقوم بهذه المهمة. وكان غرضه أن يثير على شفيق غضب أبيه. وكانت عربة عزيز تنتظرهما عند باب المدرسة وأمامها خادمه المجري بلباسه القصبي، فركباها وسارا إلى الجزيرة للتنـــزه فيها ساعة قبل الذهاب إلى مكان الاحتفال.

وظلت العربة تسير بهما في الجزيرة حتى غربت الشمس وبدأت الجزيرة تخلو من المارة.

وفيما كانت العربة سائرة بهما في شارع الجزيرة بين أشجار اللبخ القائمة على جانبيه، لاحت من شفيق التفاتة إلى تل صناعي هناك (جبلاية). فرأى عند مدخل التل عربة مغلقة من عربات الحريم وأمامها فرسان من الخيل الكبيرة الروسية الأصل، وكان الظلام قد سدل نقابه لكن العربة لم يضئ قنديلها. وساد السكون أرجاء المنطقة فلم يكن يسمع هناك إلا حفيف شجر السرو المحدق بالتل، ولم يشاهد أحداً بالعربة ولا بالقرب منها، فقال لعزيز: "ما هذه العربة، وفيمَ وقوفها هنا يا ترى؟". فتبسم عزيز وهز رأسه ولم يبد جواباً، وأعاد شفيق السؤال بلهفة فقال عزيز: "إن لهذه العربة حكاية سأقصها عليك بعد أن نبعد عن هذا المكان". فاشتاق شفيق إلى استطلاع الخبر، وعاد إلى السؤال بعد قليل، فقال عزيز: "إنها عربة أحد كبار الأجانب وأصله من جزيرة المورة، وقد جاء أبوه إلى مصر برفقة إبراهيم باشا عند عودة حملته من هناك، فطابت له الإقامة هنا حيث تزوج ورزق بابنه هـــذا وعاش في كنف الحكومة حتى رقي إلى رتبة باشا واكتسب مالاً طائلاً، وله ابنة واحدة بارعة الجمال تركب هذه العربة للتنـــزهة في كثير الأحيان. فأحبها صديق لي من شبان العاصمة وخطبها لنفسه ولما طلبها من أبيها لم يجب طلبه بدعوى أنها لم ترض أخلاقه، فأضمر لها السوء وأخبرني صباح اليوم أنه تواطأ مع سائق عربتها على أن يأتي بها متأخراً إلى هذا المكان للانتقام منها. ولا أخفي عليك أنها أخطأت

في حق صديقي الشاب فهو جميل كريم، ولا يقل إيراده الشهري عن ثلاثين جنيهاً ينفقها كلها على أصدقائه، ثم هو إلى ذلك لطيف المعشر، يضحك الثكلى بلطف حديثه ومجونه".

فاشتعل شفيق غيظاً، والتفت إلى عزيز وقال: "إنها لدناءة من صديقك أن يدبر للفتاة مثل هذه المكيدة!". ثم أمر السائق أن يحول اتجاه العربة إلى (الجبلاية) فأراد عزيز منعه قائلاً: "ما لنا ولهم؟". ولكن شفيقاً لم يعبأ بمعارضته. وما اقتربا من الجبلاية حتى سمعا صوتاً نسائياً لطيفاً مرتجفاً يتخلل حفيف الأشجار، وكانت صاحبته تقول: "خف الله يا رجل، أليس عندك شرف؟".

فسارع شفيق إلى النزول من العربة، وانطلق إلى مصدر الصوت داخل ذلك التل المظلم، ثم أشعل عوداً من الكبريت فرأى في ضوئه شبحين في أحد الدهاليز هناك: أحدهما لفتاة والآخر لرجل ملثم وما رأت الفتاة النور حتى قالت بأعلى صوتها: "أنقذني من هذا الخائن بحرمة الشرف والشهامة". فلم تمض لحظة حتى كان شفيق بينهما وأهوى بعصاه على الرجل، وسرعان ما فر هذا مسرعاً فناداه شفيق بقلب لا يهاب الموت قائلاً: "إلى أين أيها النذل الذميم؟". فلم يسمع له صوتاً ولا رآه لشدة الظلام في تلك المغارة، ثم سمع وقع حوافر جواد فعلم أنه تمكن من الفرار.

وقالت الفتاة لشفيق في تأثر عميق: "لا عدمت الشهامة رجالها، من أرسلك أيها الملاك السماوي. أين أنت؟". وكان شفيق قد رجع ليأتي بمصباح من العربة فلم يسمع مقالها، فلما عاد بالمصباح رأى فتاة ترتعد خوفاً، وهي في زي نساء الأتراك، وعلى رأسها اللثام (اليشمك) تحته وجه كأنه البدر بهاء، وعينان سوداوان براقتان ملأتهما دموع الخجل والوجل، ووجنتان كللهما الاصفرار فأمسكت يده بيد كادت تذوب لطفاً وقالت: "لقد أنقذتني من الموت والعار جزاك الله عني خيراً".

وخفق قلب شفيق، وغلب عليه الحياء حتى تلعثم لسانه فلم يستطع الكلام، لكنه تجلد وقال لها: "لا بأس عليك أيتها السيدة المصونة، ولا عاش من أراد بك سوءاً. هلم إلى عربتك لنسير بك آمنة إلى منـــزلك".

فسارت معه وهي ما زالت ممسكة يده وقد تشبثت بها مرتجفة مطرقة لشدة خوفها وخجلها. فلما وصلا إلى العربة لم يجدا سائقها، لأنه كان قد خاف مغبة خيانته فركن إلى الفرار، فعاون شفيق الفتاة على الدخول إلى العربة ثم نادى سائق عربة عزيز وأمره أن ينير مصابيح عربة الفتاة ويسوقها إلى حيث تأمره، ثم أطل عليها من نافذة العربة وسألها عن حالها وهل تحتاج إلى شيء، فأشارت بعينيها وملامح وجهها شاكرة، ومضت بها العربة. أما هو فعاد إلى عربة عزيز فوجده لا يزال في مكانه بها وكأنه قطعة من خشب، لكنه لما رآه قادماً نزل من العربة وإحدى يديه على نظارته لئلا تسقط، وفي يده الأخرى سيكارته المعهودة، وقال له: "هل بك من بأس يا عزيزي شفيق، لقد شغلت بالي، وكان في عزمي أن أنزل لمساعدتك لكني أعلم أنك شهم باسل لا تحتاج إلى مثلي فبقيت في انتظارك هنا، فأين ذلك الخائن؟".

فنظر شفيق إليه باحتقار ولم يبد جواباً، ولما سأله عزيز عن سائق عربته، قال: "ذهب بالعربة الثانية وسأتولى أنا قيادة هذه العربة".

فتكلف عزيز الابتسام وقال: "هل لك معرفة بقيادة العربات؟". فأجاب مبتسماً: "نعم يا عزيزي، والمثل يقول: (البس لكل حاجة لبوسها)..". ثم قاد العربة في أثر عربة الفتاة، وما زالوا سائرين وقد استولى عليهم السكوت حتى جاوزوا جسر قصر النيل، فوقفت العربة الأولى بغتة، فاضطرب شفيق لذلك ونزل يبحث عما دعا إلى وقوفها وكان الشارع مضاء بالأنوار الغازية التي مزقت بقوة نورها حجاب الظلام، فلما اقترب من العربة وأطل من نافذتها على الفتاة وجدها جالسة وقد هدأ روعها وأبرقت أسرتها وأشرق وجهها. فلما رأته أمسكت بيده ضاغطةً عليها

وقالت له والخجل يحول بينها وبين التأمل في وجهه: "شكراً يا سيدي، إني مدينة لك بحياتي وشرفي هذه الليلة فلولا شهامتك لخسرتهما".

فخجل شفيق وتوردت وجنتاه وتندى جبينه بالعرق ولم يجب، فعادت الفتاة تقول: "هل لك أن تخبرني عن اسمك لأذكر لأبي ما أبديت نحوي من الشهامة والفضل؟".

فأجاب شفيق بصوت رقيق كان له أكبر الأثر في قلب الفتاة: "إني يا سيدتي لم أفعل إلا ما أوجبته علي الإنسانية، فلست أنتظر مكافأة، وأرجو ألا تذكري هذا الأمر أمام أحد صيانة لشرفك".

فقالت: "معاذ الله أن أقصد بكلامي مكافأتك، فهذا أمر لو أردته ما استطعت القيام به، ولكن ذكر الجميل فرض على الإنسان، وأي فضل أعظم من الإنقاذ من العار والموت؟".

فقال وقد غلب عليه الخجل حتى كاد يمتنع عليه الكلام: "إني لم أفعل ما يستحق هذا الثناء، وحسبي أن كان لي شرف إنقاذ ملاك طاهر مثل سيدتي".

قالت: "إن العبارات لا تفي بأداء حق الشكر على عواطفك الشريفة، ولا شك في أني ربحت بفضلك حياتي، أو بالأحرى شرفي الذي هو أعز من حياتي!".

وفيما هما في الحديث سمعا عزيزاً ينادي: "أين أنت يا شفيق؟ لقد أطلت الوقوف وقد حان موعد العشاء فهيا بنا".

فقالت الفتاة: "من هذا الذي يتكلم؟".

فقال: "هو صديق لي رافقته للنـــزهة على أن نسير معاً إلى احتفال فتح الخليج هذه الليلة".

قالت: "لعلي أزعجتكما، على أني أرجو أن تجيبني عن سؤالين قبل أن تعود إلى صديقك".

قال: "مري بما شئت وعلي السمع والطاعة".

قالت: "أريد أولاً أن تخبرني باسمك إن لم يكن لإعلام أبي فلأحفظه في قلبي ذكـــراً لشهامتك ومروءتك اللتين يعز وجودهما في شبان هذه الأيام. كما أريد أن تخبرني باسم ذلك الخائن إن كنت قد عرفته".

قال: "أما اسمي فيكفيني فخـــراً أن تذكريه وهو (شفيق). وأما ذلك الخائن فأرجو أن تسدلي على حكايته ستراً، إذ لا يليق بشريف خلقك وسامي أدبك أن تنتقمي من لئيم مثله، فاحسبيها هفوةً من هفوات الشباب. على أني لا أتقاعد عند الاقتضاء عن استطلاع اسمه وإفادتك، فأذني لي قبل أن أودعك أن أتطفل بسؤال أرجو ألا يثقل عليك".

قالت: "مر بما شئت فأنا رهينة أمرك".

قال: "هل لي أن أعرف اسم سيدتي؟".

قالت: "اسمي فدوى".

قال: "عاشت الأسماء وفدتك روحي". ثم ضغط يدها مودعاً فأجابته بالمثل، وعاد إلى عزيز في عربته وقلبه يخفق وركبتاه ترتجفان ولسان حاله يقول:

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وإني لا أودعه

وكان عزيز رفيقه قد مل طول الانتظار وكاد يتميز غيظاً، واضطرم فؤاده حسداً، لكنه أخفى عواطفه وتكلف الابتسام وكان يعرف فدوى منذ أشهر وقد مال إليها لكنه لم يجرؤ على طلب يدها خوفاً من الفشل لعلمه أنها لا تنظر إلى الغنى ولا حسن الزي وتحتقر كل غر متكبر ولو ملك مال قارون. وكان لسفالة طباعه يعد كرم طباع تلك العذراء وأنفتها كبراً وتيهاً فسره إذلالها بيد أحد السفلة لعله يستطيع بعد ذلك نيلها، فلما حبطت مساعيه ورأى ما صنعه شفيق لإنقاذها أيقن أنها أحبته، فخاف أن يسرع في السعي إلى نيلها فتكون البلية عليه أعظم، فلاح له أن يوطد أمل شفيق ويجعل الأمر في يده هو لعله يقوى على تفريقهما فينال مرغوبه.

وقال له والعربة تسير بهما: "إنك يا شفيق قد صنعت مع هذه الفتاة صنيعاً ستبقى مدينة لك به مدى الدهر".

وكان شفيق غارقاً في بحار تأمله فلم يفقه خطاب عزيز، وأدرك هذا فيم يفكر فازداد حسداً له، ثم التفت إليه متلطفاً وقال وهو يظهر المحبة: "إن مثل هذه الفتاة الطاهرة لا تليق إلا بك". فخفق قلب شفيق ولم يستطع بعد ذلك سكوتاً، لكنه هدأ روعه قدر طاقته وخفض من انفعاله وقال: "أين أنا من هذه الأمنية؟ إن بيني وبينها أبعاداً، فأبوها لا يتنازل إلى مصاهرة مثلي، هذا إلى أني لست في حال تؤهلني للزواج قريباً".

فقال عزيز: "أما أبوها فعلي إرضاؤه، لأننا في عصر قل فيه الشبان وكثرت البنات، وإني واثق بأنك لو طلبت الزواج بأية فتاة من بنات الأغنياء لقوبل طلبك بالترحيب، وحصلت معها على مال كثير، فالعروس الآن تفعل ذلك غالباً، وهي عادة إفرنجية حديثة النشأة في بلادنا..".

فقاطعه شفيق قائلاً: "أرجو أن تكتم كل ما عرفته عن الفتاة، صيانةً لها وحفظاً لشرفها وشرفي".

وفيما هما في الحديث، وقفت عربة الفتاة أمام حديقة تعطر تلك الأنحاء بشذى رياحينها، وعلى جدار الحديقة إلى جهة الشارع عرائش الورد والنسرين والأقحوان. وكان منظر الحديقة من الخارج غايةً في الجمال، وفي وسطها قصر بديع الهندسة مرتفع البنيان يدل على وجاهة أصحابه وثرائهم.

وبعد قليل عاد سائق عربة عزيز بعد دخول الفتاة إلى قصرها، فساق العربة بهما إلى حديقة الأزبكية حيث ترجلا وذهبا إلى مطعم هناك تناولا فيه العشاء، ثم دخلا الحديقة وأخذا يتمشيان حول بركتها.

ومرا في الحديقة بمقهى معد للرقص والغناء، فوقف عزيز ثم أمسك بيد شفيق ودخل به المقهى حيث جلسا إلى مائدة هناك. ثم طلب قدحين من الكنياك

دون أن يفطن شفيق إلى ذلك لما تملك فؤاده من شواغل الغرام. ثم أفاق على صوت عزيز وهو يناوله قدحاً، فانتبه بغتةً كأنه هب من رقاد عميق والتفت إلى ما حوله فإذا بالناس جماعات ووحداناً يشربون ويطربون ويقهقهون، ويترنح بعضهم طرباً لصوت الغناء، وآخر ينادي بأعلى صوته: "آه.. كمان يا ست". وآخرون يشرب بعضهم نخب بعض.

فنظر شفيق إلى صديقه مندهشاً وقال له: "أين نحن يا عزيز؟". قال: "نحن في محل طرب وانبساط، خذ هذه الكأس واشربها". فأجفل شفيق ونهض معتذراً بأنه لا يرتاح لمثل هذا الاجتماع، فتبسم عزيز ونظر إليه في سخرية وقال: "لعلك لا تزال صبياً كأولاد المكاتب، تخاف كأس المدام، خذ اشربها يا صاح فإن فيها شفاء للناس".

فقال شفيق: "اعذرني لأني لم أعتد شربها، وأخشى ضررها".

فضحك عزيز حتى كاد يستلقي، ثم نادى إحدى المغنيات هناك قائلاً: "اسمعي يا ست فايقه، صاحبنا خائف من الكأس!". فاغتاظ شفيق ونهض عائداً من حيث أتى، فتبعه عزيز محاولاً إقناعه بمجاراته، فلما رأى منه الإصرار على عدم الرجوع، تحول عن عزمه ورافقه حتى خرجا.

-٣-

في دار الأوبرا

انطلق شفيق وعزيز من باب الحديقة القبلي حتى بلغا دار الأوبرا فوقف عزيز ونظر إلى ساعته وقال: "إن الساعة لم تتجاوز التاسعة واحتفال فتح الخليج لا يكون على أتمه إلا في الحادية عشرة، فلنقض هاتين الساعتين في هذا الملهى فإنه من أجمل الملاهي، وستمثل فيه الليلة رواية باللغة الفرنسية". ولم يكن شفيق قد شاهد التمثيل حتى ذلك الوقت لا في هذا الملهى ولا في غيره فقال لصاحبه: "إني أحسن فهم اللغة الفرنسية ولكني لا أرتاح إلا للتكلم بالعربية". فضحك عزيز وقال وهو يعدل وضع نظارته: "يا للعجب منك يا صاح! كيف تكون شاباً ذكياً عاقلاً تعيش في عصر

التمدن، ثم لا ترتاح للتكلم باللغة الفرنسية؟. إن جميع المواطنين المتمدنين لا يتكلمون إلا بها الآن، وقد أهملوا اللغة العربية لتعقدها وصعوبة التلفظ بها فلا يتكلم بها الآن إلا البسطاء الذين لم يتثقفوا".

فبغت شفيق ونظر إليه نظرةً ملؤها الرزانة والكمال، ثم ابتسم وقال: "إني لأعجب من أمرك يا صديقي، فكأني بك تحسب الاستمساك بالأخلاق الشرقية حطة لمقامك، ولهذا تنكرت للغة بلادك وقومك وآثرت الرطانة عليها زاعماً أنها لغة عامة الناس وأسافل السوقة، إن مخاطبتك رجلاً عربياً بلغة عجمية ليست إلا بدعة تؤدي إلى سوء المصير، وليس فيمن تقلدهم من الفرنجة — مهما يتقنوا العربية — من يؤثرونها في التخاطب على لغتهم.. لا.. لا.. إنك بصنيعك هذا تحط من قدر عشيرتك الأقربين فهم لا يعرفون إلا لغة بلادهم!".

فتكلف عزيز الضحك لإخفاء خجله وقال: "إن قولك لأشبه بما نسمعه من الرجعيين في بلادنا، ممن لم يخالطوا الفرنجة ولم يدركوا حظاً من التمدن، ولكن ما لنا ولهذا الآن، هل تريد أن تدخل الملهى أم لا؟".

فقال شفيق: "لا بأس بمشاهدة التمثيل نزولاً على رغبتك".

قال: "إذا كنت لا ترتاح للتمثيل نفسه، فستجد في مشاهدة معدات هذا الملهى ما يسرك ولا شك".

ثم ابتاعا بطاقتين للدخول ودخلا الدار، وشفيق يعجب من الازدحام هناك ومن فخامة الدار وحسن تأثيثها، حتى السلالم كانت مكسوة بالمخمل الحريري، والجدران زينت بالمرايا المذهبة الجوانب الكبيرة الحجم. فلما دخل قاعة التمثيل شاهد في سقفها ثريا (نجفة) بها مئات من الشموع فضـــلاً عن الأنوار الغازية، وقد فرشت الشرفات (الألواج) كلها وفي مقدمتها الشرفة الخاصة بالخديوي إسماعيل بأحسن الأثاث، على أنها لم تكن لتشغله عن التفكير في أمر فدوى، وكلما شاهد فتاة في لباس تركي

اختلج قلبه واحمر وجهه، وكان يحاول جاهداً إخفاء ذلك فلا يستطيع.

وكان عزيز يفكر هو الآخر في أمر فدوى، ويراقب شفيقاً وحركاته ليستطلع عواطفه، ويدبر الوسائل للإيقاع به، فلما رآه مفكراً بادره قائلاً: "فيم تفكر يا عزيزي؟". فقال شفيق محاولاً إخفاء عواطفه: "إني أفكر في هذا الملهى البديع وما اقتضى بناؤه وفرشه من الزمن والمال".

فأدرك ما يحاول اخفاءه وقال: "ألا تعجب إذا أخبرتك بأن أفندينا إسماعيل بناه وفرشه في خمسة أشهر؟".

قال: "إنه لأمر غريب حقاً. ولكن ما الذي حمله على هذه السرعة؟".

قال: "حمله على ذلك قدوم ملوك أوروبا لحضور الاحتفال الذي أعده لفتح قناة السويس، فبنى هذا الملهى إتماماً لدواعي الاحتفاء بهم وقد اقتضى هذا نفقات طائلة".

ثم رفع الستار عن الفصل الأول من الرواية فسكتا لمشاهدة التمثيل، وأخذ عزيز يسترق النظر إلى شرفات السيدات بالمنظار لعله يلمح معصم إحداهن أو يلمح وجهها من وراء الحجاب.

أما شفيق فكان يود انشغال رفيقه بأي شيء كان ليعود هو إلى التفكير فيما فيه من الحب، ولم يكن قد عرف الحب من قبل، ثم حانت منه التفاتة إلى صديقه فوجده مصوباً منظاره إلى إحدى الشرفات وهو يضحك والخلاعة بادية في حركاته فخشي أن يهزأ الحاضرون بهما لذلك، وكاد يتميز غيظاً، وعلت وجهه حمرة الخجل، فالتفت إليه وهمس قائلاً: "علام تضحك يا عزيزي؟".

قال وأمارات النـــزق والخفة تبدو على وجهه: "لقد شاهدت من وراء الحجاب معصماً كأنه صيغ من بلور، وكأني به لو لم يمسك بالأساور لسال من الأكمام سيل الجداول، وأعتقد أن صاحبته أشارت إلي به". قال ذلك وهو يكاد يطير فرحاً.

فنظر إليه شفيق شزراً وقال: "ما الذي أوجب وضع الحجاب على نوافذ

تلك الشرفات؟".

قال: "إنه لمنع الناس من النظر إلى الجالسات فيها، مراعاة لحرمة الدين والتقليد".

فقال شفيق: "إذن لا يليق بنا أن نسترق النظر إليهن من وراء الحجاب".

فتكلف عزيز ضحكة ليستر بها خجله وسكت، وبعد يسير عاد إلى منظاره فصوبه إلى الشرفة نفسها ثم قال لشفيق: "سأتركك قليلاً لأذهب في مهمة طارئة وأعود بعد دقائق".

فعجب شفيق لتلك الوقاحة، ولكنه لم يسعه إلا السكوت، ولبث ينتظر عودته متلهياً بمتابعة التمثيل، فلما طال به الانتظار، أوجس خيفةً على رفيقه، و لم يستطع البقاء فخرج يبحث عنه خارج القاعة فلم يقف له على أثر، وعاد إلى القاعة مغيظـــاً مضطرباً فانتظر قلقاً حتى دقت الساعة الحادية عشرة، فنفد صبره و لم ير بداً من الخروج معتقداً أن عزيزاً لا بد أن يكون قد خرج من الملهى لأمر ما.

★★★

هم شفيق بمغادرة القاعة بعد أن أسدل الستار على الفصل الأول. وفي عزمه أن يبحث عن عزيز مرة أخرى في حجرات التدخين والمشروبات والممرات، وفيما هو كذلك إذا بعبد طويل القامة دقيق العضل ممتلئ الجسم لا نبات في عارضيه عليه لباس إفرنجي أسود وعلى رأسه طربوش أحمر، يقف أمامه ملقياً التحية في أدب، ثم قال له: "هل يسمح سيدي أن يتكرم علي بذكر اسمه الكريم؟".

فعجب من هذا السؤال، لكنه لم يسعه إلا أن يجيب عنه، فقال وهو يهم بالانصراف: "اسمي شفيق".

فقال العبد: "إن بعض أصدقائك يودون مقابلتك الساعة يا سيدي. وهم ينتظرون بجانب باب حديقة الأزبكية القبلي".

فعجب شفيق وقال له: "من هؤلاء الأصدقاء؟". قال: "عفواً يا سيدي. لقد عنيت صديقاً واحداً. ثم اقترب منه متأدباً وهمس في أذنه قائلاً: "السيدة فدوى".

فخفق قلب شفيق خفوقاً سريعاً، واصطكت ركبتاه وأخذته القشعريرة، لكنه تجلد جهد طاقته ونظر إلى العبد نظرةً ملؤها الوداعة والشكر وقال: "إني ليسعدني حقاً أن أبادر بإجابة هذا الطلب، غير أني أبحث عن زميل لي كان معي هنا وانصرف منذ حين. ومتى وجدته أو وقفت على سبب غيابه فسأكون طوع أمر السيدة المصونة". قال هذا ومضى حتى خرج من الملهى فإذا بعربة عزيز لا تزال حيث تركاها، فعلم أنه لم يخرج ووقف يفكر في أمر فدوى ودعوتها إياه في ذلك الوقت، فيشتد خفقان قلبه، ثم يعود فيذكر أمر رفيقه فتحدثه نفسه بأن عليه أن يجيب داعي المروءة فيبحث عنه قبل أن يجيب داعي القلب ويذهب لمقابلة فدوى.

وما زال متردداً، والعبد ينتظره خارج الدار، حتى انتصفت الساعة الثانية عشرة وهو في حيرته بين أن يلبي طلب سالبة لبه، وبين البقاء لانتظار صديقه. وأخيراً تغلب دافع الحب فرأى أن يسير إلى فدوى ثم يعود بعد ذلك للبحث عن عزيز ونادى العبد وصحبه إلى الحديقة، فلما اقتربا من بابها القبلي رأى هناك مركبة واقفة، فأدرك أنها مركبة فدوى، وامتقع لونه فتعثر في سيره حتى كاد لا يقوى على المسير، وما أقبل على المركبة حتى شاهد فدوى مطلة من النافذة وهي في أبدع ما يكون من الجمال، وقد زايلها الوجل والاضطراب، فوقف خاشعاً يتأمل وجهها الطافح بهاء وحياء، وعينيها الدعجاوين الممتلئتين ذكاء ودعة، يحرسهما حاجبان مزججان يكتنفهما لثام أبيض شفاف، ويتراءى من ورائه مبسم كله معان، ويتجلى في وجهها وقار يزينه الحياء.

فلما وقعت العين علي ترامت السهام من الجانبين، وبادرته فدوى بالتحية مبتسمة، ثم مدت يدها إليه تصافحه وقد غلب عليها الحياء

وأحست بقشعريرة انتظمت كل أطرافها، وتصبب جبينها عرقاً، ولم تقو على تسكين اضطرابها، فلما أدرك شفيق منها هذا وقد تصافحت الأيدي حتى ارتعدت فرائصه ولم يستطع الوقوف فأسند يده إلى نافذة العربة، وحاول تسكين روعه فلم يستطع. ثم رفع بصره إليها وهم بمخاطبتها فامتنع عليه الكلام ولم يقو على إدامة النظر فأطرق حياء ووجداً، وأخيرا تجلد وقال: "أطلب إليك المعذرة يا سيدتي لتأخري بضع دقائق عن الموعد الذي ضربته، وما تأخرت إلا لأني كنت أبحث عن رفيق لي ولم أظفر به حتى الآن".

قالت: "لعله صديقك الذي كان معك في العربة؟". قال: "نعم". فتكلفت الابتسام، وأرادت التكلم فمنعها الحياء. والتبس الأمر على شفيق فسألها: "أهناك أمر تعرفينه عن صديقي عزيز؟". فلم تجب وظهر اضطرابها جلياً عند ذكر اسم عزيز، فتشاغلت بتثنية طرف اليشمك بين أناملها وبقيت مطرقة. فقلق شفيق، وأدرك أن هناك شيئاً لا تريد التصريح له به، وهم بسؤالها ولكنه استحيا فأجل هذا إلى ما بعد الحديث الذي استقدمته لأجله، وأصاخ بسمعه ينتظر ما تقول.

فقالت: "ربما تعجب من أني دعوتك الليلة لأخاطبك على انفراد وأنت شاب لم يسبق لي معرفة بك من قبل فضلاً عما تعلمه من عادتنا في التحجب عن كل رجل إلا أقرب ذوي قربانا. وربما تنسب ذلك مني إلى الخفة والطيش".

فابتدرها شفيق قائلاً: "معاذ الله فأنت أرفع من أن تهبطي إلى مثل هذا وقد خصك الله بكمال الذات والصفات".

فنظرت إليه بعين الحب نظرة خرقت أحشاءه، ولم تقو على مكاشفته بما في فؤادها فقالت بصوت منخفض: "لا يعرف ما في القلوب إلا الله، وما جرأني على أن أدعوك إلى هذا الموقف إلا الشهامة التي أبديتها لإنقاذي من

العار، إذ جعلتني أحس فضلك وكرم أخلاقك وأشعر بأني مقصرة عن شكرك، ولا أقول مكافأتك لأنها أمنية لا يمكنني الوصول إليها ولو ضحيت بنفسي بين يديك. فالآن أرغب إليك في أن تتقدم إلي بما تشاء لعلي أقوم بشيء من الواجب".

قال: "كفاك يا سيدتي إطراء، فلا تدعيني أحس قصوري عن بلوغ ما تصفينني به، وقد ذكرت لك أني لم أقصد بإنقاذك استجلاب المكافأة، إذ لم يحملني عليه إلا الواجب الإنساني، فلست أطمع في غير رضاك إن كنت أستحقه".

فقالت وقد رمقته مستعطفة: "أهذا غاية ما تتمناه يا شفيق؟".

فأجابها وهو مطرق: "إن ذلك غاية ما أستحق يا سيدتي".

قالت: "إنما أسألك عما تتمنى؟".

فتنهد وقال: "ما كل ما يتمنى المرء يدركه". وكلل جبينه العرق خجلاً فأدركت هي ما وراء ذلك وغلب عليها الحياء فأطرقت خجلاً أيضاً.

وكأنما شجعه هذا فواصل حديثه قائلاً: "أراك قد تراجعت و لم أذكر لك ما أتمناه، فكيف لو ذكرته؟".

فدنت من النافذة بلطف وقد خفضت من اضطرابها ومدت يدها إليه فتصافحا وأوضحا بالإشارة ما يقصر دونه الخطاب.

ثم عاودت الحديث قائلة: "لعلك تعجب لمعرفتي مقرك، والواقع أني جئت الليلة مع أبي لمشاهدة التمثيل فرأيتك حيث كنت بجانب صديقك، ولاحظت أنك لا تحول نظرك مثله إلى شرفات السيدات. ونظراً إلى ما أشعر من فضلك علي، أحببت مخاطبتك لأكرر لك الشكر، فاستأذنت أبي في الخروج من دار الأوبرا، وبعثت إليك بخادمي الأمين بخيت الذي أثق به كثيراً لما عرف به من الأمانة والبسالة وكرم النفس وصدق الطوية. وقد أطلعته على ما أبديته لأجلي من المروءة والشهامة فأصبح يحبك محبته لي ويعجب ببسالتك وكرم أخلاقك. وحيث أن أبي في انتظاري الآن

فيحسن بي أن أعود إليه".

فقال: "وأنا أيضاً سأعود للبحث عن عزيز". ونظر إليها ليرى ما يبدو على وجهها فإذا هي مطرقة تريد التكلم ويمنعها الحياء.

فقال: "إني أقرأ في وجهك كلاماً ترومين إظهاره ويمنعك الحياء، ويخيل إلي أنه يتعلق بصديقي عزيز، فعلام تحجبينه عني؟".

قالت: "ليس في الأمر ما يوجب التستر، ولا يمكنني التصريح بأكثر من أن عزيزاً ليس من أمثالك".

فقال: "هل عرفته قبل الآن؟". قالت: "لم أشاهده إلا معك ساعة الغروب في حال الاضطراب، ثم في الملهى حين غادره وتركك مؤملاً عودته لحسن طويتك وإخلاصك، ولكن الإخلاص إذا كان مع.."..

وأمسكها الحياء فلم تتم جملتها وقالت: "إذا شئت تحقق الخبر فاسأل بخيتاً، والآن أستأذنك في الذهاب لأن أبي ما زال في انتظاري، على أني أطمع في موعد قريب أراك فيه".

فبهت شفيق وقد تذكر ما مر عليه هذه الليلة من الأهوال، وخاف أن تلحظ ما خامره من الارتباك فقال: "إني رهين إشارتك، ونظراً إلى أن الوقت لا يسمح بأن تتأخري أكثر من ذلك، سأتحدث في هذا مع بخيت، فعودي أنت في حفظ الله ورعايته إلى أبيك".

فمدت يدها من نافذة العربة وصافحته، ثم انطلقت بها العربة بعد أن نظرت إليه نظرة أغنته عن كل شرح وبيان.

★★★

بقي شفيق واقفاً مكانه وقد فقد حواسه بذهاب فدوى، ثم انتبه إلى نفسه فمشى عائداً إلى الأوبرا، حيث وجد بخيتاً ينتظره خارجها، فانتحى به ناحية، وشرع يستطلع منه ما أشارت إليه فدوى مما لم تقدر أن تفوه به، فقال بخيت: "إني لا أستحيي أن أقول لك يا سيدي أن عزيزاً لا يستحق أن

يكون صديقاً لك!".

فسأله: "لماذا؟". فقال بخيت: "لأنه غادر خؤون مذموم. وقد تركك تنتظره على مثل الجمر وسار إلى من هي عـ ـاكلته من..".

فقاطعه شفيق قائلاً: "هل علمت أين ذهب؟".

فقال: "الواقع يا سيدي أني كنت مع سيدتي في شرفتها نراقب حركاتكما، فلاحت مني التفاتة إلى بعض الشرفات فإذا بواحدة قد أومأت إليه من وراء الحجاب، ولما خرج هو من عندك خرجت هي من خلوتها، ولا أعلم إلى أين ذهبا، وإنما أؤكد لك أنهما لم يخرجا من الدار، فإذا بقيت هنا إلى انقضاء التمثيل فلا بد من أن تراه خارجاً".

فقال شفيق وقد اشتد به الغضب: "يا للغرابة! كيف يمكن أن يكون ذلك؟".

قال: "إن سمو أدبك يا سيدي يجعلك لا تظن به سوءاً، فتعال بنا ندخل الملعب وأنا أبحث عنه فإذا ظفرت بمكانه أتيت بك إليه وأريتك إياه رأي العين".

ثم دخلا، ومضى شفيق إلى مقعده، وذهب بخيت ليبحث عن عزيز، وبعد قليل عاد مهرولاً وعلى وجهه أمارات الدهشة. فسأله شفيق عن الخبر فقال: "لقيت صاحبك وسيدي الباشا في خلوة يتساران، وسأرجع إليك بما يدور بينهما". فذهل شفيق ولبث مبهوتاً يفكر في أمر صديقه. وعاد بخيت لاستطلاع الخبر.

أما ما كان من أمر عزيز فإنه غادر شفيقاً في خلوته وخرج لمحادثة عجوز دهياء، كأنها حية رقطاء بجفن أحمر وخد أصفر ووجه أغبش. وكانت هذه العجوز في الشرفة التي أشار إليها بخيت، وهي دلالة تبيع الأقمشة والمصوغات للسيدات في بيوت الأعيان وأرباب المناصب، وتتكلم التركية والفرنسية جيداً. فلما رأت عزيزاً رحبت به طمعاً في غناه وقالت له: "ما وراءك؟".

قال: "المهم ما وراءك أنت، إنك والله يا خالتي دليلة للدليل الهدي والانشراح".

فقالت: "إني رهينة أمرك يا بني فمرٍ ما شئت".

فمد يده إلى جيبه وأخرج نقوداً في صرة ووضعها في يدها قائلاً: "مرادي أن أكلفك قضاء أمر أرجو ألا يكون صعباً لديك".

قالت وقد وضعت الدراهم في جيبها: "ثق يا حبيبي أنك في معزة ولدي، وما يهمك يهمني. وقد عتبت عليك لدفعك لي دراهم و لم أقبلها إلا مرضاة لك".

فقال عزيز: "ليس لنا بركة إلا بك يا خالتي، وأما ما أطلب إليك قضاءه فهو.. هل تعرفين فدوى؟".

فقهقهت دليلة وقالت: "كيف لا أعرفها؟. لقد عرفت أباها الباشا المورالي، وعرفت أمها منذ أتي بها من الشام بعد أن تزوج بها هناك. وابنتهما فدوى بمنـــزلة ابنتي وقد عرفتها منذ نعومة أظفارها".

فقال عزيز: "إذن قضي الأمر، وما دامت فدوى بمثابة ابنتك، فأظنك لا تكرهين أن أكون عندك بمثابة صهرك؟".

فسكتت هنيهة ثم قالت: "ذلك أمر سهل ولا يكون إلا ما تريد، فأنت شاب غني وهي لا تطمع فيمن هو أكثر منك مالاً وأعظم نوالاً. لكني علمت منذ بضعة أسابيع أنها معقودة عليها لأحد شبان العاصمة".

فقاطعها عزيز قائلاً: "لم يعقد له عليها وإنما خطبها من أبيها فلم ترض هي به، وقد ترتب على ذلك ميله إلى الانتقام منها، وأصارحك بأني أحبها".

قالت: "عليك بمرضاة أبيها، وعلي مرضاة أمها. أما هي فلا أظنها تخالف والديها".

قال: "وما الذي يرضي أباها؟".

قالت: "إنه بخيل يحب المال ويستسهل الصعب في سبيل نيله. كما أنه يحب الإطراء والمدح".

قال: "وما هو عمله؟". قالت: "إنه صاحب أملاك كثيرة يعيش من دخلها ويقضي معظم أيام السنة في ضيعة له في مديرية الشرقية".

فقال عزيز: "عليك إذن استطلاع رأي والدتها، وها أنذا ماضٍ لمقابلة أبيها لعلي أستفيد منه شيئاً". ثم ودعها وخرج.

★★★

مضى عزيز إلى الشرفة التي جلس فيها الباشا فدخل عليه مسلماً بإحناء رأسه كتحية الإفرنج.

فلما رآه الباشا، رحب به لما يظهر على ملابسه من مظاهر الرفعة والمجد، ثم أجلسه بجانبه وسأله عن بلاده، فقال عزيز وهو يمضغ الكلام في فمه ويقطعه شأن أغراب اللغة الذين لا يحسنون التكلم بالعربية جيداً: "إني من أهل هذه المدينة يا سعادة الباشا".

قال: "ولكني أرى في لغتك لهجة إفرنجية".

قال: "ذلك لأني أسافر إلى باريس كل سنة لقضاء فصل الصيف فيها".

فسأله الباشا: "ما اسم أسرتكم الكريمة؟".

قال: "إني يا سعادة الباشا من أسرة جندب، واسم عبدكم عزيز".

فنظر إليه مندهشاً وقال: من أسرة جندب؟. إذن أنت قريب السيد جندب المغربي المتوفى منذ سنتين؟". قال: "هو أبي يا سيدي".

فانفرجت أسارير الباشا وقال: "رحمه الله، كان رجلاً عاقلاً حكيماً وقد جمع ثروة كبيرة بجده واقتصاده. هل ترك المرحوم أولاداً غيرك؟".

قال: "لا يا سعادة الباشا، إنني ابنه الوحيد".

قال: "وماذا تمارس من الأعمال؟". قال: "إني ما زلت طالباً في المدرسة، وفي النية متى تخرجت أن أنشئ جريدة سياسية".

فاستبشر الباشا وقال: "حسناً تفعل لأن أفندينا يحب المشروعات العلمية

والأدبية ويشجعها كثيراً، وطالما كافأ رجال العلم والأدب ومنحهم الأموال الطائلة والرتب والنياشين. أما الجرا' فإن دوائر الحكومة بفضل توجيهه تشترك في نسخ عدة من كل منها".

فقال عزيز: "صدقت يا سعادة الباشا، ولكني أظن أن ذلك كان دأب سمو الخديوي قبل تأليف اللجنة الدولية الخاصة بمراقبة مالية البلاد، وأما الآن فالمراقبان يقومان بمراجعة الحسابات، وقد غلا الخديوي فيما يختص بالنفقات غير الضرورية وأخشى أن يحول ذلك دون نجاح مشروعي".

فقال الباشا: "نعم إن المراقبين أوقفا النفقات غير الضرورية، غير أن تشجيع الجرائد لا يدخل في أعمال المراقبة، هذا إلى أن المراقبة قلما قيدت أعمال الخديوي، بل إن الوزارة التي أدخلت الدول فيها وزيرين أجنبيين أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي فلما أثرت في بسط كفه".

قال عزيز: "وما رأي سعادتك في الحكومة الشورية؟. ألا ترى أنها قيدت أعمال الخديوي، وبعد أن كان الحاكم المطلق يمنح ويمنع دون معارض، صار لمجلس النظار حق التدخل في كل الاجراءات".

فقال الباشا: " لا يعيقنك ولا يثن عزمك شيء، وما دمت قد عزمت فتوكل على الله، وما أنت في احتياج إلى الكسب".

قال عزيز: "حسناً.. ولكن لدي مسألة أخرى مهمة أريد عرضها على سعادتكم".

قال: "وما هي؟". قال: "تعلم أن أبي ترك لي مالاً طائلاً، وليس في ذوي قرباي من يصلح لتولي إدارة هذه الأموال وأكون على ثقة منه، ونظراً لما هو مشهور عن حسن أمانتكم أتيت أستشيركم فيما أفعل".

فاشتم الباشا من كلامه رائحة الربح الكثير، ولا سيما إذا قدر له أن يكون هو الوصي عليه، فقرب كرسيه منه وقال له: "يعز علي أيها الحبيب ألا أساعدك في هذا الأمر، لأن الأمناء قليلون ولا سيما في هذه الأيام. على

أني سأبحث عمن يصلح لذلك، فإن لم نوفق إلى كفؤ أمين، فإني أتعهد بأن أقوم لك بهذه الخدمة لأن أباك رحمه الله كان من أصدقائي".

فقاطعه عزيز متلهفاً وقال: "إنها لمنحة كبرى من سعادتكم. ولكني أخشى أن يكون في ذلك ما يثقل عليكم. على أني إذا أسعدني الحظ بوصايتكم الرشيدة فإني أعاهد سعادتكم على رفع هذا العبء عنكم عقب زواجي مباشرةً بإذن الله".

فكاد الباشا أن يطير فرحاً لعلمه بوفرة الثروة التي آلت إلى عزيز عن أبيه، وأنه إن تولى الوصاية عليه فسيكون حر التصرف فيها ولا سيما إذا تمكن من تحبيب ابنته إليه وتزويجه بها. ولما تصور ذلك اختلج قلبه سروراً، وتضاعف احترامه لعزيز فقدم له سيكارة وتبسط في الحديث معه. بينما أخذ هذا يدخن ويتنقل بنظره من جهة إلى أخرى، ثم يرفع النظارات ويمسحها بطرف منديله، وفكره مشغول بالبحث عن وسيلة يعرقل بها مساعي شفيق ويحول دون استمرار الحب المتبادل بينه وبين فدوى.

وفيما هما كذلك، جاء بخيت وقال: "يا سعادة الباشا إن سيدتي عادت إلى شرفتها". فقال الباشا: "حسناً". فحنى بخيت رأسه إجلالاً وخرج.

أما عزيز فعلم أن خروج فدوى لم يكن إلا لمقابلة شفيق خارج الملعب، فازداد حسداً له وأجهد فكره حتى اهتدى إلى حيلة رأى أنها كفيلة بإبلاغه مرامه فقال للباشا: "أليس الأغا الذي خاطب سعادتكم الآن تابعاً لفدوى هانم؟".

فبغت الباشا وقال: "نعم، وهي ابنتي وكانت قد خرجت بعد الفصل الأول للترويح عن نفسها، ثم رجعت".

فتظاهر عزيز بالدهشة وقال: "هل السيدة فدوى ابنة سعادتكم؟".

قال: "نعم هي ابنتي، هل رأيتها قبل الآن؟".

فقال عزيز: "عرفتها مصادفة". وسكت فاشتغل قلب الباشا، وطلب إلى

عزيز أن يبين له كيف كان ذلك، فتظاهر هذا بالامتناع عن الإجابة وقال: "ليس في الأمر ما يوجب الاهتمام". فلما ألح عليه الباشا قال: "الحق أنه يجب علي حباً لمصلحة سعادتكم وصيانة لشرف كريمتكم أن أوجه التفاتكم إلى أمر مهم، وهو ضرورة العناية بأمر ابنتكم العزيزة، لأنها جوهرة ثمينة لا يكفي أن يعهد في أمرها إلى الأغوات والخدم، لأن الأمين بينهم قليل".

فقال الباشا: "صدقت يا عزيزي، لكني قد عهدت في أمرها إلى أفضل من عرفت بين هؤلاء، وبخيت الذي رأيته الآن خادم أمين صادق يحب الفتاة حباً جماً، ويبذل حياته في المحافظة عليها، وقد ظهرت أمانته في أحوال مختلفة".

فقال عزيز: "على كل حال، ليس ما أبديته سوى نصيحة عامة، وحسبنا هذا الآن، وعسى أن نلتقي مرة أخرى للمفاوضة فيما دار بيننا".

فقال الباشا: "حبذا لو أتيت إلي في منـــزلي غداً". ثم نهض عزيز مودعاً وانصرف واثقاً بأنه ترك في قلب الباشا أبلغ الأثر، بما أظهره من الرقة واللطف والثقة به، وغيرته على ابنته.

★★★

أي شيء يكون أقبح مرأى ... من صديق يكون ذا وجهين؟
من ورائي يكون مثل عدوي ... وهو إذ يلتقـــي يقبل عينـــي!

خرج عزيز وترك الباشا يفكر فيما سمعه عن ابنته وقد وجه انتباهه من ذلك الحين إلى مراقبتها وإن كان واثقاً بتعقلها وعفافها، فلم يمنعها شيئاً مما اعتادته من حرية الخروج للتنـــزه ومقابلة صويحباتها. على أن الجانب الأعظم من اهتمامه كان منصرفـــاً إلى ما أمله من الكسب إذا تولى الوصاية على أموال عزيز.

وكان بخيت قد سمع كل ما دار بين الباشا وعزيز من الحديث، فسارع

قبل خروج عزيز إلى مقابلة شفيق، وقص عليه حكاية صديقه موجزة ثم قال: "لا بد من تأجيل اجتماعك بسيدتي ريثما تذهب الشبهة عنها".

فبهت شفيق ولكنه لم يقطع بأن مقابلة عزيز للباشا كانت للوشاية به، وذلك لأنه كان حسن النية، مصدقاً لما وعد به عزيز خلال عودتهما من الجزيرة من معاونته على الزواج بفدوى.

ومضى عزيز إلى الشرفة التي كان فيها مع شفيق، فلما لم يجده فيها أخذ يبحث عنه حتى لمحه يتحدث مع بخيت، فأدرك أن هذا أبلغه كل ما حدث، لكنه تغاضى عنهما حتى افترقا ثم سار إلى شفيق وبادره قائلاً وهو يظهر الخجل: "اعذرني يا عزيزي إذ أطلت الغياب، وستعلم نبأه بعد قليل. والآن قد انتصف الليل وانقضى التمثيل فهيا بنا نتمم سرورنا بمشاهدة احتفال فتح الخليج".

فقال شفيق: "كفانا ما لقيناه الليلة، ولا شك في أن أبي في قلقٍ عظيم لتأخري وقد أنهكني السهر لأني لم أتعوده".

فقال عزيز ساخراً: "لا يحمل بأحد أن ينام الليلة وهي ليلة فتح الخليج، أما والداك فما أظنهما يتقاعدان عن الذهاب لمشاهدة الاحتفال، فأهل القاهرة صغاراً وكباراً يحرصون على مشاهدته".

وما زال يحاول إقناعه حتى بلغا مكان العربة فأمسك بيده وأجلسه فيها ثم جلس بجانبه، ومضت العربة بهما إلى فم الخليج وكلاهما تائه في عالم هواجسه الخاص.

وكانت هذه أول مرة شعر فيها شفيق بالارتياب في صداقة عزيز، فأراد مكاشفته بما سمعه عنه لئلا يكون تحاملاً عليه، وقال له والعربة منطلقة بهما: "إن الصداقة التي بيننا تقضي علي بمكاشفتك بأمر سمعته عنك، وأرجو ألا يكون صحيحاً".

فقال عزيز: "ماذا بلغك؟". قال: "بلغني أنك تركتني وذهبت لمسامرة إحدى النساء، وقد أفضى بك الأمر إلى الحديث مع بعض الناس بما لا

يوافق مصلحتي!".

فنـــزع سعيد سيكارته من فيه متظاهراً بأنه يتميز غيظاً وقال: "إني مسرور لمكاشفتك إياي بما في ضميرك أيها العزيز، وسأطلعك على حقيقة الأمر ليتحقق لديك صدق طويتي لك، فإني لم أفعل إلا ما فيه مصلحتك، قياماً بوعدي لك بعد أن توسمت ميلك إلى فدوى على أثر إنقاذك إياها. وقد سعيت لتسهيل أمر اقترانك بها، وسلكت لذلك سبيل الحكمة والتعقل، فقابلت عجوزاً محنكة لها إلمام تام بدخائل بيت الباشا، فأشارت علي بمقابلته والتلطف معه في الحديث ثم التطرق إلى الغرض المنشود. وعلى هذا قابلته ونبهته إلى وجوب العناية بابنته وعدم السماح بخروجها وحدها. وكنت أرجو أن يسألني عن الخطر الذي يترتب على ذلك، فأنتهز الفرصة، وأذكر له ما كان من أمر إنقاذك إياها من خطر العار والموت، ثم أستطرد إلى ذكر صفاتك وألمح إلى جدارتك بالاقتران بها، ولكني لم أستطع الوصول الليلة إلى هذا الحد، وسأعود إلى ذلك في فرصة أخرى".

وكان عزيز يتكلم مظهراً السذاجة والإخلاص التام، فلم يسع شفيق إلا أن يصدقه وقال: "إني غير طامع في نيل الفتاة، لبعد ما بيني وبينها".

فالتفت عزيز إليه مظهراً الدهشة وقال: "إنك جدير بها وبأعظم منها. لا أقول ذلك تحقيراً لها في عينيك لأنها فتاة غنية وقد زينها الله بكمال الذات والصفات، ولكنك أيضاً شاب نادر المثال بعلمك وأدبك وفضلك. ولو أنك طلبت يد أية فتاة من بنات الكبراء لنلتها ونلت معها مالاً وافراً. فهذا العصر — كما تعلم — عصر الشبان، وهم الذين يحصلون على المهر الآن لا الشابات".

فقال شفيق ساخراً: "إن العلم والأدب والذكاء وما إليها من الفضائل جواهر لا تباع ولا تشترى، ثم إن (الدوطة) ليست من عادتنا نحن الشرقيين، وإن فتاة في جمال فدوى وكمالها وأدبها لا تحتاج إلى دفع مهر،

بل ليس أسهل عليها من أن تجد بين أمثالها من أولاد الأثرياء من يدفع لها أكبر مهر".

فتبسم عزيز وهو يتقد غيرة وحسداً، وعمد إلى تحقير فدوى في عيني شفيق، فقال له: "لا أنكر عليك شيئاً من ذلك ولكن لدي ملاحظة أرجو أن تسمح بإبدائها، وهي أن فتاة مثلها لم يكن يحسن بها أن تبقى في الجزيرة وحدها في الليل الدامس، مما عرضها للخطر الذي عرفته!".

فاستعرت نار الغيرة في قلب شفيق، وأحس كأن الإهانة لحقته هو، ولم ير بداً من دفعها عن مالكة لبه فقال وقد بدت علائم الخجل على وجهه: "إنها لم تذهب إلى الجزيرة لتبقى هناك إلى الليل، وأنت نفسك أخبرتني بأن سائق مركبتها تواطأ مع الجاني الأثيم على تعويقها هناك، فليس فيما حدث ما يحط من قدر أدبها وتعقلها".

فلما رأى عزيز ما يتخلل كلام شفيق من الغيرة الشديدة على فدوى، تلوى مثل الحية، واشتعل فؤاده حسداً، لكنه كظم غيظه وخاف إذا اختلق عليه أكذوبة أخرى أن يقع في شر أعماله فينكشف أمره وتحبط مساعيه، فصمت وأخذ يتشاغل بتقليب عصاه في يده ثم قال: "لم أقل لك يا عزيزي إنها بقيت في الجزيرة حتى ذلك الحين باختيارها، وإنما قلت إن ذلك التأخير ربما أضر بسمعتها".

قال ذلك إخفاءً لما كاد يظهر من حسده وغيرته، ولكن قلبه ما برح يزداد غضباً وحسداً لشفيق حتى حدثته نفسه بأن يفتك به، ولكنه لم يجرؤ على ذلك لعلمه أن شفيقاً أشد منه بطشاً، فعمد إلى الحيلة شأن الضعيف الساقط الهمة المرذول".

★★★

وصلت العربة بشفيق وعزيز إلى ساحة فم الخليج، وقد انفض الاحتفال ولم يبق في الساحة إلا نفر قليل. فسر شفيق لذلك لأنه كان قلقاً لتأخره عن العودة إلى والديه، فقال لعزيز: "هيا بنا، فقد انقضى معظم الليل وأنا

موجس خيفةً من قلق والدي علي".

قال عزيز: "إني أضن بفراقك يا عزيزي، لأني لا أسر إلا بمشاهدتك. وقد كانت هذه الليلة لدي من أسعد الليالي. أما وأنت مصر على العودة الآن فإني أشيعك إلى المنـــزل". قال ذلك وأمر السائق فمضى بالعربة إلى شارع العباسية. وجلسا صامتين في العربة حتى وقفت أمام باب منـــزل شفيق، فسمعا صوتاً من إحدى النوافذ ينادي: "شفيق.. شفيق..". فعرف شفيق أنه صوت والدته، فأجابها بقوله: "لبيك يا أماه".

فقالت: "ما هذا التأخر يا ولدي، ألا تدري أن والديك على مثل الجمر لطول غيابك. ما عهدتك تصنع مثل هذا". وهرولت لملاقاته فأسرع إليها عزيز وهم بتقبيل يدها احتراماً فمنعته من ذلك وردت تحيته، لأنها لم تكن مسرورة من مرافقته لابنها.

ثم التفتت إلى شفيق وقالت له: "أيليق بك يا ولدي أن تطيل علينا الغياب دون أن تعلمنا؟".

فأجابها متعجباً: "ألم يبلغكما خبر ذهابي مع صديقي عزيز إلى احتفال فتح الخليج؟". قالت: "لا". فأطرق عزيز متظاهراً بالكدر ثم قال: "عفواً يا سيدتي، لا بد أن خادمي قد نسي أو توانى في إبلاغكم الخبر، وسأعاقبه على ذلك بطرده". ثم ودعهما وخرج.

وسألت سعدى شفيقاً: "ألم تقابل أباك يا بني؟. لقد خرج للبحث عنك".

فقال: "لم أقابله يا أماه، وإني لآسف لما حملتكما من المشقة هذه الليلة، على أني لم أتأخر إلا لوثوقي بإبلاغكما خبر ذهابي إلى فم الخليج". فسكتت حتى دخلا المنـــزل ثم سألته: "هل تناولت العشاء؟". قال: "نعم". فقالت: "أما نحن فلم نذق طعاماً ولم نعرف رقاداً حتى الآن!". ثم أخذته إلى حجرة المائدة ودعته إلى الجلوس لمؤاكلتها ريثما يعود أبوه، وجلسا

يتناولان الطعام ويتحدثان. فلما أبطأت عودة إبراهيم أعرب شفيق عن قلقه لذلك، فقالت له أمه: "لعل تأخره لشاغل مهم". ثم سألته عن سبب تأخره هو على غير عادته، فقال ألم أقل لك إننا كنا نشاهد الاحتفال بفتح الخليج؟". فقالت: "لم أعهد فيك الإخبار بغير الواقع، فقل لي ما سبب تأخيرك لأني أعلم أنك لم تكن هناك".

فتعجب شفيق لمعرفتها ذلك وقال: "معذرة يا أماه، وسأقص عليك الخبر على أن تبقيه سراً ولا تطلعي عليه أحداً حتى ولا أبي". ثم قص عليها الحكاية من أولها إلى آخرها، وهي مقبلة على سماعها مستغربة ما صادفه من الحوادث. ولما أتى إلى حديث الفتاة احمر وجهه حياءً وكاد يمتنع عليه الكلام، فازدادت أمه دهشة وخافت عليه ذلك الغرام وهو ما زال يافعاً غض الشباب فقالت: "وكيف أحببتها لأول نظرة وأنت لا تعرف عنها شيئاً؟".

قال: "أعترف لك بأني أجهل السبب، ولكني شعرت نحوها بما لم أشعر به نحو أحد في هذا العالم، ولا أخفي عليك أيضاً أني شاهدت من محبتها لي ما لا يقل عن ذلك ولكن آه يا أماه". قال هذا وكاد يشرق بالطعام، فبادرته قائلة: "لا بأس عليك يا ولداه. مم تشكو؟".

فترقرقت عيناه بالدموع وقال: "اعذريني يا أماه. إني لا أملك حواسي".

فقالت: "لا بأس عليك يا بني، خفض من اضطرابك ولا تخف علي ما بك".

قال: "إني يا أماه أحبك حباً مفرطاً". ولم يتمالك عن البكاء فخافت عليه أمه شدة الانفعال فترامت عليه وضمته إلى صدرها وقبلته قائلة: "لا تخجل يا ولداه، إن المحبة إذا قرنت بالشرف والشهامة لم يكن فيها ما يخجل، فسكن روعك واشرح لي كيف تحابتما".

قال: "إني أحبها يا أماه حباً لا أعرف كيف نشأ، ولكني أحس أن له تأثيراً في كل جوارحي كأنه جرى في مفاصلي".

فقالت: "كأني بك تميل إلى الاقتران بها؟".

فأطرق حياء، ثم رفع وجهه والدموع ملء عينيه وقال: "نعم يا أماه إني أميل إلى ذلك، ولكن ماذا ينفع هذا الميل وبيني وبينها بون عظيم، وأنا لا أعلم حقيقة مستقبلي؟".

فرق قلبها له وغلب عليها الحنو فقالت: "إني أعرف الفتاة يا ولدي، وقد سمعت عن تهذيبها ولطفها وذكائها من إحدى جاراتنا، ولا ألومك على حبك لها. لكن لا يخفى عليك أن الفتاة من عائلة عريقة في الحسب والنسب وذات ثروة عظيمة، فاجتهد لكي تكون رجلاً عظيماً فتستحقها، ولا يأخذ منك اليأس مأخذه، فما دمت ذكياً مهذباً صادق اللهجة صحيح المبادئ مقداماً فلن يمنعك مانع من الارتقاء واجتياز كل ما يعترضك من المصاعب. ومما يساعدك في نيل مطلوبك أن حبكما متبادل، فلا خوف إذن من ميلها إلى سواك".

فسرى عنه وقال: "إن كلامك أيتها الوالدة الحنون قد نبه في أشرف المبادئ ورقي أفكاري إلى درجة لا أرضى معها التزلف والمذلة، ولكن آه يا أماه!. أين أنا الآن مما تقولين؟. ومن لي بالصبر حتى أتبين مستقبلي؟".

فقالت: "إن الحب يصنع المعجزات يا ولدي، فكن حازماً واعلم أنك لن تنال مرادك إلا إذا اجتهدت ونبغت في دراستك ثم صرت ذا منصب يفي باحتياجاتك، لأن أباها لا يزوجها طبعاً إلا لمن يماثلها ثروةً، أو لمن هو من رجال الأعمال، وما أظنك ترضى أن تعيش من مال أبيها".

فقال: "كلا يا أماه، وما أحسبها تبادلني الحب إذا لم أكن كفؤاً لها.. على أنها لو رضيت ذلك فأنا لا أرضاه!".

قالت: "بورك فيك يا بني، وماذا تعتزم بعد تخرجك في المدرسة، هل تفضل العمل في المحاماة أو الطب؟".

فتنهد شفيق وقال: "إن المحاماة تقتضي أن أدرس لها سنتين في أوربا، أما

الطب فدراسته تستغرق ست سنوات أو خمس سنوات على الأقل".

فقالت: "كيف يمكننا الصبر على بعدك سنتين وقد رأيت قلقنا عليك الليلة، أما الطب فربما استطعت الانتهاء من دراسته في أربع سنوات".

فقال: "كل شيء بيد الله يا أماه". ثم نظر إلى الساعة فإذا هي الثالثة بعد نصف الليل، فأبدى قلقه لتأخر أبيه، ثم دخل الخادم وقال: "بالباب جاويش معه كتاب لك يا سيدتي". فقالت: "هاته". فلما جاءها به دفعته إلى شفيق قائلة: "إنه من المعية السنية". وارتعدت فرائصها واغرورقت عيناها بالدموع. فقال شفيق: "ما الداعي لهذا ونحن لم نطلع على مضمونه. أتأذنين لي في فضه؟". فأومأت برأسها موافقة.

وفضه شفيق فإذا هو من أبيه يقول فيه: "لا تقلقي لغيابي الليلة، لأني دعيت وأنا خارج من البيت إلى المعية السنية، وسأبقى بها إلى غد، فاكتبي لي مع كامل هذا هل جاء شفيق أم لا". فلما قرأ الكتاب زال اضطرابهما وقلقهما. ثم ردا على الكتاب وسلما الرد للجاويش فانصرف به عائداً من حيث جاء. وبعد أن لبثا صامتين قليلاً اقترب شفيق من والدته وسألها: "ما معنى هذه الدعوة في مثل هذا الوقت؟. وما علاقة أبي بالمعية وهو ليس من مستخدمي الحكومة المصرية ولا من أصحاب الأملاك؟".

فقالت: "لا يخفى عليك يا ولدي أن أباك من مستخدمي قنصلية إنكلترا، وإن لهذه الدولة مطامع في مصر تسعى لتحقيقها بالاشتراك مع فرنسا، مما أصبح معه مركز الخديوي في خطر، وبما أن أباك من محبي الحكومة المصرية فلعل المعية استقبلته لمحادثته في بعض تلك الشؤون كما فعلت مثل ذلك من قبل. وعلى هذا لا خوف عليه بإذن الله، وإنما خشيت أول الأمر أن تكون الدعوة من الخديوي رأساً، ولا تخفى عليك عواقب مثل هذه الدعوة".

ثم نهضا وغادرا حجرة المائدة للنوم، ولم يبق من الليل إلا القليل.

★★★

قضى شفيق بقية ليلته يفكر في فدوى وفيما دار عنها من الحديث بينه وبين والدته. أما هذه فكانت قد اطمأن قلبها على ولدها وزوجها فعادت إلى التفكير في أمر الصندوق، وساءها أن تأخر فتحه بسبب ما حدث تلك الليلة وصممت على السعي إلى فتحه عقب عودة زوجها.

وفي الصباح التالي عاد إبراهيم إلى المنزل سليماً معافى، وما رأى شفيقاً حتى سأله عن سبب تأخره بالأمس، فاكتفى هذا بأن أخبره بأنه كان يشاهد الاحتفال بفتح الخليج ولم يخبره بأمر فدوى، فعنفه أبوه على ذهابه دون علمه، فاعتذر شفيق ملقياً التبعة على خادم عزيز، وأيدته أمه في ذلك. ثم مضى شفيق إلى المدرسة كعادته، فما كاد يغادر المنزل حتى طلبت سعدى إلى زوجها أن يفتح الصندوق حسب وعده.

فقال: "أنصح لك يا سعدى أن تعدلي عن هذا الأمر".

فقالت: "إنك كلما زدت تمنعاً، لم تزدني إلا رغبةً في فتحه".

فقال: "لست أجهل ذلك، ولكني ما زلت أنصح لك بالكف عن هذا الطلب". ولما أصرت على فتح الصندوق أخرج من جيبه مفتاحاً صغيراً، ثم التفت يمنةً ويسرةً للتحقق من خلو المكان من الرقباء، وتناول الصندوق وأولج فيه المفتاح ويده ترتعش، وسعدى تحدق فيه ببصرها، فلما رفع الغطاء عنه انتشرت منه رائحة كريهة، لكن سعدى لم تبال، وأطلت لترى ما فيه فلم تجد سوى خصلة من الشعر قد اغبر لونها لطول عهدها في الصندوق، ومدت يدها لتلمسها فمنعها قائلاً: "حسبك النظر ولا تمدي يدك". فكفت يدها وتفرست في شعر تلك الخصلة فإذا هو كث يتخلله أثر دماء، فأخذتها الرجفة وامتقع لونها، ومالت إلى استطلاع سر تلك الخصلة لكنها لم تجرؤ على مخاطبة زوجها في هذا الشأن لما اشترطه عليها من قبل، فسكتت وبقيت عيناها معلقتين بالخصلة الرهيبة العجيبة حتى أغلق زوجها الصندوق وأعاده إلى مكانه.

ولاحظ عليها شدة التأثر فقال: "أرأيت كيف ازددت قلقاً؟".

فقالت وقد زاد اضطرابها: "نعم، وسأبقى في قلق عظيم إن لم تطلعني على الحكاية، ولا شك في أني الجانية على نفسي، لكنك أرحم بي من أن تتركني نهباً لهذا القلق المقعد المقيم".

فنظر إليها وعلى وجهه أمارات الحزن والكآبة كأنه تذكر مصائب قديمة كانت قد نسيت على طول المدى، ثم قال لها: "لقد أخلصت لك النصيحة فلم تقبلي، فأنا بريء من تبعة ما تقاسينه من القلق، على كل حال لا بد من مجيء وقت أطلعك فيه على ذلك السر مفصلاً، فأقصري ناشدتك الله إذ لا فائدة من إلحاحك وليس الأمر في يدي". قال ذلك ونهض فبدل ثيابه وخرج إلى عمله، وترك سعدى مشغولة الخاطر منقبضة النفس وقد تحولت طلاقة وجهها إلى عبوس ولم يكن إبراهيم أقل منها انقباضاً، وقد زاد في قلقه تذكره أحزاناً كادت تزول من ذاكرته.

-٤-

بعد الامتحان

مضت أسابيع وعزيز يتردد على الباشا موصلاً الحديث معه في أمر إدارة ثروته، ثم حان موعد الامتحان في المدرسة التجهيزية، وتم ذلك باحتفال شائق في سراي درب الجماميز حضره الخديوي يحف به الوزراء والأعيان كالعادة، وتقدم التلامذة للامتحان الشفوي في حضرته فكان يراقب مقدرة كل منهم، إلى أن جاء دور شفيق فأجاد في أجوبته مما استرعى انتباه الخديوي، فأعجب بذكائه وفطنته وبما يزينهما من الرزانة والكمال، فدعاه إليه على مشهد من الحاضرين وسأله: "ما اسمك؟". فقال: "عبد سموكم شفيق إبراهيم".

وأسر كبير الياوران إلى الخديوي قائلاً: "إن أباه من مستخدمي قنصلية إنكلترا". فابتسم الخديوي مظهراً أنه يعرفه ثم التفت إلى شفيق قائلاً:

"أحسنت يا بني أحسنت". ثم صرفه فعاد إلى مكانه فرحاً لما ظفر به من إعجاب ولي النعم، وتصفيق الحاضرين تهنئةً له.

وعلى أثر انتهاء الحفل دعا ناظر المدرسة إليه أبا شفيق وكان بين الحاضرين وأبلغه أن الخديوي أمر بإرسال شفيق إلى أوربا لإتمام دراسته فيها على نفقة الحكومة فتلقى إبراهيم هذه البشرى بالدعاء للجناب العالي، وعلى وجهه علامات السرور لما حازه ابنه من التفات ولي الأمر، ثم أتى شفيق إلى أبيه وقبل يده، وخرجا والناس ينظرون إلى شفيق معجبين برصانته وذكائه، ولا سيما أنه رغم فوزه لم تأخذه هزة الطرب، أو تبد على وجهه علامات الخفة.

أما عزيز فكاد حسده وحقده يقضيان عليه، ولكنه كظم غيظه وهنأ شفيقاً بما ناله من الأنعام.

وكان فرح سعدى عظيماً بنجاح ابنها، وإن ساءها أنه سيفارقها إلى أوربا، فأخذ هو يخفف عنها ويهون عليها، وقال لها: "لا يخفى عليك يا أماه أنني حين أعود بعد ثلاث سنين أو أربع في دراسة المحاماة، سيسهل علي الوصول إلى أحد المناصب المهمة كالقضاء مثلاً، وهناك كثيرون يتمنون هذا و لم ينالوه".

فقالت: "ومتى يكون السفر؟". قال: "ما أظن أنه يكون قبل بضعة أسابيع". فسكتت مسلمةً الأمر لله.

وكان الباشا أبو فدوى ممن حضروا الامتحان، فأعجب بنبوغ شفيق وذكائه ولطفه، فلما عاد إلى بيته وجلس إلى المائدة مع عائلته، أخذ يروي ما شاهده في الامتحان، وأطنب في الثناء على شفيق، فلما سمعت فدوى اسم مالك لبها اختلج قلبها فتشاغلت بتقطيع فاكهة كانت أمامها، و لم ترفع نظرها إلى أبيها إخفاءً لما كاد يظهر على وجهها من علائم الوجد، وأنصتت لتسمع بقية الحديث.

وفي صباح اليوم التالي تلقفت عدد جريدة الأهرام وأخذت تتصفحه حتى استقر نظرها على رسالة العاصمة، فقرأت فيها: "قد أنعمت الحضرة الفخيمة الخديوية على جناب الشاب الأديب شفيق أفندي إبراهيم، بالتوجه إلى الديار الأوربية لدرس فن المحاماة في أعلى مدارسها، على نفقة الحكومة السنية. وذلك لما شاهده سموه من ذكاء هذا الشاب ونشاطه". فاختلج قلبها فرحاً لعلمها أن شفيقاً متى صار قاضياً كان جديراً برضاء أبيها وقبول خطبته لها. لكنها أشفقت أن يكون في غيابه ما يضعف حبه لها، فذهبت إلى حجرتها ودعت بخيتاً لتطلعه على ما خامر قلبها من الوساوس، ولم تكن تقدر أن تكاشف بأسرارها أحداً من الناس إلا هذا العبد الأمين، فقالت له: "هل سمعت بما تم في أمر شفيق؟". قال: "نعم قرأت ما جاء عنه في جريدة الأهرام".

فقالت: "إن نجاحه قد سرني وزاده قدراً في عيني، غير أن سفره إلى أوربا قد يمتد إلى أربع سنوات، ولا يدري أحدٌ ما يأتي به الزمن من خلالها. وقد قيل: (الدهر قلّب) وأوربا بلاد تشغل الأم عن رضيعها كما تعلم". ثم تنهدت ونظرت إلى بخيت كأنها تستطلع رأيه، فبادرها قائلاً: "إني آنست يا سيدتي من شفيق شهامة ومروءة فوق ما سمعت عنه، فإذا هو عاهدك لا ينكث بعهده فقلب المحب الصادق لا يميل إلى غير حبيبه، وقد فهمت أنه يحبك مثل حبك له أو أكثر فإذا رأيت فإني أتفق معه على موعد تجتمعان فيه لعلك تثنيه عن السفر".

فأطرقت برهة ثم رفعت نظرها إليه وقالت: "حسناً تفعل يا بخيت، ولكن يحسن أن تترقب فرصة يكلفك بها أبي قضاء أمر ما خارج المنزل ثم تتوجه إلى شفيق، فإن أبي يراقبنا كما تعلم منذ اجتماعه بذلك الشاب المتفرنج".

فقال: "لعل الاحتفال بالمولد أفضل فرصة لاجتماعكما، ولكني أخشى أن يذهب سيدي الباشا إليه أيضاً. وعلى هذا أرى أن تذهبي في مركبتك

إلى قصـــر النـــزهة في شارع شبرا، وليكن ذلك في اليوم العاشر من هذا الشهر، وهناك تجتمعان في الحديقة ويخلو لكما الجو".

فقالت: "نعم الرأي ما رأيت".

★★★

خـــرج شفيق من بيته في اليوم العاشر من الشهر، قاصداً إلى العباسية للترويح عن نفسه. وكان يسير مطرقاً كمن يفكر في أمر ذي بال لا يحول بصـــره إلى شـــيء من البنايات المزخرفة والحدائق الغناء التي على جانبي الشارع، ولانشغاله بتصوراته الغرامية وبينما هو على هذه الحال إذ اعترضه بخيـــت وألقى عليه التحية، فرفع بصره إليه وما عرفه حتى خفق قلبه شوقاً وهيامـــاً إلى مالكة قلبه، ثم سأله: "وما وراءك؟". فقال: "جئتك بأمر من سيدتي، وقد أسعدتني الصدف بلقياك هنا".

قـــال:"هات ما عندك". قال: "إن سيدتي قرأت في جريدة الأهرام نبأ الإنعام عليك من الحضرة الخديوية، فسرت لفوزك وإن ساءها قرب سفرك إلى أوربا".

فقال: "إن للضرورة أحكاماً، وما حيلتي والمثل يقول: (تجري الرياح بما لا تشتهي السفن؟.) ..".

قال: "إنما تود مقابلتك قبل سفرك".

فظهـــرت علائـــم الدهشة والاستبشار على وجه شفيق وقال: "متى؟ وأين؟. ألم تحدد الزمان والمكان؟".

قال: "في أصيل اليوم بقصر النـــزهة في شبرا".

فقـــال شـــفيق: "سأكون هناك في هذا الموعد، فأبلغها هذا مع تحياتي واحترامي". فودعه بخيت وعاد ليخبر سيدته بما كان.

وفي الموعـــد المحدد ركب شفيق عربة مضت به إلى شارع شبرا، وهو

يومئذ من أجمل متنزهات القاهرة، يشرف على أرض قليلة السكن تتخللها مروج خضراء وحدائق غناء، وعلى جانبيه أشجار باسقة كثيفة ملتفة الأغصان. وكان الخديوي يخرج إلى هذا الشارع في موكبه كل يوم جمعه وحواليه جماعات من الأمراء والعظماء في مركباتهم. فيزدحم الناس هناك لمشاهدة الموكب. أما في الأيام الأخرى كهذا اليوم فلم يكن رواد الشارع كثيرين. فلما وصلت العربة إلى قصر النزهة لم يحاول الدخول إليه لعلمه بامتناع ذلك إلا على بعض الناس، ونظر إلى الساعة فإذا موعد الاجتماع ما زال باقياً عليه نصف ساعة، فأمر السائق بأن يمشي بالعربة للنزهة في تلك المنطقة ريثما يحين الموعد.

ولما اقتربت العربة من منتصف الشارع، شاهد عربة فدوى مقبلة من بعيد، فخفق قلبه وأخذته رجفة الحب وعلا وجهه احمرار الخجل ثم أعقبه اصفرار الوجل. وفيما هو كذلك رأى فارساً ملثماً قد اعترض سائق عربتها وأمره أن يعرج بها إلى مضيق هناك، فأدرك أنه يريد شراً بحبيبته، فارتعدت فرائصه من الغيظ واشتعل قلبه غيرةً عليها، فأمر سائق عربته بالإسراع حتى وصل إلى ذلك الموضع وصاح بذلك الفارس الملثم قائلاً: "مكانك أيها الوغد، كيف تجرؤ على اعتراض طريق السيدات؟". وهم بالنزول من العربة، لكنه رأى ذلك الفارس الملثم حول عنان جواده وولى هارباً، فبقي في العربة وأومأ إلى فدوى بالتحية، فردت تحيته بمثلها، ثم انطلقت العربتان حتى وقفتا أمام القصر، ونزل بخيت ليدبر وسيلة للدخول، ولبث شفيق وفدوى في انتظار عودته وهما يتبادلان النظرات وفيها ما يغني عن كل بيان، وإن كان خوفهما من عيون الرقباء قد حملهما على أن يكون ذلك بحساب.

وفيما هما في ذلك سمعا قرقعة عربة قادمة فحولا بصرهما إليها، وشد ما عجب شفيق إذ تبين أنها عربة عزيز، فأوجس خيفةً من مجيئه، كما تشاءمت فدوى منه وأنزلت ستارة النافذة في عربتها وهي ترتجف من

الغيظ.

وأوقف عزيز عربته بعد قليل بجانب عربة شفيق، ثم نزل وحياه تحية المشتاق، فلم يسع هذا إلا رد التحية، وإن ثقلت عليه مقابلته. ثم اقترب منه عزيز وقال: "لقد سررت جداً لائتلاف قلبيكما، ولا أحب أن أثقل عليكما فاسمح لي بالذهاب".

فشكره شفيق وسأله عما جاء به إلى هناك، فقال: "خرجت للنزهة فأسعدني الحظ بلقياكما مصادفة". ثم ودعه وعاد إلى عربته فانصرف بها.

★★★

لم يكن مجيء عزيز مصادفة، ولكنه كان منذ ليلة الأوبرا يراقب حركات فدوى بمساعدة العجوز دليلة، فلما عرفت أنها خرجت للنزهة في ذلك اليوم تواطأ مع ذلك الفارس الملثم على أن يعترض طريقها لإرهابها، ثم يأتي هو لنصرتها وإنقاذها، معتقداً أنها بذلك تحبه محبتها لشفيق وقد فعل ذلك وهو لا يعلم شيئاً عن الموعد المضروب بين الحبيبين. وكان حين اعترض شريكه المجرم عربة فدوى مختبئاً، فلما رأى شفيقاً مقبلاً لم يجرؤ على الظهور إلا بعد انصراف المركبتين معاً إلى قصر النزهة، حيث لحق بهما.

وعاد بخيت متهللاً إلى شفيق وفدوى، وأخبرهما بأن ليس في القصر أحد من الحرس والخدم إذ خرجوا مع الجند إلى نظارة المالية لطلب المتأخر من رواتبهم.

فقالت فدوى: "ومتى كان هذا؟". وتهيأت للنزول فأخذ بخيت بيدها وأنزلها، ثم توجهوا جميعاً إلى الحديقة، وقال شفيق: "إن الجنود المصريين اتحدوا وبعثوا من ينوب عنهم إلى سراي المالية يطلبون رواتبهم فأمسكوا برئيس النظار، ثم انتهى الأمر بتفرقهم حالما شاهدوا الخديوي إسماعيل مطلاً من إحدى نوافذ السراي، وخاطبهم بكلمات قليلة".

فقالت فدوى: "إني لم أسمع بحدوث مثل هذا من قبل".

فقال: "إن هذا لم يحدث إلا بعد أن صارت الحكومة المصرية شوروية".

وكانا يتحدثان وهما يسيران الهوينى نحو الحديقة، وبخيت يتقدمهما فلما دخلاها وجداها حديقة غناء ملتفة الأشجار زاهية الأزهار يانعة الثمار يتخللها ممرات مفروشة بالرمال والحصباء، والماء موزع في جنباتها، وفيها مرتفع صناعي يزيدها روعة وبهجة. فسارا إليه و لم يدهشهما شيء من تلك المناظر الآخذة بمجامع النفوس لاشتغال فؤاديهما بما هو أسمى من ذلك.

ونظر شفيق إلى فدوى فإذا هي قد زادها خجل الحب بهاء وجمالاً، فأبرقت عيناها والتمع وجهها ولازمتها رجفة الحب فأطرقت و لم تقو على رفع نظرها إليه. و لم يكن هو أقل منها اضطراباً. وبقيا على ذلك حيناً والحياء يمنع فدوى من النظر إلى وجهه أو مخاطبته، فأخذت تشغل نفسها بتلك المناظر لعلها تسكن شيئاً من هياج عواطفها واضطرابها لأنها لم تعتد مجالسة الشبان ولا مخاطبتهم ولا سيما على انفراد، إذ قد عاشت عيشة التحجب المتبعة عند عائلات الأتراك فإن أباها وإن لم يكن منهم كان يتخلق بأخلاقهم ويحافظ على عاداتهم، فشبت فدوى على ذلك.

وما زالا على هذا الاضطراب حتى وصلا إلى المرتفع وقد كساه الزهر وظلله الشجر فجلسا على مقعدين متقابلين يفصلهما ممر الحديقة الضيق، ولبثا زمناً لا يجرؤان على افتتاح الحديث ويكتفيان بالنظرات، ثم تجلدت فدوى وقالت: "لقد سرنا ما قرأناه في الصحف عن سبقك أقرانك ونيلك إنعام الخديوي".

فأطرق شفيق خجلاً و لم يجب بكلمة، فقالت: "ولكن بعض الناس ساءهم هذا الأمر لما يترتب عليه من التغرب في أنحاء الممالك الأوروبية بضع سنين". قالت هذا وخنقتها العبرات ولكنها تجلدت وأحبت إتمام الحديث فلم تستطع.

وكان شفيق مطرقاً ينكت الأرض بغصنٍ جاف في يده إخفاء لعواطفه،

فلما سمع منها ذلك أدرك مرادها فقال: "الحق يا عزيزتي أني لم أسر بهذا الإنعام تمام السرور لأنه سيبعدني عن كل الناس فأنت عندي كل الناس، ولكن عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، ولعلي أصيب في سفري هذا ما يجعلني أقرب إلى استحقاقك مما أنا الآن".

فقالت: "إنك في الحقيقة فوق ما أستحق وأكثر مما أتمنى، فنحن لا نقدر الناس بأموالهم وإنما بصفاء جوهرهم وصحة أدبهم وشهامتهم، وأنت قد زينك الله بصفات شريفة لو تفرقت في جماعة لكفتهم، فإنك غني بالمواهب التي يختص الله بها من يشاء من عباده".

فالتفت إليها شفيق وقد تلعثم لسانه وقال: "إن الله اختصك بكمال الذات والصفات فلا يحيط بوصفك محيط، لصفاء عنصرك وسمو أدبك".

فظهر اضطرابها جلياً مع محاولتها إخفاءه وأخذت تحاول تخفيفه متظاهرةً بالنظر إلى جمال الحديقة، ثم أطرقت قليلاً ورفعت بصرها إلى شفيق وقالت: "إني عاجزة عن شكر عواطفك الشريفة التي لا أستحقها". ثم سألته إلى أي بلاد أوربا يعتزم السفر، فقال: "إلى باريس في فرنسا، أو لندن في إنكلترا غالباً".

فقالت: "هل رضيت السيدة والدتك بذلك؟".

قال: "نعم ولكن رضاءها ليس إلا إذعاناً لحكم الضرورة".

فتنهدت وهي مطرقة تنثر وردة بأناملها اللطيفة، ثم قالت: "إني لأعجب كيف يمكنها البقاء لحظة بعيدة عنك ولكن..". وسكتت كأنها تريد كتمان شيء، فبادرها شفيق مستفهماً عما سكتت عنه فقالت: "ولكن قد يمكنها الصبر علي بعدك لأنها والدتك وأنت ولدها".

فقال مندهشاً: "ماذا تعنين بذلك يا فدوى؟".

قالت: "لا أعني شيئاً وإنما..". وسكتت.

فقال: "قولي يا عزيزتي ولا تكتمي عني شيئاً".

فهمت بأن تجيبه فخنقتها العبرات وكأنها المقصودة بقول الشاعر:

ترنو إليه بعين الظبي مجهشة وتمسح الطل فوق الخد بالعنم

فازداد خفق فؤاده ونظر إليها مشجعاً وأخذ يطيب خاطرها ويخفف عنها حتى سكنت عواطفها قليلاً فمسحت دموعها ورمته بسهم من لحظها كاد يقضي عليه، فقرب مقعده منها وخاطبها بألطف عبارة قائلاً: "ألا تريدين أن تخبريني بما عنيته بقولك؟".

قالت: "إن والدتك تستطيع الاصطبار على بعدك لأنها لا تخاف أن تتخذ لك والدة سواها".

وكانت تخاطبه وهي تكاد تذوب خجلاً حتى لم تقدر أن ترفع نظرها إليه، فأدرك ما ترمي إليه وقال: "لعلي أولى منك بخشية المستقبل إذ قد يتهيأ لك من هو أفضل كثيراً مني".

فقالت وقد ظهرت على وجهها أمارات البشر: "قلت لك إننا لا نقدر الناس إلا بما فيهم من الصفات الأدبية. والآن ما دمت مسافراً إلى أوربا ألا تترك لنا تذكاراً منك؟".

قال: "ألا يكفي أني سأترك قلبي؟".

قالت: "ذلك أكثر مما أستحق، وإنما أريد منك تذكاراً حسياً يبقى لدي شاهداً على ما دار بيننا".

فقال وقد بلغ منه الهيام مبلغاً عظيماً: "ماذا أعطيتك وقد وهبتك قلبي وكل عواطفي؟". ثم أمسك بيدها وقال: "أعاهدك يا فدوى بالشرف والمحبة الطاهرة التي بيننا على أن أحافظ على حبك حتى الموت، ولا أرضى بدلاً منك قط". فأجابته ولسانها يتلعثم قائلةً: "وما تذكارك عندي؟". فقال: "ليس لدي الآن ما يليق بمقامك إلا هذا..". ثم قدم لها زراً من أزرار قميصه الذهبية منقوشاً عليه الحرف الأول من اسمه فتأملته معجبةً به، ثم مدت يدها إلى دبوس ذهبي مرصع كان في صدرها ونزعته وقدمته له قائلةً: "خذ هذا الدبوس لتذكرني كلما نظرت إليه".

فأخذه شفيق وتأمله فإذا هو على هيئة المرساة، متقن الصنع لطيف الهيئة، فتبسم ونظر إليها شاكراً وقال: "إن هذه المرساة رمزٌ للأمل، وأؤكد لك أن أملك في محله".

دار بينهما كل ذلك الحديث وكل منهما يحاذر أن يمس ثوب الآخر إجـــلالاً للطهارة والعفة، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فنهضا يتمشيان في الحديقة والشمس ترمقهما مودعةً من خلال الأشجار والأزهار.

وفيما هما في ذلك جاء بخيت مسرعاً وقال لشفيق: "ودع سيدتي واخرج من الباب الآخر للحديقة، وقد قلت لسائق عربتك أن يذهب وينتظرك هنـــاك لأن سيـــدي آت، فلعل أحداً وشى بكما إليه". فودع شفيق فدوى على عجل وخرج مسرعاً من الباب الآخر صيانةً لشرفها، وعرج من هناك حتى جاء الشارع على مسافة من الحديقة فإذا بالعربة تنتظره فركب وعاد إلى منـــزله.

أما فدوى فتكدرت لهذه المفاجأة، ولكنها تجلدت واستمرت سائرة في الحديقة كمن يتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة وبخيت بجانبها، ثم سارا يريدان الخروج فإذا بأبيها يقابلهما داخلاً. فسارعت إليه وقبلت يديه.

وكان عزيز بعد أن تركهما قد أخذ يبحث عن وسيلة للإيقاع بشفيق، فلاح له أن يذهب إلى أبيها ويغريه بالمجيء إلى قصر النـــزهة، فذهب إليه وحادثه في موضوعات مختلفة ثم قال له: "هل لك أن نسير معاً للنـــزهة في شارع شبرا؟".

فقال الباشا: "لا بأس، ولا سيما أن ابنتي ذهبت إلى هناك فعسى أن نلتقي بها ونعود معاً".

وفي طريقهما إلى هناك أخذ عزيز يحدثه عن فدوى ووجوب مراعاتها كلما خـــرجت، وقصده أن يثبت كلامه لدى الباشا حين يرى شفيقاً

وفدوى معاً في الحديقة.

ولما اقتربت بهما العربة من هناك خاف عزيز أن تظهر مكيدته لشفيق، فتظاهر للباشا بأنه نسي شيئاً في المنـــزل واستأذنه في العودة لإحضاره ثم اللحاق به في قصر النـــزهة، فأذن له، وواصل هو سيره حتى دخل الحديقة، ولكنه لم يجد فيها مع فدوى غير بخيت. ولما سألته عن سبب مجيئه قص عليها الخبر ولكنه لم يذكر اسم عزيز، فأدركت أنه هو بعينه وقد فعل ذلك ليوقع بها وبشفيق، لكنها تجاهلت. ولبثوا ساعة هناك حتى يئس الباشا من عودة عزيز، فركبوا عربة فدوى وعادوا إلى منـــزلهم.

أما شفيق فلما وصل إلى البيت كاشف والدته بما كان من أمره مع فدوى، وأوصاها بكتمانه وبأن تجتمع بها أثناء غيابه ما استطاعت وتذكرها بوعدها له لئلا يضعف البعد عهدها، فوعدته بذلك.

★★★

بعد بضعة أسابيع صدر الأمر بسفر شفيق إلى فرنسا لدرس المحاماة فيها تنفيذاً لرغبة الخديوي، فتقدم أبوه إلى الجناب العالي راجياً أن يسمح بإرساله إلى إنجلترا لأنه يعرف الإنجليزية جيداً فأذن له في ذلك.

ولما علم عزيز بقرب سفر شفيق، اشتد به الحسد وحدثته نفسه بأن يفتك به أو يسعى إلى هلاكه بمكيدة أثناء سفره إلى لندن، ثم استقر رأيه على أن يكون ذلك في الإسكندرية، حيث يكون شفيق بعيداً عن أحبائه وأهله، فلما كانت ليلة سفره ذهب إليه وأمضى عنده معظم الليل مظهراً له عظيم أسفه على فراقه، ثم أخبره بأنه سيشيعه في الغد إلى الإسكندرية، فشكره شفيق وعد ذلك منه منة كبرى.

وفي صباح اليوم التالي توجه عزيز إلى المحطة حيث بقي مع شفيق في القطار بعد أن ودعه أبوه وبعض أقاربه وعادوا، وقضيا معظم الطريق في الأحاديث عن مصر وفدوى، وعزيز يحاول إظهار رغبته في اقتران شفيق بها، ويعده بالسعي لإتمام ذلك ما استطاع.

ولما وصل بهما القطار إلى الإسكندرية ساعة الغروب، ركبا عربة إلى فندق على شاطئ البحر، ولم يكن شفيق قد زار الإسكندرية من قبل، فلما استراحا وغيرا ثيابهما قال له عزيز: "هلم بنا إلى المدينة لنقضي الليل في مشاهدة أسواقها وبهجتها وزخرفها ترويحاً للنفس من وعثاء السفر". فأجابه إلى ذلك وذهبا حتى أتيا ساحة المنشية، فدهش شفيق لما شاهده من عظمة المدينة وسعة شوارعها وإشراقها بالأنوار الغازية التي جعلت ليلها نهاراً، كما أعجب بحوانيتها المضاءة بالأنوار ومبانيها الشاهقة المزخرفة.

والمنشية مستطيلة الشكل، فيها كثير من شجر اللبخ، وفي منتصفها تمثال هائل لمحمد علي الكبير يقوم على قاعدة مرتفعة من الرخام الأبيض، ويمثله على هيئة فارس شيخ وقور متسع الصدر كبير اللحية وعلى رأسه عمامة كبيرة، وقد ارتدى الجبة والقفطان وامتطى جواداً فارهاً، وتقلد سيفاً منحنياً وقد وضع يده اليمنى على فخذه الأيمن وكأنه ينظر إلى جهة المدينة ليتأمل بهاءها ورونقها. فأعجب شفيق بهذا التمثال، وأخذ يطيل التأمل في دقة صنعه، ويتحدث مع عزيز عن مآثر صاحبه، وعزيز يتظاهر بالإصغاء في حين أنه يفكر في تدبير مكيدة يهلكه بها. فلما رآه مأخوذاً بمناظر الإسكندرية أخذ يمتدحها له ويطنب في ذكر محاسنها، ثم خطر له أن يذهب به إلى خان ويسقيه خمراً حتى يغيب صوابه فيفتك به، ولكنه تذكر أن شفيقاً لا يتعاطى شيئاً من أنواع المسكر، وأنه يستنكف من مجالسة كل من يتعاطاها.

وفيما هما يتمشيان على رصيف المنشية مرا بمقهى ازدحم بالجالسين فيه، وهم يشربون شراب عرق السوس، وكان صاحب المقهى شيخاً ذا عمامة بيضاء، شد وسطه فوق جلبابه بحزام حتى لا يتعثر بأذياله لكثرة حركته، واسمه محمود. وكان عزيز يعرفه من قبل فقال لشفيق: "هلم بنا نشرب شيئاً من منقوع عرق السوس فإنه رطب منعش". فمضى معه شفيق حتى دخلا

المقهى، و لم يحصلا على ما طلباه من المشروب إلا بعد طول الانتظار لكثرة الازدحام.

ولاحظ شفيق أثناء جلوسهما هناك أن رجلاً في ثياب غريبة الزي كان يقتفي أثرهما عن بعد، فلما دخلا المقهى لحق بهما وجلس على مقربة منهما وطلب من الشيخ محمود كوباً من ذلك المشروب فجيء به إليه. وكان الجالسون هناك قد تحلقوا جماعات وأخذوا يتسامرون، وفيهم الإفرنج والأتراك والوطنيون وغيرهم من مختلف الأجناس والملل، بعضهم يتحدثون عن البورصة والأسعار والأرباح، وآخرون يتحدثون في السياسة أو عن الملاهي. وجميعهم فرحون لا تسمع منهم إلا ضحكاً وقهقهة.

و لم يشأ شفيق أن يكاشف عزيزاً بما يخالجه من الريبة في أمر ذلك الرجل لئلا يظن به الجبن. فلما غادرا المقهى وأخذا طريقهما إلى الفندق الذي اختاره للنـــزول به إلى أن تأتي الباخرة برنديزي بعد ثلاثة أيام، لاحظ شفيق أن ذلك الرجل يتبعهما إلى الفندق فقلق وأوجس خيفةً، لكنه تجلد وحمل ذلك على محمل الاتفاق لسلامة نيته. فلما انفردا في غرفتهما طلبا العشاء وأمضيا بعض الوقت في الحديث، ثم أوى كلٍ منهما إلى فراشه.

وكانت هذه الليلة أول ليلة يقضيها شفيق بعيداً عن والديه، فتواردت عليه الأفكار وتاه في عالم تصوراته، فجفاه الكرى حتى لم يطق الاضطجاع فنهض وجلس على كرسي بجانب السرير، ثم خرج إلى غرفة الاستقبال لعله يجد شيئاً من الجرائد، فوجد صحيفة الأهرام فأتى بها وأقبل على قراءتها حتى انتهى إلى تلغراف قرأ فيه أن الباخرة برنديزي تصل إلى الإسكندرية في صباح اليوم التالي قبل موعدها المحدد، وستبرح الميناء عند الظهيرة! فاهتز لتلك المصادفة تخلصاً من الانتظار على غير جدوى، ونهض لوقته وشرع في ترتيب ثيابه وأوراقه بحقائبه، وكان بينها دبوس فدوى فخفق فؤاده لمرآه وترقرقت عيناه بالدموع، فقبل الدبوس وحفظه في مأمن، ثم نظر إلى الساعة فإذا هي الثانية بعد منتصف الليل فاضطجع على فراشه وبقي

كذلك حتى الصباح.

وجاء عزيز وهو لا يدري شيئاً من أمر أرقه، وكان هو قد أمضى ليله في إعداد المكيدة لإهلاكه، فلما وجده مرتـــدياً ثياب السفر سأله عن السبب، فأطلعه شفيق على الجريدة، فسقط في يد عزيز، وخشي حبوط مسعاه فأخذ يحبب إليه الإقامة بالإسكندرية أياماً، ثم السفر بعد ذلك في باخرة أخرى فقال شفيق: "لو أنني خيرت لاخترت الإقامة بهذه المدينة الجميلة ولكنني الآن على أهبة سفر طويل ومشقة عظيمة، وخير البر عاجله".

فلعن عزيز في سره الساعة التي وصلت فيها الباخرة برنديزي لأنها أحبطت كل مساعيه، وكظم غيظه ثم أخذ يساعد شفيقاً في التأهب، حتى حان موعد رحيل الباخرة فركبا قارباً للوصول إليها، وركب معهما رجل عرف شفيق أنه هو الرجل الذي تعقبهما بالأمس، فسكت على مضض وفي عزمه أن يعنى بالوقوف على حقيقة أمره إذا كـــان مسافراً معه على تلك الباخرة.

ولم يمض إلا قليل، ثم أقلعت الباخرة بشفيق، وعاد الرجل مع عزيز في القارب نفسه. فبقي شفيق يحدق في الشاطئ بعينيه حتى حال الأفق بينهما.

وبقي بضعة أيام وهو لا يكاد يختلط بأحد، إلى أن وصلت الباخرة إلى مرسيليا، فنـــزل إليها مع النازلين، ومن هناك ركب القطار إلى باريس، ثم إلى ميناء الهافر على خليج المانش حيث ركب سفينة بخارية شقت به الخليج حتى وصلت إلى دوفر، فركب منها القطار إلى لندن.

-٥-

الثورة العرابية

رجع عزيز إلى القاهرة بخفي حنين نادباً سوء حظه وفشل مكيدته لعرقلة مساعي شفيق أو الحط من قدره في عيني فدوى، وكان قد ازداد تعلقاً

بحبها، وأصبح في شر حال، وكأنه المعني بقول من قال:

تريدين قتلي لا تريدين غيره ولست أرى قصداً سواك أريد

وقال لنفسه أخيراً: "لا داعي لليأس، وما زال في الوقت متسع لعمل ما يقربني من فدوى، ويبغض شفيقاً إليها".

وفي مساء الأربعاء ٢٥ يونيو ١٨٧٩ كان الناس في القاهرة يتحدثون باضطراب السياسة المصرية، لحقد دولتي إنجلترا وفرنسا على الخديوي، وتوقع الكثيرون تنازله عن العرش. فتمنى عزيز أن يتم ذلك، ظناً منه أن هذا يترتب عليه إلغاء الأمر الصادر بإرسال شفيق إلى لندن. ومضى يستطلع الأخبار، ثم توجه إلى منـــزل فدوى ليقف على رأي أبيها في تلك الإشاعات، فلما استقر به الجلوس معه قال: "هل سمع سعادة الباشا بالإشاعات التي ترددت عن توقع تنازل الخديوي، بمساعي إنجلترا وفرنسا؟".

فقال الباشا: "إن إبراهيم باشا المرسل من قبل أفندينا إلى الأستانة في هذا الشأن، قد أرسل برقيات أكد فيها رضا الباب العالي عن الخديوي، ولكن ممثلي الدولتين ما زالا ينصحان له بأن يتنازل عن العرش لابنه توفيق".

فقال عزيز: "وما سبب حقد الدولتين عليه إلى هذا الحد؟".

قال:" لا يخفى عليك يا ولدي أن الخديوي إسماعيل أنفق الأموال الطائلة لتحسين حال البلاد وجعلها أشبه بالبلاد الأوربية. وقد اضطره ذلك إلى الاستدانة من هاتين الدولتين وغيرهما، فبلغ مقدار الدين على الخزانة المصرية نحواً من تسعين مليون جنيه. ولما رأت الدول ذلك خافت ألا يفي دخل الحكومة المصرية بهذا الدين، أو أن يكون في حساباتها ما يريب، فبعثت كل من إنجلترا وفرنسا رقيباً من قبلها لذلك، ولكن التدخل لم يقف عند هذا الحد، بل جاوزه إلى جميع أعمال الحكومة بدعوى أن لإجراءات الحكومة أثراً في ميزانية البلاد وفي أداء دينها تبعاً لذلك. وهكذا صارت حكومة الخديوي شورية، أي يسيرها مجلس النظار، بعد أن كان الخديوي مطلق

التصرف، ثم أدخلوا في هذا المجلس ناظرين أجنبيين: أحدهما إنجليزي، والآخر فرنسي. وحدث أن قرر مجلس النظار رفت بعض الجنود اقتصاداً للنفقات، فثار المرفوثون وجاء ضباطهم إلى نظارة المالية وأمسكوا برئيس النظار وناظر المالية وتهددوهما، ولولا ظهور الخديوي إذ ذاك في شرفة المجلس لما أبقوا عليهما، فإن كلمة واحدة منه أوقفتهم عند حدهم. وأخيراً رأى الخديوي أن وجود الناظرين الأجنبيين يضيق عليه الخناق فعزلهما وولى ناظرين وطنيين، فغضبت الدولتان وحقدتا عليه، وسعتا ضده في الأستانة وما زالتا تسعيان حتى الآن، والناس بين يائس وآمل".

وغادر عزيز قصر الباشا بعد انتهاء السهرة ونفسه تحدثه بأن تغيير الخديوي لا بد منه، وبأن بعثة شفيق ستلغى تبعاً لذلك، فيقل شأنه في نظر فدوى وأبيها، ويخلو له هو الطريق.

وفي الصباح التالي استيقظ عزيز على أصوات المدافع مؤذنة بتنازل الخديوي إسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق مكانه، فلبث ينتظر ما يكون.

★★★

كان بين ضباط الجيش المصري حينذاك ضابط يقال له أحمد عرابي، وطني النـــزعة، ينتمي إلى إحدى القرى في مديرية الشرقية، وقد التحق بخدمة الجيش على عهد المغفور له سعيد باشا، وما زال يترقى حتى بلغ في عهد الخديوي توفيق رتبة الأميرالاي.

وكان في الجيش المصري بعض الضباط الشراكسة، يستأثرون غالباً بالرتب العليا، أما المصريون فقلما يتجاوزون رتبة الأميرالاي، كما كانوا حتى عهد الخديوي إسماعيل قلما يباح لهم التظاهر بما يخامر قلوبهم من الأسف لاستئثار الأجانب دونهم بتلك الرتب. فلما تولى الخديوي توفيق، رأى الضباط المصريون أنه أكثر حباً لمصلحتهم، وقد أنعم عليهم بالرتب العالية، فشرعوا في إظهار مكنونات قلوبهم نحو الأجانب، وطالبوا بإعطائهم

حقوقهم كاملةً، ولم يكن الخديوي توفيق يكره ذلك، ولكن بعض كبار الضباط المصريين لم يطيقوا صبراً، وسرعان ما تحول الأمر إلى ثورة عمت البلاد.

وكان رؤساء الثورة ثلاثة ضباط هم: "أحمد عرابي، وعلي فهمي، وعبد العال، فتعاهدوا على السعي للاستئثار بإدارة أمور بلادهم بأنفسهم، واستئصال الأجانب من خدمة الحكومة ولا سيما الجيش. وألفوا لذلك جمعيات سرية، مؤيدين في ذلك من جميع الضباط المصريين. ونظراً إلى رغبة الخديو توفيق في تعزيز جانب المصريين كان يجيب مطالب هؤلاء الضباط فيما يرى فيه مصلحتهم، فبدأ بعزل ناظر الجهادية وكان شركسياً، ثم تطرقوا إلى التدخل فيما وراء ذلك، يؤيدهم ناظر الجهادية الجديد الذي خلف الشركسي، وكان وطنياً متحالفاً مع عرابي وجماعته سراً، فأخذوا يعقدون الاجتماعات السرية في منـــزل عرابي عاملين على تحقيق ذلك.

وكان جريدة الطائف لسان الحزب الوطني في ذلك الحين فنشرت كلمة قالت فيها: "سيحتفل في ٢١ جمـــادى الأولى سنة ١٢٩٨هـــ (٢٠ إبريل ١٨٨١) في سراي قصر النيل احتفالاً كبيراً، لما أنعم به الجناب العالي من زيادة رواتب الضباط والعساكر وتعديل القوانين العسكرية". فلما قرأ عزيز هذا الخبر اعتزم أن يحضر ذلك الاحتفال، ليرى ما يتم فيه.

ولما تم عقد الاجتماع بحضور النظار ورؤساء الجيش نهض ناظر الجهادية وخطب ممتدحاً إنعام الخديوي، ثم قام بعده رجل قصير القامة خفيف شعر اللحية سريع الحركة فألقى خطبة مماثلة. وسأل عزيز من يكون هذا الخطيب فقيل له: "إنه رئيس مجلس النظار. وأخيراً وقف للخطابة رجل في لباس الضباط، ربع القامة ضخم العضلات أسمر اللون، فاستقبله الحاضرون بالتصفيق وعلت الضوضاء ثم انقطعت حين شرع في الكلام، فبدأ بشكر الخديوي والنظار، ثم أفاض في حث المصريين على محبة الوطن والعمل على رفع شأنه. والحاضرون يعقبون على كل فقرة من خطبته مصفقين فرحين.

فعجب عزيز من بلاغة الخطيب وشدة الاحتفاء به، وسأل ضابطاً أمامه عمن يكون، فضحك الضابط ساخراً وقال: "كيف لا تعلم من هو هذا البطل؟. إنه أحمد عرابي بك رجل الوطن".

وكان عزيز قد سمع عنه ولم يره إلا في تلك الساعة فلم يسعه إلا السكوت حتى انتهى الاجتماع وارفض الجمهور، فخرج وكله إعجاب، بالنفوذ العسكري وارتفاع مقام رجال الجيش، وود لو يلتحق به ليكتسب الرفعة والمجد، ولا سيما بعد القانون الجديد الذي منح الوطنيين في الجيش امتيازات عدة. هذا إلى استطاعته بفضل غناه أن يترقى في مدة قصيرة فيصير ضابطاً كبيراً، وينال حظوةً في عيني فدوى وأبيها.

★★★

أخذ عزيز يسعى في سبيل تحقيق أمنيته، بقراءة القوانين العسكرية وحضور الاستعراضات، ومتابعة أخبار الجيش، إلى أن كانت حادثة عابدين يوم اجتمع الجند في ساحة القصر بمدافعهم وأسلحتهم ومعهم ضباطهم فكان في مقدمة من توجهوا إلى مشاهدة الحادث من الوطنيين والأجانب، فراعه منظر هذا الاجتماع العسكري الرهيب، وأخذ ينقل بصره بينه وبين الجموع التي احتشدت خلف الجند في الساحة وفي نوافذ البيوت المجاورة وفوق أسطحها.

ثم جاءت مركبة الخديوي يتقدمها الياوران فوقفت أمام شرفة (السلاملك) بالقصر، والتفت الخديوي إلى عرابي الذي كان في مقدمة الضباط على جواده فأشار إليه أن يقترب، فتقدم على جواده وسيفه ما زال مشهراً في يده، والضباط حوله للمحافظة عليه. فأمره الخديوي بإغماد سيفه وبأن يترجل ويتقدم وحده ففعل ثم خاطبه الخديوي بقوله: "ألم أك سيدك ومولاك؟". فقال: "نعم".

قال: "ألست أنا الذي رقيتك إلى رتبة أميرالاي؟". فقال: "نعم ولكن

بعد ترقية نحو أربعمائة".

قال: "وما سبب حضورك بالجيش إلى هنا؟". فقال: "لنيل مطالب عادلة".

قال: "وما هذه المطالب؟".. فقال: "إسقاط الوزارة، وتأليف مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش، والتصديق على قانون العسكرية الجديد، وعزل شيخ الإسلام".

فقال الخديوي: "كل هذه الطلبات ليست من اختصاص العسكرية". ثم مضى إلى داخل القصر، وجاء قنصل الإنجليز فقال لعرابي: "إن إسقاط الوزارة من اختصاص الخديوي، وطلب تأليف مجلس النواب من اختصاص الأمة، ولا وجه لزيادة عدد الجيش لأن البلاد في طمأنينة، فضلاً عن أن مالية البلاد لا تساعد على ذلك. أما التصديق على قانون العسكرية الجديد فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه، وأما عزل شيخ الإسلام فلا يكون إلا لأسباب".

فقال عرابي: "اعلم يا حضرة القنصل أن مطالبي هي مطالب أهل البلاد، وقد أنابوني في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم إخوتهم وأولادهم، وهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بمنفعة، واعلم أننا لا نتنازل عن هذه المطالب، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ.

فقال القنصل: "إذن أنت تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة، الأمر الذي يخشى منه ضياع بلادكم؟".

فقال عرابي: "ذلك لا يكون، ومن ذا الذي ينازعنا في إصلاح داخليتنا؟ إننا نقاومه أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا!".

قال: "وأين لك القوة التي ستقاوم بها؟".

قال: "في وسعي أن أحشد في زمن يسير مليوناً من العساكر طوع إرادتي".

قال: "وماذا تفعل إذا لم تنل ما طلبت؟".

قال: "أقول كلمة أخرى".

قال: "ما هي هذه الكلمة؟". قال: "لا أقولها إلا عند القنوط".

ثم انقطعت المخابرات بين الفريقين نحواً من ثلاث ساعات، تداول القناصل والخديوي والنظار أثناءها داخل القصر، وعزيز يفكر فيما سمعه من حديث عرابي وما شاهد من جرأته، فإذا بالأمر قد استقر على إجابة مطالب عرابي وتنفيذها تدريجاً، لأن بعضها يحتاج إلى مخابرة الباب العالي. ولكن عرابي أصر على إقالة الوزارة قبل انصرافه فأقيلت، ودعا شريف باشا لتأليف وزارة جديدة فقبل بعد أن نفذ ما اشترطه من تعهد رؤساء الحزب العسكري بالامتثال لأوامره، وتقديم عمد البلاد ضمانة على ذلك.

وزادت رغبة عزيز في الالتحاق بالجيش بعد هذا الذي رآه من نفوذ كلمة رجاله. ولكنه رغب في استطلاع رأي فدوى قبل ذلك فذهب إلى دليلة العجوز وأطلعها على مراده فقالت: "سأستطلع رأيها وأنبئك بما يكون".

وفي اليوم التالي ذهبت العجوز إلى قصر الباشا كعادتها وأخذت تعرض على النسوة فيه ما حملته من السلع، وبينهن فدوى بلباس البيت الذي زادتها بساطته جمالاً وروعةً، فمدت العجوز يدها وأخرجت مشطاً مصنوعاً من سن السمك وقدمته لها قائلةً: "هل لك أن تتنازلي يا سيدتي بقبول هذه الهدية الحقيرة لكي تتشرف بمس هذا الشعر الجميل؟ وما جرأني على تقديمها لا ما يقال من أن الهدية على مقدار مهديها". فأعجبت فدوى بأدب الدلالة العجوز ولطفها، وقبلته مرضاةً لها. ثم أخذت مع بقية نساء القصر في مشاهدة السلع المعروضة، وبعد شراء ما انتقينه منها جلسن يتبادلن مختلف الأحاديث حتى استطرقن إلى حادثة عابدين فقالت دليلة الدلالة: "إن رجال الجهادية هم زهرة البلاد ويدها اليمنى، وبهم تفتخر الأمة، وعليهم حماية الحصون ودفع أعداء الوطن".

فقالت فدوى: "نعم إن رجال الجندية لكذلك ولا سيما إذا كانوا رجالاً في الحرب كما هي في السلم. والجندية على العموم من أشرف الأعمال وأحقها بالإجلال.

فقالت دليلة: "إذن هل تفضلين يا سيدتي الضابط في الجيش، أم التاجر؟ أم العامل؟". وتبسمت فدوى أنها تريد محادثتها في شؤون الخطبة والزواج، وعلت وجهها حمرة الحياء فأطرقت و لم تجب.

واكتفت العجوز بما سمعته من ثنائها على رجال الجندية، فعجلت في الانصراف وعادت إلى منـــزلها حيث كان عزيز في انتظارها هناك، فقالت له: "أبشر يا ولدي لقد قضي الأمر".

قال: "وكيف كان ذلك؟". قالت: "إنها تحب رجال الجندية فافعل ما بدا لك".

فتنهد وقال: "هذا ما كنت أرجوه يا خالتي". ثـــم ودعهـــا وخـــرج معتـــزماً الذهـــاب إلى منـــزل فدوى لاستطلاع رأي أبيها أيضـــاً، مؤمـــلاً أن يجده مثلها محباً للجندية.

فلما دخل عليه رآه منقبض النفس بادي القلق، فابتدره قائلاً: "هل حضرتم سعادتكم يوم عابدين وشاهدتم ما كان من فوز رجال الجيش؟. لقد حبب إلي هذا أن ألتحق بالجيش، فما قولكم؟".

قال: "إن الخدمة العسكرية من أشرف الخدمات، ولكنها محفوفة بالأخطار". فقال عزيز: "لا خطر فيها إلا أيام الحرب".

قال: "نعم ولكنك غني عن هذه الخدمة بما عندك من الثروة. وافرض أن خطر الحرب وجد وأنت في الجيش فماذا تفعل؟".

فتظاهر عزيز بالبسالة وقال: "في هذه الحالة أقوم مغتبطاً بما يفرضه واجبي، ووطنييتي. ولا بد دون الشهد من أبر النحل".

فانطلت خدعته على الباشا وقال له: "إذا كان لا بد لك من ذلك، فإني أعطيك كتاب توصية لعرابي بك فهو صديقي، ليتوسط لك لدى ناظر

الجهادية فيقلدك منصب ضابط".

ثم كتب له خطاباً إلى عرابي وأوصاه فيه بأن يشمله برعايته ومعاونته. فأخذ عزيز الخطاب، وودع الباشا وخرج قاصداً إلى منزل عرابي. فلما بلغه وجده غاصاً بالناس بين منتظر أمراً، ومتظلم من أمر، وهم يدخلون إليه الواحد بعد الآخر فيقابل كلاً بحسب مقامه ويجتهد في إرضاء الجميع.

ولما جاء دور عزيز دخل على عرابي وقد زر ثوبه تأدباً، فقابله بالبشاشة واللطف وبعد تلاوة الكتاب قال له: "لعلك عزيز أفندي جندب ابن المرحوم السيد جندب المشهور؟". قال: "نعم". فأجلسه بجانبه وقال له: "ما حملك على الانتظام بصفوف الجندية وأنت في غنى عنها؟".

قال: "رغبتي في خدمة الوطن".

فأعجب به عرابي وقال: "بورك فيك من محب وفي لمصر، مع أن أباك مغربي الأصل على ما أعلم".

قال عزيز: "إن جدي رحمه الله جاء من بلاد المغرب للخدمة في جيش محمد علي باشا، فأقام بمصر واتخذها وطناً له".

فقال عرابي: "حسناً، ولكن من كان في مثل مركزك المالي، لا بد من أن يتعهد بتقديم المساعدة المالية للجهادية عند الاقتضاء خدمةً لمصلحة البلاد".

فبغت عزيز وندم على مسعاه في ذلك السبيل، ولكن لم يسعه إلا الموافقة مرغماً فقال: "أنا وما أملك تحت أمر سعادتكم".

فشكره عرابي وأطنب في الثناء على شهامته ثم قال له: "إن مثلك يستحق التشرف بخدمة العسكرية". وأمر فكتب له خطاب إلى ناظر الجهادية يوصيه به خيراً. فأخذ عزيز الخطاب ومضى به إلى الناظر فوعده بإنجاز طلبه، وبعد حين عين في رتبة ملازم، وألبس الحلة العسكرية ذات الشريطة الصفراء القصبية على الكمين، وبدأ التدرب على الحركات

العسكرية.

-٦-

مذبحة الإسكندرية

كـــانت فدوى بعد سفر شفيق مشغولة البال دائماً، لا تفتأ تفكر فيه، ولا تـــرتاح إلا إلى الحديث عنه أو استطلاع أحواله، فكانت تجتمع أحياناً بوالدتـــه دون أن تكشف لها عما في قلبها نحوه من الحب. ولكن حالها لم يكن ليخفى على والدة شفيق فكانت تتلقاها بالحفاوة والترحيب، وتحدثها عن نجاحه وما ذكرت الجرائد الوطنية عنه.

ففي أحد الأيام خرجت فدوى بعربتها إلى شارع العباسية للترويح عن النفس بالمرور ببيت الحبيب. وفيما العربة سائرة بها وبخيت أمامها لحظت مـــن الـــنافذة فارساً يحاذي جواده مركبتها، فأشارت إلى بخيت أن يأمر السائق بسرعة المسير، غير أن ذلك الفارس الطفيلي ما زال سائراً بمحاذاة المركبة بعد ذلك، فاغتاظت فدوى وتحدثت في ذلك مع بخيت فأمر السائق بوقـــف العربة، حتى يمضي ذلك الفارس الثقيل. ولكن هذا ما كاد يسبق العـــربة ويلاحـــظ وقوفها حتى كر راجعاً إلى أن حاذى المركبة أو كاد، وتبينت فدوى أنه من رجال الجهادية، بما عليه من لباس الضباط، وكان قد أمـــال طربوشـــه على جبينه حتى يظهر شعره المصقول، وحاول النظر إلى فدوى فأنزلت ستارة النافذة وانزوت داخل العربة.

فـــلما رأى بخيت تماديه وشراسته، تفرس فيه فإذا هو عزيز، فصاح به قائلاً: "ماذا تريد يا أفندي؟".

فقال عزيز: "أريد أن أحيي حضرة السيدة".

قال: "إن العادة لم تجر بمثل هذا، والأليق بك أن تمضي لشأنك وتحفظ شرف الحلة التي أنت لابسها!".

فقال عزيز: "تأدب يا هذا واعلم أنك تخاطب ضابطاً محترماً". قال هذا

بصـــوت عالٍ لتسمعه فدوى ظناً منه أنها إذا علمت مكانته ترفع الستارة وتنظر إليه.

فقال له بخيت: "قد دلنا لباسك على مقامك، ولكن رجال الحرب لا يصقلون شعورهم، ولا يتطيبون تطيب المخدرات، ثم هم لا يعترضون المارة هكـــذا ولـــولا احـــترام كسوة العسكرية التي عليك لأذقتك ما لم تذقه عمرك!".

فانتفض عزيز من الغضب والخجل وقال: "ليس مقامي مخاطبة العبيد، وإنما أنا أخاطب سيدتك".

فقال بخيت: "احفظ مقامك وامض لشأنك فهذا خيرٌ لك".

قال: "قل لسيدتك أن شفيقاً لا يزال غراً من تلامذة المدارس، فليس هو أولى بالمحادثة من ضابط في الجيش".

فاشـــتد غضب بخيت وصاح به محتداً قائلاً: "اخسأ يا وغد، ولئن لم تذهب لأذيقنك الوبال". قال ذلك وأمر السائق بالعودة بالعربة إلى البيت، فعـــاد بها. وبقي عزيز واقفاً بجواده وقد ذهل لحبوط مسعاه، فلما عاد إلى صـــوابه، أخذ يعزي نفسه بأن فدوى لم تخاطبه حذراً من بخيت لئلا يطلع أباها على ذلك.

والواقع أنها عنفت بخيتاً لإطالة الكلام معه إلى ذلك الحد، فقال لها: "يا سيدتي إنه ثقيل يؤمل ما يقصر عن نيله ولا يراه حتى في الحلم، وقد خيل إليـــه أن لباس الجندية يرفع قـــدره فـــي عيون الناس، ولم يفطن بأن المرء بأصـــغريه لا ببرديه، ولكن مهلاً يا سيدتي فسأريه ما لم يره عمره، ولولا حرمة وجودك لأذقته الهوان".

فقالت: "ألا تعلم أن لرجال الجيش هذه الأيام شأناً عظيماً، ولهم الأمر والـــنهي، وأخشى إذا علم أبي بالأمر أن يلومنا، فالإعراض التام عن ذلك

الوقح كان أفضل وأسلم".

فقال: "لا ريب أن نيل رجال الجيش ما طلبوه يوم حادثة عابدين يعد فوزاً تاماً، ولكن عرابي أخذ بعد سفره بآلايه إلى رأس الوادي يبث مبادئه بين مشايخ عربان الشرقية وغيرهم، ويحثهم على الاتحاد والتحالف. وهذا ما أوجب حذر حكومتي إنجلترا وفرنسا. وقد علمت أنهما بعثتا إلى الخديوي تبديان استعدادهما للمساعدة في كل ما يؤول إلى تأييد سلطة سموه".

فقالت فدوى: "وما الذي أوجب تدخل هاتين الدولتين في مصالح البلاد؟".

قال: "لأن لهما على هذه الديار ديناً، فمحافظتهما عليها محافظة على حقوقهما".

ولما وصلت بهما العربة إلى المنزل أوصت فدوى بخيتاً بأن يكتم الأمر عن أبيها، فقال: "سمعاً وطاعةً".

★★★

عاد عزيز بصفقة المغبون، وقد ازدادت هواجسه وأضناه حبه لفدوى وحسده لشفيق، فرأى أن يسعى للانتقام من بخيت حتى لا يكون عثرةً في سبيل تقربه من فدوى. وفيما هو يفكر في ذلك صدرت له الأوامر بالشخوص مع ضباط آخرين إلى الإسكندرية، فصعب عليه الأمر وأحس بثقل الخدمة العسكرية التي لا مرد لأوامرها، فسار إلى الإسكندرية تاركاً قلبه في العاصمة.

ووقع الخلاف على أثر ذلك بين مجلس النواب والوزارة، ثم اشتد الخلاف حتى أدى إلى استقالة الوزارة وتأليف وزارة جديدة برياسة محمود سامي البارودي، وتقلد أحمد عرابي نظارة الجهادية فيها مع منحه رتبة لواء فصار باشا منذ ذلك الحين. وبهذا ارتفعت منزلة الحزب العسكري

واستفحل أمره.

ثم أجريت حركة تنقلات في الآلايات، فجاء الآلاي الذي فيه عزيز إلى القاهرة، وسعى عرابي في ترقية بعض الضباط فكان من بينهم عزيز ورقي إلى رتبة يوزباشي، ولا تسل عن إعجابه بهذه الترقية ولا سيما بعد أن استفحل أمر العسكريين وأصبحت أزمة الأحكام في أيديهم، مما أدى إلى خوف الدول الأوربية على مصالحها بمصر فاتحدت دولتا إنجلترا وفرنسا وقدمتا للحكومة الخديوية مذكرة طلبتا فيها إقالة الوزارة وإبعاد عرابي ورفقائه زعماء الثورة مع حفظ نياشينهم ورتبهم وألقابهم.

ولم تجد الوزارة بداً من الاستقالة، وكانت دوارع الدولتين راسية حينئذ في ميناء الإسكندرية، فاستقالت في يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢. ولكن العرابيين لم يقبلوا هذا وما لبثوا قليلاً حتى أعادوا الوزارة بالقوة، وأخذ عرابي باشا يتابع إرسال المنشورات إلى قناصل الدول الأجنبية، ضامناً فيها حفظ الأمن والسلام.

وفي ١١ يونيو من تلك السنة قامت في الإسكندرية فتنة قتل فيها كثير من الوطنيين والإفرنج، فصدرت الأوامر من الحكومات الأجنبية إلى رعاياها بالمهاجرة من مصر حالاً، في مراكب أعدت لذلك على نفقة تلك الحكومات. وكان سرور عزيز بهذه المهاجرة عظيماً، لأن والدي شفيق كانا من رعايا إنجلترا، فلا بد من سفرهما، وبذلك تضطر فدوى إلى الإذعان لرغبته.

وذهلت فدوى حين علمت بأمر تلك المنشورات، وخلت إلى بخيت وقالت له: "إن والدي شفيق مسافران من هذه الديار، فما تكون حالي إذا اضطر البعاد شفيقاً إلى إهمال العلائق والمودة بيننا؟". ثم تنهدت من كبد حرى وتأوهت، وأخذت في البكاء.

فلما شاهد بخيت هذا المنظر لم يتمالك عن البكاء، لكنه تجلد وقال لها:

"خففي من اضطرابك يا سيدتي فليس الأمر على ما تتوهمين، وإن شفقياً قد خصه الله بأرق العواطف، ومن كان مثله لا ينكث عهداً".

فلما سمعت اسم محبوبها رفعت رأسها كأنها هبت من رقاد عميق، وخجلت من نفسها، فقال لها بخيت: "أين تظنين والدي شفيق يتوجهان؟". فقالت: "قد فهمت من والدته أنهما سيذهبان إلى لندن لأن شفيقاً هناك".

فصمت بخيت مفكراً ثم قال: "وما المانع يا سيدتي من أن تكتبي إليه مبدية رغبتك في الاطلاع على أحواله، فعسى أن تكون النتيجة على خلاف ما تظنين، وما الأمر إلا لله؟".

فقالت: "أخشى أن تحمله كتابتي إليه على المخاطرة بنفسه فيجيء إلى هنا والبلاد على ما تعلم من الهياج والاضطراب، فأكون قد جنيت عليه وعلى نفسي".

فقال: "أرى الأفضل أن تستطلعي رأي والدته". فاستصوبت رأيه وأرسلته إليها لتحديد وقت يمكنها الاجتماع بها فيه.

ولما اجتمعتا ودار الحديث بينهما، أدركت سعدى غرضها من الاجتماع، فذكرت لها أن الأسطولين الإنجليزي والفرنسي في ميناء الإسكندرية منذ أيام، ولكنهما لا يعملان شيئاً إلا إذا رأيا خطراً على حياة الخديوي، فحينئذ يستخدمان لحمايته القوة ولو كلفهما ذلك هدم ثغر الإسكندرية وخراب مصر كلها. ثم تطرقت من ذلك إلى حديث السفر فقالت: "أما نحن فقد عزمنا على المهاجرة خوفاً من الخطر على حياتنا وإن لم نكن من الأجانب، والأغلب أن نسافر إلى لندن حيث نشاهد شفيقاً".

فأجهشت فدوى بالبكاء وأطرقت حياء وظهر اضطرابها جلياً رغم محاولتها إخفاءه فضمتها سعدى إلى صدرها وقبلتها والدموع ملء عينيها، ثم قالت لها: "خففي عنك يا ابنتي، إن الذي فرقكما قادر على أن يجمعكما

في وقت قريب".

فقالت لها فدوى: "اعذريني يا سيدتي لما ظهر من اضطرابي فقد غلبت علي عواطفي".

وفيما هما في ذلك جاء بخيت ملهوفاً وقال: "إن سيدي الباشا قد بعث إلينا بالإسراع إلى البيت، لأنه تلقى من عرابي باشا أمراً بالذهاب إلى الإسكندرية حالاً، ولا بد له قبل ذهابه من مشاهدتك".

فنهضت فدوى وودعت سعدى، فسألتها هذه: "هل لديك رسالة أو خبر لشفيق؟". فخجلت فدوى أول الأمر، ثم تجلدت وقالت: "بلغيه ما تشائين من السلام، وإذا أردت أن تكتبي إلي حين وصولك فليكن الكتاب باسم بخيت وهو يوصله إلي". ثم ودعتها ثانية وخرجت محاولة إخفاء اضطرابها لئلا يلاحظ عليها أبوها شيئاً، على أنها لم تستطع وما وصلت إلى البيت حتى لحظ أبوها أثر الدمع في عينيها وسألها عن السبب فقالت له: "لما علمت أمر سفرك في هذا الاضطراب السياسي لم أستطع إمساك الدمع". فطيب خاطرها وهون عليها وقال لها: "إني مسافر إذعاناً لأمر رئيس الحزب العسكري، وليس في الأمر ما يدعو إلى غير الاطمئنان، وسأوصي بخيتاً بكما وبكل من في القصر". ثم ودع الجميع وسافر إلى الإسكندرية بالقطار.

وكان سبب سفره أن عزيزاً بعد تحققه قرب مهاجرة والدي شفيق، أخذ يسعى في إبعاده هو أيضاً ليخلو له الجو ويرغم فدوى على قبول طلبه، فوشى به إلى عرابي زاعماً أن هناك خطراً في بقائه بالقاهرة بعد سفر الجند إلى الإسكندرية لشدة رغبته في مخابرة الأجانب، فأصدر إليه عرابي أمراً بأن يسير إلى الإسكندرية في أسرع وقت!.

وتمكن عزيز من البقاء بعد ذلك في القاهرة لعله يحصل على فدوى أثناء الانقلاب السياسي. وكانت هذه قد كاشفت بخيتاً بأنها تخشى اعتداء بعض

الجنود على المنـــزل بدسيسة من عزيز، فلم يستبعد ذلك ولكنه أكد لها أنه غير ممكن ليدخل إلى قلبها الاطمئنان.

★★★

جلست فدوى في غرفتها في ذات يوم من أيام شهر يوليو سنة ١٨٨٢ تفكر فيما هي فيه، وكانت والدتها في غرفة أخرى مشغولة ببعض الشؤون، فســمعت فدوى قرع جرس الدار، ثم جاءها أحد الخدم يقول: "إن دليلة الدلالــة بالــباب". فأذنت في إدخالها، ثم رحبت بها وأجلستها، وأخذت تتفرج على ما معها من السلع، ثم دار الحديث حول شؤون مختلفة إلى أن قــالت دليلة: "إن جنودنا سيغلبون جنود الفرنجة، لأن البوارج لا تزال في ميــاه الإســكندرية تنتظر عقد المؤتمر في الأستانة، ولكن مولانا السلطان غيــر راضٍ بعقده".

فقالت فدوى: "وماذا تظنين أن تكون نتيجة هذه الأعمال؟".

قــالت: "النتــيجة أن تتحرر البلاد من العنصر الأجنبي فتبقى مصالح الحكومة في أيدي أبناء الوطن، وسيتم كل ذلك بهمة الجهادية المصرية التي ألبســتنا المجــد والفخر فنطلب إلى الله أن يؤيدها بالنصر ويكلل أعمالها بالنجاح".

فقــالت فدوى: "كل شيء بيد الله". قالــت هــذا وعــادت إلــى تقــليب ما أمامها من السلع: فأخرجت الدلالة العجوز من جيبها علبــة صــغيرة فتحتها فإذا فيها خاتم من الذهب، وقدمته لها ووضعته في بنصرها بدعوى تجربة اتساعه، فلما تأملته فدوى لمحت على فصه نقشاً فقرأته فإذا فيه "تذكار عزيز". فنــزعته حالاً من يدها وقد احمر وجهها وبدت عليها علائم الكدر، ثم رمت به إليها قائلة: "خذي خاتمك وأقصري".

فقهقهت دليلة وقالت مظهرة المزاح: "ماذا أغضبك يا ابنتي؟".

قــالت: "لم يغضــبني شيء ولكنني فهمت أن الخاتم ليس للبيع ولكنه

تذكار". قالت: "وماذا يمنع أن تقبليه على أنه تذكار؟".

فقاطعتها فدوى قائلةً: "أقصري يا دليلة، واعلمي أن مثلنا لا يقبل تذكاراً من أبناء الأزقة، فخذي تذكارك وأرجعيه إلى أهله!".

فنظرت إليها مستعطفة وقالت: "لا تحكمي يا سيدتي قبل معرفة القضية".

فقالت وقد أخذ التأثر منها مأخذاً عظيماً: "لا حاجة بي إلى إطالة الكلام، فاذهبي من حيث أتيت". ثم تركتها وتحولت عنها فخرجت العجوز لا تلوي على شيء.

وبعد قليل جاء بخيت فأطلعته فدوى على ما كان، فقال لها: "لا يزال هذا اللئيم على غيه فلعنة الله على دهر يستنسر فيه البغاث".

★★★

لبثت سعدى بعد انصراف فدوى تفكر في أمرها وفيما زينها الله به من رقة العواطف ودقة الإحساس وكمال الذات ولطيف الصفات. فازدادت محبةً لها وتحققت سعادة ابنها إذا هو حصل عليها. ولم يكن زوجها إبراهيم قد اطلع على شيء من أمر فدوى وشفيق، فلما صدرت الأوامر بمهاجرة الرعايا الأجانب، أوصى سعدى بالتأهب للسفر إلى مدينة لندن لمشاهدة شفيق، وشرعا في إعداد الأمتعة السهلة الحمل ووضعها في الصناديق لإرسالها بالسكة الحديدية إلى الإسكندرية، وفيما هما في ذلك وقع نظرها على الصندوق المعهود فخفق قلبها وتاقت إلى استطلاع ما فيه فقالت لزوجها: "إننا مسافرون على بركة الرحمن، ولا ندري ما نصيب في سفرنا هذا من خير أو شر، فأرغب إليك في أن تطلعني على حكاية هذا الصندوق".

فوجم إبراهيم ثم قال: "أما إطلاعك على تلك الحكاية فقد ذكرت لك أنه لم يجئ ميقاته، ولكن ..". وسكت مفكراً، ثم عاود الحديث فقال:

"ولكـــني من جهة أخرى أخاف أن أصاب بسوء في سفري هذا فينمحي خـــبر هذه الضفيرة من العالم إذ لا يعلم أمرها إلا أنا فأمهليني ريثما أعود إليك". قال ذلك ودخل غرفته وأغلق بابها وامرأته تنتظره خارجاً وهي لا تدري ماذا يفعل.

وبعـــد ســـاعة خرج مكفهر الوجه وفي يده ورقة مختومة فاقترب من ســـعدى وأمسك بيدها قائلاً: "اقسمي لي بمحبة ولدنا الوحيد شفيق أنك تحـــافظين على ما أقوله لك في شأن هذه الورقة". فلما أقسمت قال لها: "إليك هذه البطاقة المختومة على ألا تفضيها إلا إذا أصابني ضر في سفرنا هـــذا أو بعـــده، فعند ذلك تفضينها وتطلعين على ما فيها، وأرغب إليك العمل بمقتضاها والحرص عليها".

فتناولتها وهي ترتجف تأثراً وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ثم قالت: "لا أراني الله فيـــك مكـــروهاً". وجعلت البطاقة في جيبها ريثما تختار لها مكاناً آخر أميناً تجعلها فيه.

ومضى الليل وهما يعدان معدات السفر، وكان خادمهما أكثر اهتماماً منهما لأنه اشتاق إلى سيده شفيق، وكان يحبه حباً مفرطاً. وفيما هو يهيئ الأمتعة قال له إبراهيم: "هل أنت مسرور بالذهاب معنا يا أحمد؟". فتأدب الخادم أمامه وقال: "كيف لا وأنا مشتاق إلى رؤية سيدي شفيق، ويعلم الله أني لا أنسى كرم أخلاقه أبد الدهر، وقد شكرت الله لوجوده هذه المدة في بلاد الإنجليز حرصاً على حياته".

فقال إبراهيم: "أتعني أنه نجا من مخالب الثورة العرابية؟".

قال: "كلا يا سيدي، إن ذلك ليس محل خوفي، ولكنني كنت أخاف عـــليه من دسائس أحد أصدقائه الذي رافقه إلى الإسكندرية". قال ذلك وهو يحرق أسنانه غيظاً.

فقال إبراهيم: "ماذا تعني ومن هو صديقه هذا؟".

قال: "هو عزيز الذي تعرفه، ولقد كنت مشفقاً على سيدي شفيق من كيده ومكره، فلما علمت بمرافقته إياه إلى الإسكندرية لم يهدأ لي بال حتى رافقتهما متنكراً إلى الإسكندرية و لم أرجع حتى ركب سيدي الباخرة على مرأى مني".

فعجب إبراهيم وقال: "إنك كثير الوساوس يا أحمد، وما الذي تخشاه على شفيق من هذا الشاب وهو أعز أصدقائه؟".

قال: "ربما كنت غير مصيب، ولكن قوة خفية دفعتني إلى ذلك". قال ذلك وعاد إلى ترتيب الأمتعة وحزمها واستمر في ذلك طول الليل.

★★★

لبثت فدوى بعد سفر والدي شفيق على مثل الجمر وهي تنتظر كتاباً من سعدى. وبعد ثلاثة أسابيع أخذ بخيت كتاباً باسمه ففضه فإذا طيه آخر باســـم فدوى فلما تناولته اختلج قلبها فرحاً وارتعشت يداها حتى لم تقو على فضه، فدخلت غرفتها وأغلقت بابها حذراً من الرقباء، ثم قعدت على متكأ هناك وفضت الكتاب بيدين ترتعشان فرحاً فإذا فيه:

"مـــن لـــندن شارع أكسفورد رقم ٥٦. إلى القاهرة في ٥ يوليو سنة ١٨٨٢.

"عزيزتي فدوى. وعدتك بأن أكتب إليك حال وصولي إلى هذه الديار بما يكون بعد مشاهدتي ولدي شفيقاً، ولكنني أخبرك وأنا أكاد أغيب عن الصـــواب بأنه قد مر علينا ثلاثة أيام من يوم وصولنا ونحن نبحث عنه في سائر أنحاء إنجلترا فلم نقف له على أثر، وقد أخبرنا صاحب المنـــزل الذي كان ساكناً فيه بأنه خرج صباح يوم من أيام الأسبوع الماضي و لم يعد، وما زلنا ساعين في البحث عنه و لم نظفر به. فإذا عرفت عنه شيئاً فأبرقي إلينا بذلـــك مشكورة بالعنوان المثبت في أعلى هذا الكتاب، وسنخبرك بما يتم والسلام.. سعدى".

وما كادت فدوى تنتهي من قراءة الكتاب حتى خارت قواها وارتعدت فرائصها، ثم صرخت وانكبت على الأرض مغشياً عليها، وسمع بخيت صوتها فسارع إليها وقد أذهله الأمر، وأخذ يرشها بالماء حتى أفاقت فأخذ يسألها السبب وهي لا تعي شيئاً وتواصل نوحها فبحث عن الكتاب حتى رآه فلما اطلع عليه لم يتمالك عن البكاء، لكنه أخفى اضطرابه وأقبل عليها مخففاً من اضطرابها وهي تصعد الزفرات فقال لها: "اصبري يا مولاتي عسى الله أن يمن بالفرج، واكتمي ما بك لئلا ينكشف الأمر فإن سيدتي والدتك لا تلبث أن تأتي".

وأمرت فدوى بخيتاً بأن يأتيها بدواة وقرطاس وجلست إلى منضدة وكتبت لسعدى رداً على كتابها قالت فيه:

"من القاهرة في ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢.. إلى لندن.

"سيدتي المحترمة. قرأت كتابك بدموع الحزن والأسف، وقلب يتقلب على نار الجزع كأن الدهر قد ندم على ما وهب فحملني ما لا أستطيع عليه صبراً. أما أنت أيها الوالدة فلا أذاقك الله لوعة ولا سقاك حسرة فإن نبأ اختفاء شفيق أورثني من القلق ما لم أذق مثله ومن اللوعة ما لم أكابده، فلا غرو إذا انفطر له قلبك وسح دمعك وتفتت كبدك وأنت والدته.

على أني آملة في مراحم الله أنه لا يخيب أمل والدة حنون وصديقة مخلصة، وهو الذي أذن بما كان وله القدرة على جبر قلوبنا، وحاشاه أن يأذن بهلاكنا حسرة ولهفاً. على أني أسألك أن تعلميني تلغرافياً بما تعلمين عنه. وإذا عرفت عنه شيئاً فسأعلمك به. اعذريني على التمادي في مكاشفتك عواطفي إذ ليس لدي من أكاشفه سواك، وأختم الكتاب بتقبيل يديك ودمت سالمة لولدك.. فدوى".

وبعد أن أتمت قراءة الكتاب ختمته وعنونته وسلمته لبخيت ليضعه في صندوق البريد، وعادت إلى البكاء فقال لها بخيت: "لا تقنطي من رحمة

ربك، إن لندن مدينة عظيمة تحتوي على زهاء خمسة ملايين من الناس فلا بدع إذا اختفى شفيق عن أهله فيها بضعة أيام".

وبقيت فدوى قلقة إلى أن كان الأصيل فقال لها بخيت: "هل لك يا سيدتي أن تركبي العربة للنزهة فتفرجي كربك".

فامتنعت أولاً ثم رأت في ذلك إخفاء لقلقها وجزعها عن والدتها فأرسلت إليها بخيتاً ليخبرها بذهابها للنزهة، ثم ركبت معه العربة وخرجا.

-٧-

ضرب الإسكندرية

مرت فدوى في عربتها بجهات الأزبكية، وإذا الناس في هرج يتحدثون ويتساءلون ويتسارون، والجنود يخطرون في الطرق مرحاً ورؤوسهم تكاد تدرك السحاب عجباً وتيهاً. فأوقف بخيت المركبة وسأل بعض المارة فقيل له: "إن بعض المهاجرين قدموا من الإسكندرية وأخبروا بأن الأسطول الإنجليزي أطلق مدافعه على حصونها فهدمها، ثم أنزل العساكر إليها واحتلها ففر العرابيون إلى كفر الدوار ليتحصنوا ويستعدوا لملاقاة العدو بعد أن أحرقوا الإسكندرية. أما جند القاهرة فلم يصدقوا الخبر لأن جرائدهم كالطائف والمفيد كانت تذكره بعكس ذلك تشجيعاً لهم. ولذلك كانوا يمرحون في الأسواق إعجاباً بالنصر. ولا سيما الذين هاجروا من الإسكندرية فراراً من الإنجليز فإنهم كانوا يتحرشون بالمارة من الغرباء ويوقعون بهم كل سوء حتى صاروا لا يخرجون إلى الأسواق إلا متنكرين بزي الوطنيين حرصاً على حياتهم. وقد شكا أهل القاهرة لضابطها من تصرف جالية الإسكندرية فبذل قصارى الجهد لملافاة تلك الاعتداءات".

كما علم بخيت أن جماعةً من المشايخ طافوا بالشوارع وعلى صدورهم مآزر ملونة وبأيديهم مباخر وهم يهتفون داعين لعرابي وحزبه وحبوط

مساعي الإفرنج.

فعـــاد بخيت إلى سيدته بهذه الأنباء، وأشار عليها بالعودة إلى المنـــزل فقبلت مشورته، وكانت والدتها في انتظارها فحيتها وأبلغتها ما سمعته عن ثورة الإسكندرية وهي ترتعد من الخوف، فلما سمعت والدتها ذلك امتقع لونها ثم قالت: "ما العمل الآن؟.. طالما رغبت إلى أبيك أن يهاجر من مصر إلى دمشـــق الشام فنقيم بها عند أهلي حتى تسكن الأحوال هنا، ولكنه أبى إلا البقاء. وها قد ذهب الآن إلى الإسكندرية فلا ندري ما حدث له!".

فقـــالت فـــدوى: "لعله تمنع خوفاً على أملاكه من الضياع مدة هذه التقلـــبات ولا أخالـــه ظن الثورة تبلغ هذا المبلغ، أما ذهابنا إلى الشام فما أحـــلاه لو كان لأبي شديدة الميل إلى مشاهدة مسقط رأسك ومقر أهلك فقد بلغت هذا المبلغ من العمر و لم يسعدني الحظ برؤيتهم".

فتـــنهدت والدتها وخنقتها العبرات، فلما رأتها فدوى على هذه الحال اضطرب فؤادها وظنت هذا التأثر خوفاً على أبيها من مذبحة الإسكندرية فـــأخذت تهـــون عـــليها لتسكن اضطرابها، وأخبرتها بدخول الإنجليز إلى الإسكندرية وأن الجميع في سلام وطمأنينة.

فرفعت نظرها إلى فدوى وقالت: "لم يكن اضطرابي كله يا حبيبتي على والـــدك إذ لا خـــوف عليه بإذن الله لأنه معروف من زعماء الثورة، وإنما تأوهي لذكرى حضرتني بتذكر الوطن".

فقالت فدوى: "ما هي هذه الذكرى يا والدتي؟".

فقالت: "تذكرت ضياع أخ لي من ١٩ سنة أثناء الحادثة المشؤومة التي حدثت في دمشق سنة ١٨٦٠ و لم أكن قد عرفت أباك بعد".

فقالت: "كيف ذلك يا أماه، وهل لم تقفوا على خبره بعد".

فقالت: "اعلمي يا ابنتي أنني من عائلة معروفة في دمشق، وكان لي أخ غض الشباب حسن السيرة، شهم شجاع، وكنا نعيش في بسطة ورغد في

كـــنف والدينا، حتى كانت سنة ١٨٦٠ فجرت الثورة في دمشق قام فيها فتيان المسلمين على النصارى فحصلت مذبحة هائلة دارت فيها الدائرة على النصارى، وكان خالك في جملة أولئك الفتيان فخرج صباح يوم في جملة مـــن خـــرج للقتل والفتك ولم نعد نراه أو نسمع عنه شيئاً وا حسرتاه، وبقيت وحدي مع والدي جديك، وفي السنة التالية للمذبحة جاء أبوك إلى دمشق فتعرف إلى أبي وخطبني ثم تزوجنا وجئت معه إلى مصر".

فلما سمعت فدوى كلام أمها عن فقد أخيها، تذكرت فقد شفيق فلم تـــتمالك عـــن البكاء، وقالت في نفسها: "ترى كيف حال والديه؟". ثم خشيت أن تلحظ أمها شيئاً من اضطرابها فسألتها قائلةً: "كيف استطعت الصـــبر يا أماه على بعد والديك كل هذه المدة، مع قصر المسافة بين مصر وسورية، إذ أن قطعها لا يحتاج إلى أكثر من أيام؟".

فـــتأوهت والدتها من كبد حرى وقالت: "أطلب إلى الله أن يمن علينا باللقاء لتري جديك العزيزين".

★★★

ما برح عزيز يزداد هياماً بفدوى رغم الإهانة التي لحقته من بخيت في شـــارع العباسية وقد رأى أن ينتقم لنفسه فيستعمل ما لديه من الوسائط السافلة لاستطلاع أسرار خصمه ويتخذها سلاحاً يذلـــله بها، فذهب إلى المفـــتش الذي أقامه العرابيون في مصلحة البريد لمراقبة الرسائل المتبادلة بين أعيـــان البلاد ورجال حكومتها وأوصاه بأن يطلعه على كل كتاب يرسل إلى شفيق أو أبويه في إنجلترا، بدعوى أن عرابي باشا يريد ذلك.

ثم أقـــام على فدوى رقباء لينبئوه متى خرجت من بيتها، ليسعى إلى اكتســـابها بأيـــة طريقة، كما قصد إلى صديقته دليلة وعرض عليها الأمر فقالت له: "لا أظن أن فدوى تفضل سواك، فأنت شاب غني بالمال والجاه وقـــد حصلت على أشرف مناصب الحكومة، ولكنك لا تعرف من أين

تؤكـــل الكتف، فالجـــنس اللطيف يؤخذ بالملاطفة وليس بالعنف، فطب نفساً يا ولدي وقر عيناً، وإذا هي أصرت على عنادها فأنا كفيلة بحصولك عليها بأية وسيلة".

فشكرها وقال: "لكني أخشى أن يصدر الأمر بسفري إلى الإسكندرية بغتةً، فماذا أصنع؟".

قالت: "إن الإسكندرية الآن في خطر عظيم إذ تتهددها دوارع إنجلترا وفرنسا، كما أن ذهابك إليها يعرقل مساعينا في شأن فدوى".

قال: "ما كل ما يتمنى المرء يدركه. وكنت قد عولت حين انتظامي في ســـلك العسكرية على أن أستعفي من الخدمة إذا شعرت باقتراب الخطر، ولكني ارتقيت فيها وصرت عظيماً في أعين الناس، والقوانين العسكرية لا تجيز الاستعفاء وقت الحرب فلا بد لي من البقاء ومتى انتهت مهمتي عدت إلى القاهرة لاستئناف مساعينا".

★★★

ذهبت دليلة كعادتها صباح كل يوم إلى بيت عزيز فرأته يخطر في غرفته ذهاباً وإياباً وفي يده رسالة ينظر إليها وسمات الاضطراب بادية على وجهه، فلما رآها رحب بها ثم مد يده إليها بتلك الرسالة وقال: "هل تعلمين ممن هذا الكتاب؟. إنه من فدوى إلى والدة شفيق".

فسألته: "وماذا فيه؟". قال: "فيه كل خير، فقد اختفى حبيبها شفيق من لندن، ولم يعثر والداه على أي أثر له!".

فقـــالت: "هذه خطوة كبيرة في سبيل تحقيق آمالنا، وحبذا لو أطلعت أباها على هذه الرسالة فيتحقق محبتك له وغيرتك على شرف ابنته فيزداد بك ثقة، ومتى أظهرت له بعدئذ ميلك إلى مصاهرته فإنه لا يتردد في إجابة طلـــبك، وإذا فرضـــنا أنها لم تقبل فإنه يجبرها على القبول لأنه غيور كما تعلم".

فلما سمع عزيز كلام العجوز أخذته هزة الطرب وقال: "لا أشك في أن الباشا يرغب كثيراً في مصاهرتي، لكنني كنت أخشى أن ترفض هي فأرجع بصفقة المغبون، أما الآن وقد وقعت في الشرك فما أظن أنها تستطيع رفض أمر أبيها ولا سيما بعد أن انكشف له ما بينها وبين شفيق".

وفيما هما في الحديث، أتاه الخادم بكتاب ففضه فإذا هو من أركان حرب عرابي يطلبون إليه فيه أن يعد عدداً من الخيل ومقداراً من المؤونة مساعدةً للجيش ويقدمها في أقرب وقت، ثم يسافر إلى الإسكندرية. فلما قرأ الكتاب تغيرت ملامح وجهه فقطب جبينه وجلس على مقعد أمامه معتمداً رأسه بيده كأنه وقع في أمر عظيم، فسألته العجوز عما به فلم يجبها أولاً، ثم أعلمها بالأمر، فهونته عليه وقالت: "إن أوامر العسكرية لا مرد لها ولا سيما في مثل هذه الأحوال، فسافر إلى الإسكندرية واعتمد علي في مراقبة حركات فدوى واستجلاب رضاها".

وفي اليوم التالي سافر عزيز قاصداً الإسكندرية فلما وصل إلى كفر الدوار علم أن عرابي لا يلبث أن يأتيها بجنده من ضواحي الإسكندرية ليتحصن فيها ويستعد للدفاع، فخاف أن يلتحم الجيشان هناك فيصيبه سوء وتبادر إلى ذهنه أن هذا سيعود بالنفع على شفيق إن كان لا يزال حياً فسول له حسده أن يبحث عن مكان أبي فدوى ويرسل إليه كتابها إلى أم شفيق ليهيج فيه عاطفة الانتقام ويعرقل مساعي شفيق، وعلم بالبحث أنه لا يزال في الإسكندرية، ثم ورد أمر من الخديوي إلى عرابي في كفر الدوار يستقدمه إلى الإسكندرية، ويأمر بالكف عن الأعمال الحربية وحشد الجند لأن الجنرال سيمور أميرالاي العمارة الإنجليزية قد صرح باستعداده للجلاء عن الإسكندرية إذا تحقق وقف استعدادات الحربية. فسر عزيز بذلك لأنه يمكنه من السفر إلى الإسكندرية، ولكن عرابي لم يذعن لذلك الأمر وكتب إلى وكيل الجهادية في القاهرة يخبره بما حدث، فجمع هذا أعيان العاصمة

ورجـــال حكومـــتها، وبعد المفاوضة أقروا وجوب المثابرة على الأعمال الحربية وبعثوا لجنة مؤلفة من ستة مندوبين لمخاطبة الجناب العالي في ذلك فســـارت اللجـــنة من القاهرة ومرت على عرابي في كفر الدوار لإخباره بمهمتها. فرأى عزيز أن يسافر معها إلى الإسكندرية ولا سيما أن السكك الحديديـــة في مصر كانت بعد ضرب الإسكندرية لا تسير قطراتها إلا بأمر العرابيين. واستطاع عزيز أن يحصل على الإذن له في ذلك.

ولما بلغ الإسكندرية ذهل لما حل بتلك المدينة العظيمة من دمار على أثر الحـــريق الذي ذهب بأعظم مبانيها، وأحال حي المنشية آكاماً من الأتربة والأحجـــار. وكان الدخان لا يزال يتصاعد منها، وحوانيتها العظيمة التي كـــانت ملأى بالأقمشة والملابس والحلي والمجوهرات ذهبت طعاماً للنار والنهب، فتعجب عزيز لهذا الانقلاب السريع وكان لا يشاهد أثناء مسيره مـــن المارة إلا أزواجاً من الشرطة الإنجليز، بعضهم خيالة وبعضهم مشاة وكلهم بالسلاح الكامل يطوفون بالبلد حفظاً للأمن.

واهتدى أخيراً إلى المنـــزل الذي يسكنه الباشا أبو فدوى، لكنه ما كاد يهـــم بالدخول حتى أحاط به نفر من الجنود الإنجليز وأمسكوا به، وكانوا آتين للقبض على الباشا لاتهامه بأنه من العصاة المختبئين. فلما رأوا عزيزاً بلـــباس الجـــند المصري ظنوه قادماً بدسيسة من عرابي وأتباعه إلى الباشا فقبضـــوا عليهما وساقوهما موثوقين إلى المحافظة بعد أن ضبطوا ما وجدوه معهما من الأوراق.

وفي الطريق لمح الباشا عزيزاً فعرفه وظن أنه الواشي به، أما عزيز فكان يـــلعن الساعة التي أتى فيها الإسكندرية ويندب سوء بخته وقد اكفهر لونه واصـــطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه حتى كاد يقع من شدة الخوف. ولم يكن الباشا أقل منه اضطراباً.

وفيما هما سائران مع الجند في ساحة المنشية تصدى لهم ضابط إنجليزي

فأوقف الجند وتأمل الرجلين الموثوقين. ثم خاطب الجند باللغة الإنجليزية فتركوهما له وسلموه ملف الأوراق وانصرفوا، بينما أشار إليهما أن يتبعاه، فسارا معه حتى خرج بهما من شوارع البلدة إلى جهة المسلة فأدخلهما بيتاً في منعطف هناك وأغلق الباب. فتحقق لديهما دنو الأجل وأنهما لا محالة مسوقان إلى القتل، على أن الضابط الإنجليزي ما لبث أن رفع قبعته وخاطبهما باللغة العربية قائلاً: "السلام عليكم".. فذهل كلاهما لهذه المفاجأة وتأملاه فخيل إليهما أنهما يعرفانه، ثم عرفه عزيز فألقى بنفسه عليه قائلاً: "شفيق .. أخي شفيق .. ما أسعد هذه المصادفة".

وسأله الباشا: "أأنت مصري يا سيدي؟". فقال: "نعم وقد رأيتكما في خطر فسعيت إلى إنقاذكما من مخالب الموت".

فقال الباشا: "إننا مدينان لك بحياتنا أيها الشهم الباسل، فاطلب إلينا ما تشاء لعلنا نفي ببعض الواجب علينا".

فقال شفيق: "حسبي مكافأةً أن قدر لي الله إنقاذكما من الموت أو الإهانة". ثم حل وثاقهما ودعاهما إلى الاستراحة ودخل هو إلى غرفة أخرى وفض ملف الورق ليرى ما يحتويه فعثر بالكتاب المرسل من فدوى إلى والدته. فما قرأه حتى هاجت عواطفه وأخذته رجفة الحب و لم يقو على الوقوف فقعد على مقعد هناك وهو يكاد يغيب عن الوجود، وصبر إلى أن هدأت عواطفه فأرسل خادماً عنده أن يدعو الرجلين إلى حضرته، فلما حضرا أكرمهما ثم سألهما ما سبب وجود هذا الكتاب بين أوراقهما. فتدارك عزيز الأمر وقال: "كان بين أوراقي أيها الحبيب". واقترب منه وأشار إليه بأن يخلو إليه ليحدثه بالأمر، فلما انفردا بادأه عزيز بما فطر عليه من الدهاء والكذب قائلاً: "ما برحت أذكر أيها العزيز ما تفرضه علي واجبات الصداقة والأخاء، وقد سعيت إلى ما وعدتك به من تسهيل أمر اقترانك بفدوى، فبقيت مدة أتردد إلى بيت الباشا حتى تسنى لي أن أساعد

بخيـــتاً في إيصال كتبها لك إلى البريد سراً لأن أباها لم يكن يأذن لأحد في مخاطبـــتها غير بخيت، وهذا لم يجرؤ على إيصال الخطابات إلى البريد خوفاً مـــن اطلاع الباشا عليها فينتقم منه. أما أنا فلم أخاطب الباشا بشيء من مقاصـــدك خوفاً من أنك لا تريد ذلك. وهذا الكتاب أعطاني إياه بخيت لأوصله إلى البريد، ولما كانت إدارته الآن بيد العرابيين، خشيت ألا يرسلوا الكتاب فأبقيته معي على أن أضعه في أحد مكاتب البريد الإفرنجية ضماناً لإرســـاله. ومـــما رغبني في المجيء أيضاً إلى الإسكندرية أن الباشا مقيم بها فاغتنمت الفرصة، وجئت إلى بيته فما بلغته حتى قبض الجند علي وعليه".

فشـــكره شـــفيق وقبله قائلاً: "لقد أوليتني فضلاً عظيماً أيها الصديق الحميم، فأراني مقصراً عن تأدية الشكر لك. غير أني أرجو من لطفك وقد قلدتني هذه المنة أن تعلمني عن حالة فدوى".

قـــال: "هـــي على ما تريد من الكمال والجمال". فأخذ شفيق كلامه مأخذ الإخلاص وظنه صادراً عن شعائر كريمة ومحبة صادقة، ثم حول نظره إلى حـــلة عزيز العسكرية وقال له: "أراك قد انتظمت في سلك الجندية". فقـــص عزيـــز عـــليه حكاية انتظامه في الجيش وأدخل عليها ما شاء من الأكاذيب الملفقة ثم قال: "وأنت أراك لابساً ملابس الضباط الإنجليز فكيف كان ذلك؟".

فقال شفيق: "إنني لما سمعت بالثورة العرابية وما أصاب الديار المصرية من اختلاف الأحوال أشفقت على فدوى أن ينالها سوء، فتطوعت لمرافقة الحملة الإنجليزية كي أشاهد الأهل والأحباب ولعلي أستطيع خدمتهم ولا سيما فدوى، لأن حبها شغل كل جوارحي. ولا يخفى عليك أن انتظامي في الجـــندية الإنجليزية كان رابع المستحيلات لو لم أستخدم وسائط كثيرة وأكون ممن يعرفون اللغتين العربية والإنجليزية فأقوم أحياناً مقام المترجم ولي أمل عظيم إذا نلت حظوة في عيني رئيسي أن أحصل على التعيين النهائي في الجيـــش فأغفل مهنة المحاماة. فما رأيك يا صديقي وهل أكاشف الباشا

الآن بحقيقة حبي لفدوى أم...".

فقاطعه عزيز قائلاً: "أرى الأفضل أن تترك هذا الأمر لي فأدبره بما تقتضيه الحكمة".

فقال: "إنني أشكر وفاءك وأتقدم إليك إذا رجعت إلى العاصمة قبلي أن تبلغها تحياتي وتخبرها بأني لا أزال على العهد وعما قليل أكون عندها وسأكتب لها في الغد".

فقال عزيز: "إن خطابك قد لا يصل إليها بالبريد لاختلال الأحوال كما أخبرتك، فإذا شئت فإني أنقل خطابك إليها، وحبذا لو أعطيتني علامة منك".

فقال شفيق: "لدي علامة لا أحب أن يطلع عليها أحد غيرك لأنك عالم بما بيننا". ثم أخرج الدبوس من جيبه وأراه لعزيز قائلاً: "هذا الدبوس أخذته منها في حديقة قصر النزهة تذكاراً للحب والولاء فإذا أريته لها فهو خير علامة".

فأظهر عزيز استحسانه لهذا الاقتراح وشكر شفيقاً على ثقته فيه.

ثم عادا إلى الباشا، ودفع شفيق الأوراق إليهما ونسي كتاب فدوى بينها وقال لهما: "إذا أردتما الذهاب فهاكما شعار الأمان المصطلح عليه هنا، وهو كلمة (السلام)..".

فخرج الاثنان ينفضان غبار الموت عن منكبيهما حتى أتيا مختبأ الباشا وعزيز يعجب لهذا الاتفاق العجيب ويقول لنفسه: "ألا يزال على قيد الحياة فوالله إذا التحم الحرب لأسعين إلى قتله".

★★★

أثنى الباشا على عزيز اعتباراً منه أنه نجا من الموت بواسطته، فشمخ هذا بأنفه وقال: "إن ما صنعه معنا هذا الرجل إنما هو مكافأة على ما لي عليه

من الصنع الجميل لكنني سررت لاتفاق وجودك معي".

ثم نظر إلى الباشا كمن تذكر أمراً ذا بال وقال: "لدي أمر أرجو ألا يثقل علي مسامع سيدي الباشا، ولا أزيدكم علماً بغيرتي على شرفكم شرف كريمتكم، وقد أتيت من القاهرة لهذه الغاية، ولعل سعادتك تذكر ليلة كنا في الملعب ولمّحت لك بشيء عن وجوب العناية بأمر خروج فدوى؟".

فقال الباشا: "نعم أذكر ذلك. فماذا عندك عن هذا الأمر؟".

قال: "علمت أن أحد شبان العاصمة سعى إلى إغوائها، وهي لصفاء جوهرها وسلامة نيتها وقعت في شركه حتى أنها علقت بحبه، ولما ظهرت الثورة العرابية سافر ذلك الشاب إلى بلاد الإنجليز وشرع يكاتبها من هناك حتى كاتبته، وقد وقع في يدي كتاب منها إلى والدته فجئت به إليك لتعلم صدق خدمتي".

ثم أحضر الأوراق وأخرج الكتاب المعهود وأعطاه إياه، ففضه وقرأه. وما انتهى إلى آخره حتى صار ينتفض من الغضب ويلعن ابنته، فقاطعه عزيز وقال: "إن طيبة قلبها وحسن طويتها غشيا على بصرها، ولا أكتمك أني معجب بخصالها الحميدة وقد تعلق بها قلبي لصفاء جوهرها وطيب عنصرها، فهل تريد أن تجعلني في مكان ذلك الغر الخائن فأكون لها بعلاً ولك صهراً وعند ذلك تكون لي بمثابة أبي، وتضع يدك على جميع أموالي؟".

فاستبشر الباشا ببلوغ مناه فقال له على الفور: "إنك لتفضلها كثيراً وهي لا تستحق أن تكون لك زوجة، وإني أعد قبولك الاقتران بها شرفاً لها ولي".

فقال عزيز: "العفو يا سيدي، إنها مهما يكن من أمرها لم تخرج عن الأصل الكريم والعنصر الشريف، وأحسب نفسي سعيداً إذا عاهدتني على

الاقتران بها".

فقال: "قد وهبتها لك زوجةً فبورك لك فيها".

فابتهج عزيز لنجاح مسعاه ونسي بغضها له ونفورها منه وحبها شفيقاً وائتلاف قلبيهما على حب صادق. ثم أتى الخادم يدعوهما للطعام فذهبا وجلسا إلى المائدة فقال الباشا: "ما أخبار جنودكم؟". قال: "هم يتأهبون للدفاع في كفر الدوار".

فقال الباشا: "إنكم لم تحسنوا التصرف في الأمر كما كان يجب، ولقد كانت أعمال العرابيين أول الأمر حسنة المظاهر كريمة للغاية، أما الآن فأخشى أن ينجلي الأمر عن ضرر يلحق بالبلاد".

فقال عزيز: "إننا لم نطلب يا سعادة الباشا إلا مطالب عادلة تعود على الوطن بالنفع العميم".

قال: "هب أن جميع مطالبكم عادلة، فكيف تريدون تنفيذها مرة واحدة في يوم واحد؟ إن لله في عبادة سنة لا محيد عنها، والإصلاح مهما يكن بيننا لا يمكن إدخاله إلا تدريجاً، وفضلاً عن هذا فقد بالغتم في عقوق إحسان ولي النعم الذي لم يظهر لكم من أعماله منذ اعتلى أريكة الخديوية إلا كل حسن نافع، فإنه رجل مخلص لرعيته محب لمصلحتهم ساهر على خيرهم، فكيف تقولون إنه ساعٍ إلى بيع الوطن؟".

فقال عزيز: "لم نقل ذلك إلا بعد أن رأيناه يقبل تأليب الدول الأجنبية علينا".

فقال الباشا: "وماذا كان يصنع بعد أن ثارت القوة العسكرية عليه؟ وهل يخفى عليكم أن للحكومات الأجنبية مصلحة مادية في هذه البلاد، ومصلحته من مصلحتها؟ ألا تذكر ما نقلته لي يوم حادثة عابدين عندما صرح قنصل إنجلترا لعرابي بأن إصراره على عناده يحمل الدول الأجنبية

عـــلى التدخل لإخماد الثورة؟. ولقد صرحت الدول الإنجليزية بعد دخولها الإســـكندرية بأنهـــا ســـترجع عـــنها حالما تتحقق وقف حشد الجيوش والمظاهرات الحربية".

فقال عزيز: "إن هذه الدولة تريد الاستيلاء على هذه البلاد".

قـــال: "لا أظـــن ذلك صحيحاً، وقد علمت أنها اقترحت إبعاد عرابي وصحبه قبل تفاقم الخطب مع بقاء رتبهم وألقابهم ورواتبهم فلم يقبل، ولو قبل لانحلت المشكلة على أهون سبيل، على أنه إذا أصغى اليوم إلى ما قيل لـــه لانحلت المشكلة وعاد الجنود الإنجليز من حيث أتوا، أما إذا أصر على مراده فإن ذلك يعود وبالاً علينا".

فقال عزيز: "لا يخفى على سعادتك أننا ندافع بأعمالنا هذه عن حقوق مولانا السلطان صاحب البلاد".

قـــال: "ومـــن قال لك ذلك؟ إنك لا تلبث قليلاً حتى تسمع بصدور المنشـــورات المؤذنة باعتبار عرابي عاصياً، وها أن الجناب العالي قد صرح بعصيانه ونحن ليس لنا قدرة على مدافعة القوة الإنجليزية".

فقال عزيز: "إذا كان الجناب العالي يحب الرعية فلماذا يقبل نجدة الدول الأجنبية؟".

قـــال الباشـــا: "قلت لك إنه لا يمكنه غير ذلك، ولا بد أنه فعل هذا مضطراً، فبمن كان يستنجد بعد أن انقلبت عليه القوة التي كان يستنجد بها وقت الحاجة؟ وفيم كان حرقكم الإسكندرية؟".

فقال عزيز: "إن حرقها لم يكن إلا جرياً على مقتضيات القوانين الحربية القاضية بإتلاف ما يتحقق قرب وقوعه في يد العدو".

فقال الباشا: "ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً. وحينئذٍ تتأكد صدق مقالي. والآن ما الذي اعتزمت أن تفعله؟".

قـــال: "ســـأعود مع الوفد العرابي إلى كفر الدوار، ومن هناك أغتنم

الفرصة لأرجع إلى القاهرة".

فقال الباشا: "يلوح لي أن العرابيين طالما أصروا على الدفاع ومخالفة أوامر الخديوي فالحرب لا تنتهي إلا بعد زمن طويل، فتطول إقامتك بكفر الدوار أو في غيرها من النقط الحربية. أما أنا فلست آمن الخطر في مرافقة الحزب العسكري ولا سيما بعد أن أبعدوني من القاهرة، ولهذا تراني قلقاً على أهلي في مصر، وأخشى أن ينال فدوى ووالدتها سوء وأنا بعيد عنهما".

فقال عزيز: "أما خوفك على أهلك فلا أخالفك فيه، وإذا شئت فإني أسعى في سرعة انتقالي إلى القاهرة، ومتى صرت هناك أتعهد لك بالمحافظة على راحتهن ما استطعت، غير أني أخشى ألا يثقن بي لعدم علمهن بموافقتك عليه ورغبتك فيه".

فقال الباشا: "إني أعطيك كتاباً مني".

وفي صباح الغد سلمه كتاباً منه إلى امرأته قال فيه:

"بعد السلام. قد اضطرني بقائي في الإسكندرية وتعذر حضوري الآن إلى القاهرة وما أخشاه عليك وعلى ابنتنا فدوى إذا لا سمح الله حدث حادث في القاهرة أن أسأل ولدي عزيز أفندي أن يكون عندكم مشجعاً لكم وقائماً بمهامكم، لأنه من رجال الجيش، وهو من أخص أحبائي. وقد تبرع كرماً منه بالقيام بهذه المهمة. فينبغي أن تعتبريه كولدك واعتمدي عليه في كل مهمة ريثما أحضر. والسلام".

فتناول عزيز الكتاب، ثم ودع الباشا وخرج إلى حيث اجتمع برجال الوفد العرابي وعاد معهم إلى كفر الدوار، ثم إلى القاهرة.

★★★

ظلت فدوى أسبوعين تنتظر رد كتابها إلى والدة شفيق، فلما يئست من

وصـــول الرد استولى عليها القلق والحزن حتى لم تستطع طعاماً ولا شراباً فخارت قواها وهزل جسمها واكفهر لون وجهها الأبيض وكادت تغور عيـــناها في وجههـــا. ولم يكـــن لها مؤنس في خلوتها إلا البكاء. على أن خادمهـــا الأمـــين كـــان لا ينفك يعزيها ويخفف كربها بإحياء آمالها في المســـتقبل. فدخل غرفتها مرةً فإذا هي منكبة على البكاء. فدنا منها وقال يطيـــب خاطـــرها: "خففـــي عنك يا سيدتي، ولا تيأسي فالله الذي جمع قلبيكما قادر على أن يجمع بينكما، وقد تعاهدتما على حب طاهر مقدس تعززه الشهامة والشرف وتصونه عزة النفس وكرم الأخلاق فلن يخيب الله لكما أملاً".

وفيما هما في ذلك أتت خادمة تدعو فدوى إلى مقابلة والدتها فقال لها بخيـــت: "اغسلي وجهك يا سيدتي وأخفي اضطرابك لئلا تلحظ شيئاً منه سيدتي والدتك". فنهضت وهي لا تفتأ تائهة في أحزانها فغسلت وجهها، ثم شغلت نفسها بترتيب رياش غرفتها إلى أن يزول اضطرابها. ولكن الخادمة عـــادت تقـــول لها: "إن سيدتي والدتك قلقة لتأخرك". فمضت معها إلى والدتها في قاعة الاستقبال، فلما كادت تبلغ القاعة رأت ضابطاً من ضباط الجيش يهم بالخروج منها، فأجفلت لأنها كانت بثياب البيت وانزوت حياء إلى أن خرج، ثم دخلت القاعة فسألتها والدتها عن سبب تأخرها فقالت: "كنت مضطربة البال بسبب القلق على أبي لوجوده تحت رحمة الأخطار في الإسكندرية".

فطيبت خاطرها وقالت: "إن الإسكندرية الآن أكثر أمناً من كل أنحاء البلاد، وقد جاءنا رجل من أخصاء أبيك وأعز أصدقائه بكتاب منه وكل إليه فيه النظر في أمرنا مخافة أن تمتد نيران الحرب إلى هنا".

فـــأدركت فـــدوى أن ذلـــك الرجل هو الضابط الذي لمحته خارجاً فـــارتعدت فرائصها لكنها أخفت اضطرابها ولم تقل شيئاً فقالت والدتها: "يظهر لي أن هذا الشاب غيور همام فإنه جاءنا تواً قبل أن يذهب إلى بيته

ويغـــير أثوابه ويستريح من مشقة السفر، وإني لمغتبطة بمجيئه واهتمامه بنا لأنـــنا في حاجـــة إلى من يحمي ذمارنا أثناء هذه التقلبات السياسية، وهو ضابط في الجيش ففي استطاعته أن يقينا الأخطار بإذن الله. وقد أتانا أيضاً بكتاب من أبيك ينطوي على ثقته به وكفاءته للقيام بهذا الأمر".

ودفعت الكتاب إلى فدوى فتناولته وتلته إلى أن أتت على آخره ثم ردته إليهـــا صـــامتة، وقد تأثرت كثيراً. وأحست بانقباض شديد، فعادت إلى غرفتها حتى لا ينكشف أمرها لوالدتها. فلما شاهدها بخيت لحظ شيئاً من اضطرابها، فقصت عليه الحكاية. فقال: "إذا لم يكن للمرء زاجر من نفسه فماذا تفيد الإهانة والتعنيف، على أن هذا الغر قد سعى بنفسه إلى هلاكه، ســـواء عندنا أقرب منا أم بعد فلن يجرؤ على مخاطبتك أو رؤيتك، فدعيه وشأنه إلى أن يقضي الله بما يشاء".

فتأوهت فدوى من فؤاد مكلوم وقالت: "إن قلبي يحدثني بأن مجيء هذا النذل ينذر بخطر قريب". قالت ذلك وألقت رأسها بين يديها و لم تتمالك عن البكاء فألقت بنفسها إلى سريرها، وبقيت طول يومها مشغولة الفكر بهذا الحادث الجديد.

★★★

في صباح اليوم التالي جاءت دليلة إلى فدوى مستبشرة ضاحكة، فلما رأتها فدوى تشاءمت من رؤيتها وكرهت مخاطبتها، ولكن العجوز أقبلت عليها كأنها لم تبال نفورها منها وقالت: "أرى سيدتي لا تزال غاضبة علي وأنا لم آت إلا ما فيه خيرها و لم أقصد إلا ما أراده أبوها".

فقالت فدوى: "ما الذي تعنين بهذا القول؟".

قـــالت: "أعني الخاتم الذي رميته في وجهي منذ بضعة أيام، فستلبسينه الآن بيد من لا يسعك مخالفته!".

فنظرت فدوى إليها شزراً وقالت: "من يستطيع ذلك؟".

قـــالت: "إذا أذنت لي قصصت عليك الخبر. إن سيدي الباشا أباك قد سمح بخطبتك لمن أردت إلباسك خاتمه فامتنعت وانتهرتني".

فنفرت فدوى وقالت لها: "هل بلغ بك الأمر إلى أن تخاطبيني بمثل هذا؟ أقصري ولا تخرقي حرمة شيخوختك".

فقـــالت العجوز: "لا يصعب عليك سماعك كلامي يا سيدتي، فإني لم آت لأثـــير فيك ثائرة الغضب بل لأطلعك على حقيقة الأمر أني أقدر أن أعطف قلبك على ذلك الشاب الذي لا يريد من الدنيا إلا رضاك".

فقـــالت فـــدوى: "لا أريـــد أن أسمـــع مثل هذا الكلام، ولا هو من شؤونك".

قالت: "إني لا آتيك إلا بالخبر اليقين، وهذا كتاب يكشف لك حقيقة الأمـــر ويطلعك على طوية من تعلق قلبك بحبه ويريك الشراك التي نصبها لك فوقعت فيها لصفاء قلبك".

فاضطربت فدوى عند سماعها هذا الكلام وقالت: "ماذا؟.. ألا تقصرين عن معاودة مثل هذا الكلام؟". فقالت العجوز: "إني أتحمل إهانتك بالصبر لأنـــني كـــنت فـــتاة مثلك لا أنقاد إلا لما تصوره لي المخيلة، فخذي هذا الكتاب واقرئيه، وستعلمين بعدئذٍ صدق خدمتي لك".

فأخذت فدوى الكتاب وفضته ويداها ترتعشان فإذا فيه:

"حضرة السيدة فدوى

إن الموجب الأول لإرسال هذا الكتاب إليك هو عظم حبي لك، ولولا هذا الحب الذي بلغ في نفسي مبلغ الهيام، وما لقيته من إكرام أبيك الجليل القدر لأوقعتك في شر أعمالك، غير أن فؤادي المتيم بحبك لم يطاوعني على ذلك رغم أنك تماديت في الجفاء والنفور و لم تبالي ما أظهرته لك من اللين والملاطفة، وكلما سعيت إلى التقرب منك قابلت هذا بإهانتي وإذلالي، وأنا

لم أقترف ذنباً يوجب هذا. غير أني اطلعت على ما نصبه لك بعضهم من الشراك، فاعلمي يا حبيبتي أن الذي وهبته قلبك غلام غر لا يعرف له حسباً ولا نسباً ما خلا والديه، فهل يليق بك وأنت ابنة أصل كريم ومجد وسؤدد أن تسلمي زمامك إلى من لا يعرف جده ولا وطنه ولا هو من الناس في مقام يليق بك ويرضي أباك؟. إن من كان هذا أصله لن يعرف لك قدراً ولا يقدر لك مقاماً، ولولا ذلك ما أذاع أمرك بين الناس وجعلك مضغة في أفواه العامة. وما تزعمين أنه عاهدك عليه سراً تتداوله الألسنة في الفنادق والمقاهي، ولم يبق أحد لم يبلغه خبر قصر النزهة وحكاية الزر والدبوس. وقد كتمت كل ذلك عن أبيك صيانة لحرمتك فاعلمي الآن أنك قد صرت خطيبةً لي بأمر أبيك، فاذعني لهذا الأمر، ودعي الانقياد لذلك الغلام. وإذا حاولت الاستمرار في غرورك فأنت الجانية على نفسك، وما لا ترضينه طوعاً ستنقادين له كرهاً. والسلام.. محبك عزيز".

فما أتمت فدوى قراءة الكتاب حتى خارت قواها واكفهر لون وجهها، فالتفتت إلى دليلة وقالت لها: "لقد تمادى هذا الذميم تمادياً ليس وراءه حد ولا نهاية. وأراك متممة لمبادئه الخسيسة فاخرجي من هذا البيت ولا تعودي إليه أبداً". فخرجت دليلة وبقيت فدوى في حيرة مما قرأته من أمر الدبوس والزر، ثم أطلعت بخيتاً على الحكاية فقال لها: "لا تصدقي ما ذكره أو يذكره هذا الخائن، فإنه كاذب مخادع".

-٨-

اجتماع الحبيبين

بعد بضعة أيام عاد الباشا أبو فدوى إلى القاهرة، فسارع عزيز إلى زيارته، فبالغ هذا في كرمه وتبجيله، فلما بلغ فدوى ذلك خافت سوء العقبى.

وبعد يومين خلا الباشا إلى فدوى وفاتحها في أمر خطبتها لعزيز وأطنب

في مدح صفاته ومروءته وأنه قد نجاه من الموت في الإسكندرية، إلى أن قال لها: "وقد سبق مني القول له أن يكون لك بعلاً".

فقـــالت: "لا أقـــدر أن أرفض أمراً لأبي العزيز، إلا أنني أطلب إليك الإمهال في هذه المسألة".

فقال: "وما الفائدة من الإمهال وقد عرفت هذا الشاب معرفةً جيدة، وهو الذي أنقذني من الموت على يد أحد أصحابه، وفوق ذلك فهو رجل ذو ثروة واسعة".

فقالت: "إن البلاد الآن في خطر والأفكار مضطربة، فيحسن التريث في الأمر حتى تهدأ الأحوال".

قـــال: "إن ذلك لا يوجب الإمهال ولا بد من إتمام الأمر فالشاب ممن يليقون بنا".

فقالت: "ولكن..". وخنقتها العبرات ولم تستطع أن تتم عبارتها.

فـــبادرها قـــائلاً: "لا حاجة بنا إلى التردد، وقد قضي الأمر ووعدت الرجل".

فلم تستطع فدوى جواباً لشدة تأثرها واشتغالها بالبكاء. فغضب الباشا منها وانتهرها قائلاً: "ما معنى هذا البكاء؟ لعلك تريدين خداعي بدموعك فلا حاجة بنا إلى الإطالة فالغد موعد الاقتران".

فترامت على يدي أبيها تقبلهما وتقول: "ارحم يا أبتاه ابنتك المسكينة واسمـــح لهـــا بكلمة". فأحس بالحنو الوالدي فانعطف قلبه نحوها وقال: "تكـــلمي ما بدا لك". فقالت: "يا سيدي لا تظلم ابنتك ولا تحملها ما لا تطيق".

فقال: "ماذا؟.. هل تجرؤين على مخالفة قولي؟".

قالت: "ما عودتك أن أخالف لك أمراً، ولكن..".

فقاطعها وهو يتميز من الغضب قائلاً: "كفى لا تزيدي، أتظنين أني لم

أطلع على مكاتبتك لذلك الغر الشقي؟".

فقاطعته قائلةً: "مهلاً يا أبي ولا تظلم ابنتك، فالموت أقرب إلي من قبول هذا الأمر". قال: "لا يعنيني هذا ولا يهمني إلا أني وعدت ولا بد من إنجاز وعدي. هل فهمت؟".

فأوشكت فدوى أن تفقد صوابها من التأثر، لكنها تجلدت وقالت بصوت ضعيف ونغمة حزينة: "الموت أحب إلي من هذا".

فانتهرها قائلاً: "أهذه نتيجة التربية يا فدوى أن تعقي أباك وتخالفي أمره؟".

فقالت: "معاذ الله أن أعق أبي، وإنما أطلب إليك الإمهال ريثما تختبر من غشتك ظواهره".

فقال: "عبثاً تحاولين، فغداً ميقات الاقتران قبلت أم لم تقبلي".

ثم تركها وخرج لا يلوي على شيء، وأخذ يهتم بمعدات عقد القران. وبقيت فدوى تتقلب على نار الأسى وتندب سوء بختها، فتراءى لها أن تستنجد بوالدتها، فلما ذهبت إليها وأطلعتها على الأمر أجابتها قائلةً: "خير لك الانصياع إلى أمر أبيك فإنه لا يسعى إلا إلى خيرك، ولا ينبغي أن تخالفيه فأنت أقل خبرة منه، وهو لا يمكن أن يريد بك سوءاً". فعادت فدوى إلى غرفتها وقد عصر الأسى روحها وبقيت بياض النهار وسواد الليل تتقلب على مثل الجمر. فلما كان الصباح أعد الباشا معدات الفرح من مأكول ومشروب، وأعدت فدوى جرعة سامة أخفتها في ثيابها حتى إذا تحققت وقوع المقدور تجرعتها لتتخلص من حياة تسخر قلبها فيها لغير من تحبه وتهواه.

أما عزيز فأخذته هزة الطرب لما نال من الفوز، فدعا من استطاع من أصدقائه إلى الاحتفال، ولبس أفخر ما لديه من اللباس، متناسية حالة البلاد

التي كانت في خطر عظيم، فالجنود المصريون كانوا في التل الكبير يتوقعون هجـــوم الإنجـــليز عليهم، ولكنه ما كان يفكر إلا في نفسه. ولو ساعدته الأحوال لجاء بالمغنين والمغنيات. وما حان العصر حتى امتلأت القاعات في قصـــر الباشا بالمدعوين، فلما تأكدت فدوى الأمر نالها اليأس فخلت إلى نفســـها في غرفتها تندب حظها، وأرسلت تستقدم بخيتاً وأطلعته على ما اعتزمته من تجرع كأس الموت فقال لها: "كلا.. لا تفعلي هذا يا سيدتي ولا تبيعي حياتك رخيصةً، إن هذا الخائن لن يبلغ ما يريد وأنا حي أرزق، فلا بـــد لي من خطف روحه قبل أن يدركك بصره، وبعد ذلك سواء عندي أعشـــت أم مت لأني أكون قد قمت بما يجب علي وخلصت نفساً طاهرةً من العذاب والموت".

وكـــان بخيت قد أعد مسدساً ليطلقه على عزيز ثم على نفسه فيموت الاثنان فداءً لفدوى".

★★★

وفـــيما كان بيت الباشا غاصاً بالجماهير احتفالاً بعقد الزفاف، جاءه خـــادم يقـــول: "إن في الباب جاويشاً في يده كتاب لسعادتكم". فخرج الباشـــا وتناول الكتاب فإذا هو مكتوب بإيعاز عرابي باشا في قصر النيل يقول فيه: "إن امتلاك جنود العدو حصون التل الكبير يـــقضي على جميع أمراء العسكرية والملكية وأعيان البلاد بالحضور حالاً إلى سراي قصر النيل، للمباحـــثة في الاحـــتياطات اللازمة لمنع العدو من دخول مدينة القاهرة. فـــيجب حضـــوركم حالاً إلى السراي المشار إليها.. من قصر النيل يوم الأربعاء في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢".

فـــلما قرأ الباشا الكتاب تغير لون وجهه فأمر بإحضار العربة وركب، وركـــب معه من حضر من أعيان البلاد إلى قصر النيل. فلما وصلوا رأى الباشا قاعات القصر ملأى بالأمراء والأعيان وهم يتفاوضون فيما يتخذونه مـــن الاحتياطات لمنع العدو، وكثرت الآراء، وتعددت وتناقضت، فنهض

أحد الباشوات وكان من الذين لا يزالون محافظين على الولاء للخديوي فعنف العسكريين على عصيانهم وحرضهم على وجوب التماس العفو من مولاهم، ووافقه كثيرون ممن حضروا، فألفوا لجنة لتكتب عرضاً بطلب العفو فكتبته وأرسلته مع وفد خاص إلى الإسكندرية.

وبعد مسير الوفد من القاهرة أصر بعض الحاضرين على وجوب الدفاع وقرروا إنشاء خطوط دفاعية في ضواحي القاهرة، فذهب عرابي باشا لتنفيذ ذلك في العباسية. وكانت العاصمة حينذاك في اضطراب كبير خوفاً من حدوث ما حدث في الإسكندرية من حريق وخراب.

أما عزيز فلم يكن له هم إلا الظفر بفدوى، فلما أقبل المساء و لم يأت الباشا خاف أن يعرقل الانقلاب السياسي مساعيه ولا سيما إذا جاء شفيق إلى العاصمة ووقف على خيانته له فيعمل على الانتقام منه، فسولت له نفسه أن يأتي بزمرة من الرعاع ويتهدد فدوى ويختطفها غصباً، وهكذا فعل فلما وصل إلى باب غرفتها وهم بالدخول اعترضه بخيت، ولكنه نحاه بالقوة، وهجم مع رفاقه يريدون فتح الباب قهراً. فلما رآهم بخيت على هذه الحال أطلق الرصاص على عزيز فأصاب جنبه فسقط على الأرض، وعلت الضوضاء، وهجم من كانوا معه على بخيت بالعصي، فدافع عن نفسه حتى كاد يقع على الأرض. وكانت فدوى قد اضطربت لهذه الضوضاء وإطلاق الرصاص، فتناولت كأس الجرعة السامة ويداها ترتعشان وفرائصها ترتعد، ثم أخرجت تذكار شفيق وجعلت تقبله وتذرف العبرات قائلةً: "على الدنيا ومن فيها السلام، الوداع الوداع أيها الحبيب إذا كنت لا تزال من أهل الحياة، واللقاء اللقاء إذا كنت قد انتقلت إلى أهل البقاء". ثم لم تقو على الوقوف فألقت بنفسها على المقعد خائرة القوى، وسمعت ضجة أعقبها سكوت صوت رخيم ينادي: "ما هذا؟. أين فدوى؟. من هؤلاء يا بخيت؟. وكيف يجرؤون على انتهاك حرمة البيوت؟". فلما

سمعت فدوى هذا الكلام خافت افتضاح أمرها ورفعت الكأس إلى فيها فسمعت ذلك الصوت نفسه يقول: "أين فدوى. من يظلم هذا الملاك؟". فبهتت وأخذتها الدهشة لمشابهة هذا الصوت صوت من تحب، ورغبت في استطلاع الخبر قبل أن تتجرع السم، وتصورت أن حبيبها عاد إليها، ثم عاد الصوت مرةً أخرى يقول: "اذهبوا لا يبق منكم أحد". وبعد بضع ثوانٍ لم تعد تسمع صوتاً، ثم فتح البابُ ودخل ضابط إنجليزي فلما رأته اضطربت من جديد، ولكنه بادرها قائلاً بالعربية: "لا تخافي يا فدوى، أنا شفيق!".

وكانت لا تزال جالسة والجرعة السامة في يدها، فلما سمعت ذلك سقطت الجرعة من يدها وقالت: "شفيق؟. شفيق ما زال حياً؟". وسقطت على الأرض مغشياً عليها فرشها شفيق بالماء إلى أن أفاقت، وأجلسها على المتكأ، وهو يقول: "خففي من اضطرابك". فلما تأكدت أنه هو شفيق لم تتمالك أن صاحت قائلةً: "شفيق حبيبي شفيق، لقد رحم الله حياتي فأرسل إلي ملاكي الحارس". فأخذ شفيق يسكن روعها ويلاطفها إلى أن هدأ روعها وعاد إليها صوابها".

★★★

نهض شفيق ليرى ما تم لعزيز فإذا به يئن من ألم الجراح وقد هم بخيت بأن يقضي عليه، فمنعه وأمره بنقله إلى غرفة لمداواته فقالت فدوى: "أتريد إحياء خائن أراد بك سوءاً!". فقال تمهلي يا حبيبتي، فهذا الشاب كان من أصدقائي وهو الآن مطروح بين حي وميت فيجب علينا معاملته معاملة الجريح في الحرب".

ثم أمر بنقله إلى غرفة ثانية، وغسل جراحه وضمدها حتى أفاق، فلما رأى شفيقاً عند رأسه بكى وشعر بما أساء به إلى هذا الباسل، فهم بأن يلقي بنفسه على قدميه طالباً إليه المغفرة، فمنعه شفيق وطيب خاطره قائلاً: "لا بأس عليك يا عزيز، أنا أعلم أنها هفوة صدرت منك فلا أؤاخذك

عليها، فاضطجع ريثما تستريح وسأعود إليك". ثم تركه وعاد إلى فدوى.

وكان رجال الشرطة قد سمعوا صوت إطلاق الرصاص والضجة التي أعقبت ذلك، فجاء بعضهم إلى القصر، فشاهدوا شفيقاً يدخله في ملابسه العسكرية الإنجليزية، وكانوا قد سمعوا بدخول الإنجليز مدينة القاهرة في ذلك المساء، فظنوه فعل ذلك عمداً، ولم يستطيعوا كلاماً.

أما والدة فدوى فلما سمعت الضوضاء وإطلاق البارود اضطربت وخرجت فرأت الازدحام، ثم رأت ضابطاً إنجليزياً يدخل غرفة فدوى فخافت عليها ونادت الخدم أن يمنعوه فلم يجرؤ أحد منهم على ذلك، فظنت أن الإنجليز دخلوا القاهرة وجاءوا للقتل والنهب، فبقيت في قلق عظيم على ابنتها، إلى أن أتى الباشا فأطلعته على الخبر فصار ينتفض من الخوف والغضب ويفكر في مخرج ليخلص ابنته، وإذا ببخيت قد أتى إليه ودلائل الفرح والاستبشار بادية في وجهه وقال: "لم لا يدخل سيدي؟". فدخل الباشا غرفة ابنته فإذا بها جالسة إلى ذلك الضابط فاستاء منها لما كان يجب عليها من التحجب عن الغرباء خصوصاً أنه كان يعهد فيها المحافظة على تلك العادة، غير أنه لم يقو على إبداء ملاحظة في هذا الشأن فنسب ذلك إلى خوفها، فلما اقترب منهما وتفرس في وجه شفيق عرف أنه هو الذي نجاه من الموت في الإسكندرية، فسارع إلى تحيته وقال: "أهلاً وسهلاً، إني لا أنسى فضلك مدى العمر، ما هذا الاتفاق السعيد؟ ومتى جئت؟".

قال: "جئت هذا المساء مع الجيوش الإنجليزية".

فقال: "هل على المدينة من بأس منهم؟". قال: "لا، لأنهم دخلوها وأقاموا الحراس في كل جهاتها واحتلوا القلاع والحصون ولا يلبثون أن يقبضوا على عرابي. وها قد تمت نبوءة قائد الحملة الجنرال ولسلي بأنه يدخلها في ١٤ سبتمبر".

أما فدوى فدهشت لترحيب أبيها بشفيق ولكن أمارات الوجل كانت لا تزال على وجهها بعدما قاست من الأهوال والمفاجآت.

ولم يكن الباشا قد علم بسبب إصابة عزيز، وخيل إليه أنه أصيب خلال دفاعه عن فدوى ضد ذلك الضابط الجالس إليها، فأسف لما أصابه وأوجس خيفةً من ضياع الثروة التي أوشك أن ينالها، وهم باستطلاع الخبر فبادرته فدوى وكانت قد استردت روعها وقالت: "إن بخيتاً هو الذي ضربه يا أبي، ويا ليتها كانت القاضية!".

فعجب وسألها:"كيف كان ذلك؟". فقالت: "قبل أن أقص الخبر، أرجو أن تخبرني كيف عرفت هذا الضابط؟".

فقال الباشا: "إنه هو الذي أنقذنا من الموت في الإسكندرية أنا وعزيز".

قالت: "أتعرف أن اسمه شفيق؟".

فبهت إذ تذكر هذا الاسم، وقال: "لعله الذي خبرت عنه من عزيز؟".

قالت: "نعم، هذا هو الملاك الحارس الذي أنقذك من الموت مرة، وأنقذني منه مرتين، وأنقذ ذلك الخائن مراراً".

فخجل شفيق وقد أذهله لطف حديث فدوى حتى أوشك أن يغيب بسكرة الحب، فقالت له وهي ترمقه بنظرات ناطقة بأنها لا تخشى في حبه لوم اللائمين: "إذا ذكرت بسالتك فلا أكسبك رفعة لأن أعمالك المتجددة مع الأيام ناطقة بذلك، فلا تحسب شكري لك على ما أوليتني من الفضل ثناء عليك". ولم تدع له مجالاً للكلام بل وجهت الخطاب إلى أبيها وقالت: "أتلومني بعد هذا يا والدي إذا كنت...". وكادت تتلعثم فأتم أبوها عبارتها قائلاً: "إذا كنت تحبينه أليس كذلك؟". فخجلت ولكنها استأنفت الكلام فقالت: "لا أجهل يا أبت أن وجودي بالقرب منه ولو ملثمة محظور في عوائدنا غير أني لا أستحيي أن أقول بأنه يجب معاملة من كان كهذا الشهم وقد أنقذني من الموت مرتين معاملة أقرب الناس مني، فأعد مقابلتي له على

هذه الحالة كمقابلتي لأقرب أقربائي".

فنهض الباشا حينئذ إلى شفيق وقبله ومدحه، فكرر شفيق ما حضره من عبارات الشكر والامتنان لما أظهراه له. ثم أخذوا بأطراف الحديث عن عزيز وأعماله حتى انكشفت للكل سعايته ورداءة جوهره، فأسف الباشا على ثقته به قدر أسفه على فقد ثروته بهذا الحادث، ثم سأل الباشا شفيقاً عن أسرته فقال: "إن أبي اسمه إبراهيم وهو من مستخدمي قنصلية إنجلترا في القاهرة وقد قضى حتى الآن في خدمتها زهاء ١٨ سنة".

فدهش الباشا لذلك وخاف ألا يكون مسلماً فقال: "ومن أي الطوائف هو؟".

قال: "من الطائفة الإسلامية". فازداد الباشا دهشةً وقال: "أيكون مسلماً ويقضي في خدمة الحكومة الإنجليزية جل عمره؟". فقال شفيق: "إن لتقربه من قنصل إنجلترا فيما يلوح لي سراً حرص على إخفائه. فلم أعرفه!".

فقال الباشا: "أظن هذه البلاد ليست بلادكم؟".

فقال شفيق: "أعترف لك بجهلي الحقيقة في هذا، لكني أرجح أن أبي جاء من الشام".

فاستأنف الباشا الحديث لئلا يضايق شفيقاً وعاد إلى التكلم في أمر عزيز ولكنه أضمر أن يبحث عن حقيقة حسب شفيق ونسبه قبل إتمام أمر الاقتران. فقال الباشا: "إن خيانة هذا الرجل تستوجب القتل".

فقالت فدوى: "لا شك في ذلك، وإني أعجب كيف سعى شفيق إلى معالجته؟".

فقال شفيق: "ألم يكن هذا الشاب من أصدقائي بل رفيقي في المدرسة؟ فلا يليق بي أن أقابل جهله بالشر".

فقالت فدوى: "أيستحق هذا الخائن غير القتل وقد أبدى لك ما أبداه من الشر والعدوان؟".

قال شفيق: "أي فضل للعاقل على الجاهل إذا هو قابل الجهل بالجهل والشر بالشر، وما الانتقام إلاّ شأن الضعيف الساقط، وهذا المسكين قد نال ما جنت يداه فأصيب بما استحق ولو استحق الموت لكانت الضربة هي القاضية، ثم هو إلى ذلك جريح يقاسي من الآلام وتبكيت الضمير ما يكفيه جزاء".

فقالت: "لا تزال تسعى إلى الإبقاء عليه وشفائه وأنا لا أرى إلا الموت جزاءً له".

فقال: "الموت والحياة يا عزيزتي بيد الله، وما نحن إلا عبيد ضعفاء عرضة للغلط والتهور، وقد رأيت هذا الشاب يترامى على قدمي ليقبلهما وهو فيما علمت من ألم الجرح وقد أصيب من تبكيت الضمير بما يكفيه، ومع ذلك فالشهامة تأمر بالعفو عند المقدرة".

قالت: "ولكني أطلب إليك بحق المحبة ألا تبقي عليه، وإلا فليعالج جرحه في غير هذا البيت".

فقال شفيق مبتسماً: "إن أمرك يا سيدتي مطاع، ولكني أذكرك أمراً واحداً وهو أنني وقد صرت من رجال الجهادية عرضة للرصاص في الحروب وحياتي دائماً في خطر، فلو بلغك يوماً أنني أصبت برصاصة و لم ألق نصيراً ولا مواسياً، ماذا يكون حالك حينئذٍ وكيف يكون قلبك؟".

فارتعدت فرائص فدوى جزعاً من تصور إصابة شفيق. ثم مسحت دموعها وقالت: "إن هذا خائن لئيم أعيذك من التشبه به".

فقال: "إن البشر ضعفاء يا عزيزتي، ومن منا معصوم من الغلط، وقد قيل إن المستغفر لذنبه كمن لا ذنب له".

وكان الباشا يسمع تحاورهما وينظر إلى شفيق معجباً بكرم أخلاقه فقال: "لله درك يا ولدي ما أكبر نفسك وما أظهر دلائل الفضل عليك فافعل ما بدا لك لئلا يقال فقدت المروءة أهلها".

فقال: "عفواً يا سيدي، إني لم أقصد إلا إبداء رأي، ولسعادتك الأمر والنهي، غير أني أظن أنه يحسن بقاء عزيز هنا الآن تحت المعالجة".

فقال الباشا: "نعم الرأي رأيك يا ولدي فهيا بنا نخيره في البقاء هنا ريثما يشفى أو الذهاب إلى بيته".

فلما قابلاه أخفى وجهه بين يديه وقال: "عفواً عفواً أيها الصديق الكريم فضميري يبكتني لما اقترفته نحوك فذنبي عظيم يستحق الموت".

فقال شفيق: "لا بأس عليك ولا راد لما جرى به القدر، أما الآن فقد أتيت وسعادة الباشا نخيرك بين البقاء هنا أو الذهاب إلى بيتك".

فقال: "أريد أن تسمحا بنقلي إلى محل سكني". فأجاباه إلى ذلك، وعادا إلى غرفة فدوى حيث استأذن شفيق في الانصراف قائلاً: "إني آسف لعدم إمكاني البقاء الآن لأزداد شرفاً ومؤانسة برؤيتكم، إذ ربما يترتب على تغيبي عن الجيش وقتاً طويلاً سوء ظني بي، لأنهم لم يسمحوا بانخراطي في جندهم متطوعاً إلا بعد السعي الكثير فإني لست إنجليزي الأصل، إنما ساعدني كون أبي من موظفي الحكومة الإنجليزية هنا وله خدمات صادقة، فلا بد لي من أن أبرهن لهم على صدق خدمتي حتى يثقوا بي، وسأعود الآن إلى الآلاي ومتى استتبت الحال أصير قادراً على التشرف بالمثول بين يدي سعادة الباشا فألقي إليه ما يخالج ضميري من المحبة والاحترام لعلي أصادف ما آمله من محبته وكرمه".

فلحظ الباشا المراد من تقربه، وقد أحبه وسرته العلائق التي ربطت فدوى بحبه. أما فدوى فهان عليها أن تفارق حياتها ولا تقاسي بعاد الحبيب ثانيةً، لكنها لم تجد مجالاً لإظهار عواطفها أمام أبيها. فنظرت إلى شفيق

مستعطفة وقد تاه عقلها فتبادلا الخطاب بالألحاظ الناطقة التي يريدها الشاعر بقوله:

تشير لنا عما تقول بطرفها وأومي إليها باللحاظ فتفهم
حواجبنا تقضي الحوائج بيننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

ثم عاود شفيق الكلام فقال: "إنني في انتظار قدوم والدي فمتى قدما فإني أرجو أن تقوى علائق المودة المتبادلة بين الأسرتين".

فقال الباشا: "ومتى يحضران بمشيئة الله؟".

قال: "أرجو أن يكون ذلك قريباً، ولكن ربما تستبقي الحكومة والدي في لندن بعض الوقت".

ثم دنا شفيق من الباشا وودعه، ومد يده إلى فدوى فمدت يدها وهي ترتعش من عظم تأثرها فضغط عليها بلطف كأنه يقول لها: "عندي مثل ما عندك فلا تيأسي من حجي لك". ثم انصرف شفيق وبقي الباشا وابنته، فأثنى هذا على كرم شفيق وبسالته ولامها على كتمانها ما ربطها بشفيق من الحب الطاهر فاعتذرت له بأنها كانت تخاف ألا يوافقها، وبعد المذاكرة فيما كان من سفالة مبادئ عزيز وكيف آل أمره وفيما أبداه شفيق من كرم النفس وكيف ظهر فضله، نهض الباشا يريد الذهاب إلى المدينة ليرى ما جرى فيها بعد دخول الإنجليز، فوجد أنهم دخلوها بسلام.

ولما وصل شفيق إلى معسكره في العباسية وجد هناك عرابي وبعض رفقائه معتقلين في غرفة، وأخذ الجنود الإنجليز يلقون القبض على زعماء الثورة للمحاكمة، فحكم على سبعة منهم وفيهم أحمد عرابي زعيم الثورة بالإعدام، ثم أمر الخديوي بالعفو عنهم وإبعادهم إلى جزيرة سيلان، وبعد إبعادهم أخذت الأحوال في السكون رويداً رويداً. وكان شفيق ينتظر بعد محاكمة العرابيين واستقرار الأحوال أن يعود الإنجليز إلى بلادهم فيستعفي هو من العسكرية ويخلو له الجو فيقترن بحبيبته، غير أن أمله لم يتحقق لأن

الحكومـــة الإنجليزية قررت احتلال مصر إلى أجل غير معين، بدعوى أنها جاءت لإخماد الثورة وتأييد الأمن فلا تبرح البلاد حتى يستتب الأمن تماماً. فظل شفيق أثناء بقائه في القاهرة يتردد إلى بيت الباشا لمشاهدة فدوى، و لم يكن يهمل السؤال عن صحة عزيز.

★★★

كان والدا شفيق قد وردت عليهما كتب منه تنبئهما بأنه في مصر بخير وسلام، فسرا لذلك ولا سيما حين علما أنه ممن أنعم عليهم الجناب العالي بالنياشين والرتب وممن اختيروا للانتظام في خدمة الجيش المصري وتدريبه.

وبقيـــت والدة شفيق كاتمة عن زوجها أمر حب شفيق لفدوى، حتى أتاهـــا كـــتاب منه يخبرها برضاء والد فدوى عنه وأنه يميل إلى تزويجه بها ويطلب إليها أن تطلع أباه على حقيقة الخبر وتستطلع رأيه في ذلك، فبقيت تترقب الفرص حتى كانت ليلة من ليالي الصيف في لندن وبدا زوجها أقل انقباضـــاً مما هو عادةً، فجلست إليه وبدأت تجاذبه الحديث إلى أن قالت: "ألا تبرح مصراً على كتمان حكاية الشعر الذي في الصندوق؟".

فتأفف إبراهيم من هذا السؤال وقال: " أستحلفك بالله ألا تعيدي على مســـمعي ذكر ذلك الشعر، فقد قلت لك إنني لا أستطيع إطلاعك على شيء من أمره".

فضحكت سعدى وقالت: " أتظن أن لا أحد يحمل أسراراً إلا أنت؟.. إن لدي سراً لو أطلعتك عليه لزالت كل أكدارك وتبدلت أفراحاً".

قال: "وما هو يا ترى السر الذي يجلب الأفراح وتكتمينه؟".

قـــالت: "لا أستطيع أن أنقله لك قبل أن تسمح لي بفض الكتاب أو أطلعني على حكاية الشعر".

فقـــال: "إذا كـــان لديك نبأ سار فهاتيه، فقد كفانا ما كابدناه أثناء

البحث عن شفيق".

قالت: "لا أظن أنك أقل اهتماماً مني باختيار عروس لولدنا، فما رأيك في الابنة الغنية ألا تفضلها على الجميلة؟".

فقال: "إذا أردت رأيي فلا أريد عروسه إلا من ذوات قرباه".

فقالت: "أتقصد أقرباءك أم أقربائي؟". قال: "أقربائي". فرمقته بنظرة كلها دهشة وقالت: "قد مر علي في عشرتك أكثر من عشرين سنةً و لم تطلعني على شيء من أمر وطنك أو ذوي قرباك. فكتمانك عني هذا الأمر أشبه بكتمان أمر الصندوق".

فابتسم ساخراً وقال: "إن معرفة أحد السرين يترتب عليه معرفة الآخر".

فأرادت سعدى استطلاع السر وقالت: "إذا اختار ابنة من بنات مصر الغنيات ذات حسب ونسب وتهذيب أفلا تكون مسروراً؟".

فقال: "كلا بل أكون متكدراً ولو كانت الابنة من بنات الباشوات، لأني أفضل له ابنة من بنات أعمامي ولو كانت فقيرة".

فاضطربت سعدى لعلمها بشدة تعلق شفيق بفدوى، ولكنها لم تستطع مراجعة زوجها لئلا يفهم قصدها فسكتت مرتبكة. و لم تقدر أن تطلع شفيقاً على أفكار والده خوفاً من سوء عاقبة ذلك، فانتظرت ما يأتي به المقدور، وكتبت إلى شفيق تخبره بأنها لم تعلم أباه بأمره مع فدوى لأنها لم ترَ فرصة مناسبة لذلك، وستخبره في أول فرصة، أما مجيئهما إلى مصر فسيكون بعد حين لأن الحكومة الإنجليزية استبقت أباه لتستخدمه في بعض المهام المتعلقة بمصر لما تعلمه من خبرته بأحوالها. ثم أشارت على شفيق بألا يستعجل بأمر الزواج وأن يدع كل شيء ريثما يحضران.

وظن شفيق أن قدوم والديه إلى مصر يكون على أثر مجيء اللورد (دوفرين) موفداً من الحكومة الإنجليزية لدراسة الحالة، غير أن ذلك الظن لم

يـــتحقق. وكان شفيق قد وعد الباشا بأن يرسل إلى أبيه ليكتب إلى الباشا ليـــتم تعارفهما فلما جاء كتاب والدته خشي أن تطول المدة قبل إطلاع والده على الأمر، فلبث ينتظر ما يكون وهو على مثل الجمر.

وكذلك كانت فدوى تعد الساعات والأيام في انتظار قـــدوم والدي شـــفيق لأن وجودهمـــا يسهل أمر الاقتران ويضع حداً لكل المشاكل التي كانت تخافها ولا سيما دسائس عزيز، وكان هذا قد عزل من خدمة الجيش المصري مع من عزلوا بعد الحوادث العربية.

-٩-

حملة هيكس

في يوم من أيام شهر فبراير سنة ١٨٨٣ توجه شفيق إلى منـــزل الباشا وعلى وجهه أمارات الانقباض، فعلمت فدوى بمجيئه فبعثت إلى أبيها ليأتي بـــه إلى دار الحـــريم، فـــلما جاءها ورأت شفيقاً على تلك الحال بادرته بالســـؤال عـــن السبب، فتبسم يريد إخفاء اضطرابه وقال: ليس هناك ما يوجـــب الاضـــطراب يا عزيزتي، ورجال العسكرية كما تعرفين يجب ألا يضطربوا حتى من المسير إلى الحرب".

فقالت: "لعلك ذاهب إلى الحرب؟".

فقـــال: "نعم". فتلعثم لسانها والتفتت إلى أبيها وقد اغرورقت عيناها بالدموع قائلةً: "اسأله يا أبي عما يقصد بهذا فإني لا أستطيع كلاماً".

فابتسم شفيق ليهون الأمر عليها، وامتلأت عيناه بالدموع ثم قال: "إن أكبر فخر للجندي يا عزيزتي هو فخره بالانتصار في الحرب، فاسألي الله أن يكتب لنا هذا الفخر".

قالت: "وإلى أين؟". قال: "إلى الأقطار السودانية".

ولم تتمالك نفسها عن البكاء، فأخذ يخفف عنها ويهون عليها، ثم قال

له الباشا: "وما سبب هذه الحرب الآن؟".

قال: "لا يخفى على سعادتك أن الأقطار السودانية ما برحت منذ افتتحها المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية تحت كنف الحكومة المصرية ينتفع من تجارتها بالعاج والريش والصمغ وغير ذلك، فظهر فيها في أواسط سنة ١٨٨١ رجل نوبي يقال له محمد أحمد، وادعى أنه هو المهدي المنتظر فالتفت حوله عصابة قوية عرفوا بالدراويش وجاهروا بعصيان الحكومة، فحاولت قمع ثورتهم مراراً، فلم تفلح واستفحل أمرهم حتى استولوا على مديرية كردفان واحتلوا الأبيض عاصمتها، فشق ذلك على الحكومة المصرية واعتبرته الحكومة الإنجليزية أمراً مؤذناً باضطراب الأمن في البلاد، فانفتح لها باب لإطالة مدة بقاء جيشها في مصر، مع حق المشورة على الحكومة المصرية بما تتخذه من الاحتياطات، وقد أشارت بإرسال حملة مصرية لإنقاذ الأبيض بقيادة قائد إنجليزي اسمه هيكس باشا، فأعدت الحملة وستسير من هنا بعد يومين قاصدةً الخرطوم لتتحد هناك بحاميتها ويسير الجميع إلى إنقاذ الأبيض. ولما كنت من الضباط الإنجليز المنتظمين في خدمة الجيش المصري فقد دعيت لمرافقة تلك الحملة".

وما أتم شفيق كلامه حتى غلب على فدوى البكاء جزعاً على شفيق، فقال لها: "لا تجزعي يا فدوى فإني ذاهب لأداء واجبي وسأعود بإذن الله مكتسباً فخراً، وهذا يسرك طبعاً".

فقالت: "دع عنك هذا الفخر المحفوف بالأخطار".

فرمقها شفيق بنظرات المستهام، ثم وضع يده على قبضة سيفه وابتسم قائلاً: "إني لم أتقلد هذا السيف يا فدوى إلا لكي أنال شرفاً يجعلني جديراً بك".

فقالت: "إن لم تشفق على قلبي، فهلا رحمت قلب والدتك؟".

فاغرورقت عيناه بالدموع وقال: "أستحلفك بالله يا فدوى أن تدعي

هذا الكلام وأنا ذاهب إلى الحرب، ولندع عواطف الحب جانباً فإني أمرت بالسفر إلى الأبيض ولا يسعني مخالفة الأمر، على أنه لو وسعني ذلك ما فعلته محافظةً على شرفي لئلا يقال إني خفت الحرب والأعمار والأرزاق بيد الله".

فاعتمدت فدوى رأسها بإحدى يديها ومسحت دموعها باليد الأخرى، ولبث الجميع صامتين برهةً يفكرون، ثم قال الباشا: "إذا كان لا بد من سفرك فصبر جميل، والله المستعان".

فرفعت فدوى رأسها وقالت: "لا.. لا.. لا أظن أن قلبه يطاوعه على السفر".

فقال شفيق: "لو أردت مطاوعة قلبي يا عزيزتي ما كلفتك هذا العناء، وإنما الأمر أمر الشرف والشهامة اللذين أنا عبد رق لهما، والآن ما لنا وللخوض فيما لا فائدة لنا منه، فقد جئتكم مودعاً فليس لنا إلا الصبر الجميل والاتكال على الله".

ثم التفت إلى الباشا قائلاً: "أما وصيتي لك يا سيدي فالعناية بوالدي إذا جاءا إلى مصر أثناء غيابي، وما أحسب فدوى تحتاج إلى الوصية وإنما أطلب إليها أن تسمح لي برسمها حتى أستأنس به في سفري".

ثم مد يده إلى جيبه وأخرج رسمه وناولها إياه قائلاً: "وهذا رسمي يبقى عندك تذكاراً ريثما أعود إن شاء الله".

فأخذت فدوى رسمه بعد أن استأذنت أباها وهي تبكي، ولم تستطع النهوض حتى تأتيه برسمها إلا بعد العناء فسارت وركبتاها ترتجفان ثم عادت فناولته رسمها فتأمله وإذا هو رسم فوتوغرافي كثير الشبه بها يمثلها جالسة على كرسي ملثمة باللثام التركي كأنها تمعن النظر في شيء في يدها، فتأمله فإذا هو الزر الذي أعطاها إياه تذكاراً. وبعد أن تأمل الرسم مدةً وضعه في جيبه وكان يريد تقبيله فمنعه الحياء، أما هي فكانت تنظر إلى

الرسم ولا تتمالك عن البكاء.

ثم نهض شفيق وقبل يد الباشا فقبله وعيناه تدمعان، ثم مد يده إلى فدوى وضغط على يدها قائلاً: "أرجو أنك لا تنسين شفيقاً". فخنقتها العبرات و لم تستطع جواباً.

وخرج تاركاً إياها في حالة يرثى لها من القلق والاضطراب.

★★★

سار شفيق إلى معسكره فرأى هيكس وأركان حربه على أهبة المسير، فأعد ما يحتاج إليه، وكتب إلى أبيه في لندن يخبره بما هو فيه، كما كتب إلى والدته يلح عليها في أن تستطلع رأي أبيه في أمر فدوى.

وفي اليوم التالي سافرت الحملة عن طريق السويس في البحر الأحمر إلى سواكن، ومن هناك سارت في الصحراء حتى مدينة بربر على النيل، لتستقل السفن إلى الخرطوم حيث تسير مع حاميتها إلى الأبيض.

أما ما كان من أمر والدي شفيق فإنهما لما جاءهما كتابه بسفره مع حملة هيكس اضطرب بالهما، وأوقف أبوه سعيه في سرعة المجيء إلى القاهرة، وما زال كذلك حتى دخل صيف سنة ١٨٨٣ فوردت الأخبار بظهور الكوليرا في مصر. وكانت أخبار هيكس تصل إلى لندن في حينها فعلما بوصوله إلى الخرطوم ثم استعداده للمسير لفتح الأبيض.

وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٣ جاءت برقية من هيكس قال فيها:

"نحن الآن على مسافة عشرين ميلاً من نواربي، وإني آسف لأننا لم نحفظ خط الرجعة، وقد علمت من علاء الدين باشا حكمدار السودان أن العرب سيقطعون عنا الذخيرة والزاد ويحدقون بنا من كل ناحية بعد أن يوغل جيشنا في البلاد، هذا إلى أن برك الماء ستجف فلا يمكننا الاستقاء إلا بحفر الآبار .. صحة العساكر جيدة والحر شديد".

ثم انقطعت أخبار هيكس وحملته منذ ذلك الحين فخاف الناس خوفاً

عظيماً، وكان أكثرهم وجلاً والدا شفيق في لندن وفدوى في مصر، وأخذ الناس يقولون في مصير تلك الحملة أقوالاً متضاربة نقلاً عن ألسنة العرب القادمين من تلك الأنحاء، حتى ثبت أخيراً أن تلك الحملة ذهبت بمن فيها من الرجال عطشاً وقتلاً بين العربة والأبيض ولم ينج منها أحد، فأصبح الكدر مستولياً على جميع الناس ولا سيما على قلب والدي شفيق اللذين لا يزالان في لندن. ولما مضت سنة ١٨٨٣ ولم يرد خبر عن شفيق شقا عليه الجيوب ولبسا أثواب الحداد ولم يعد أبوه يخرج من البيت ولا يخاطب أحداً واستولت عليه السويداء حتى لم يعد أحد يستطيع مخاطبته حتى ولا امرأته.

أما فدوى فإنها بعد أن علمت بنكبة هيكس وحملته أصبح النور في عينيها ظلاماً، ولم تعد تستطيع طعاماً، وأخذ جسمها في النحول وجمالها في الذبول، وتكدر لذلك أبواها لكنهما كانا يعزيانها من وقت إلى آخر بأن الأخبار الصحيحة لم ترد بعد. ولكنها لم تكن تصغي إلى قول أحد، وأخذت تقضي النهار واضعةً رسم شفيق أمامها والعبرات تتساقط من عينيها، حتى أصبحت جلداً على عظم ووصف لها الأطباء السفر إلى خارج مصر ترويحاً للنفس ولكنها لم تشأ الخروج من حجرتها لئلا يمنعها ذلك من البكاء والنحيب، ولكنهم ما زالوا بها حتى أجبروها على الخروج من القاهرة وذهبوا بها إلى الريف، فلم يجدها ذلك نفعاً.

وأما عزيز فكان قد شفي وازداد حقداً على شفيق، ولما علم بما علم بحملة هيكس سر وابتهج وكان يود أن يبلغ فدوى ذلك شفاها تشفياً منها، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعلمه أن من في البيت عالمون بقصته. فاكتفى بأن أقام عليها الأرصاد والعيون ظناً منه أنها حالما تستيقن فقد شفيق يتغير قلبها وتسلوه مع الزمن، فلما رأى أنها لم تزل على حبه، لجأ إلى بعض أصدقائه ليفهموا أباها أن أحسن وسيلة لحفظ حياة ابنته هي أن تشغل عنه بغيره.

فلما علم بقرب سفر فدوى من القاهرة جاء إلى أبيها يسأله عن صحتها مظهراً الأسف الشديد على ما أصابها، وكان أبوها قد يئس من عودة شفيق واقتنع بأن الخير في حمل فدوى على نسيانه، فتلقاه مرحباً به.

وكان عزيز قبل ذلك قد أراد الشماتة بفدوى المسكينة فكتب رقعة قال فيها: "ذلك نتيجة كبريائك، فأين شفيق الآن؟ وهل رأيت في حبك له خيراً مما كنت تلاقين ممن نبذتهم فأصبحوا ولسان حالهم يقول:

"من عاش بعد عدوه يوماً فقد نال المنى"

وبعث بتلك الرقعة مع أحد جواسيسه ليوصلها إلى فدوى، فلم يستطع هذا غير رميها في أرض حجرتها، ولكنها وقعت في يد بخيت، فلما قرأها علم أنها من عزيز فاشتد غضبه وصمم على قتل ذلك الخائن، لكنه لم يستطع الخروج من البيت لاشتغاله بمرض فدوى.

★★★

وصل هيكس بحملته إلى بربر، ومن هناك ركبوا البواخر النيلية فوصلوا إلى الخرطوم في أول شهر مارس من تلك السنة. وكان شفيق قد اكتسب ثقة هيكس باشا ومحبته لما اتصف به من الشهامة لمعرفته اللغة العربية.

وخرج حكمدار الخرطوم لملاقاتهم وأنزلهم بقصر أعده لهم. والخرطوم عاصمة السودان ومقر حكومته وهي واقعة على الشاطئ الشرقي للنيل عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق. وهي أكبر مدن السودان. فلما كان اليوم التالي خرج شفيق لمشاهدة المدينة فإذا هي آهلة بالسكان وفيها ديوان الحكمدارية والمجلس المحلي ومستشفى ومخازن للذخيرة ومكاتب للتلغراف والتليفون ومتاجر بها أنواع البضائع الإفرنجية والسودانية. وفيها كذلك حدائق وبساتين كثيرة حافلة بأشجار الليمون والبرتقال والعنب والرمان والتين والقشطة والخوخ والتفاح، وكان مما أعجب به شفيق هناك مهارة صاغة المدينة في عمل الفناجين من الأسلاك.

وبعـــد مضي ثلاثة أسابيع وصلت إلى هيكس سرية من الجند المصري قادمة من القاهرة، ثم جاءته سرية أخرى معظم ضباطها من العرابيين.

ودخل شفيق يوماً على هيكس باشا في حجرته فوجده يكتب كتباً إلى لـــندن، فـــلما أتم هيكـــس الكـــتابة، بدأ الحديث فقال: "لا أرى هؤلاء الدراويش يستطيعون الثبات في منازلة جنودنا".

فقـــال شفيق: "حبذا ذلك يا سعادة الباشا، ولكني أرى أن جندنا لا يصلح لهذه المهمة!".

فقـــال هيكـــس: "ولماذا؟". قال: "لأن معظم ضباطنا كانوا في جيشٍ عرابي وهم لم يأتوا إلينا إلا مكرهين، لاعتقادهم أنهم سيقوا إلى هنا إبعاداً لهم عن الديار المصرية".

قـــال: "ولكنهم يؤكدون تفانيهم في الولاء للخديوي وخدمة مصلحة البلاد".

قال: "لا يغرنك ذلك، فإني سمعتهم يتحدثون بما ذكرته لك الآن، وهم يجاهـــرون بأفكارهم أمامي لأنهم لا يعرفون أنني أعرف اللغة العربية، فكن منهم على حذر".

فقال هيكس: "وما ظنك بالجنود السودانيين؟".

قـــال: "إن السودانيين إذا تدربوا على الجندية كانوا قوةً يخشى بأسها لأنهم صبورون على الأهوال ثابتون في مواقع القتال".

فوقـــع هـــذا الكلام لدى هيكس باشا موقع الاستحسان وازداد حباً لشـــفيق وتقريباً له. فأخذ يصطحبه حيثما ســـار ويستشيره في كثير من الأعمـــال. فكان ذلك مدعاة لسرور شفيق، آملاً في أن ينال بما يعقبه من الرتب والألقاب مرضاة حبيبته.

وبقي هيكس باشا في الخرطوم مكتفياً بإرسال بعض الجند لمقاتلة شراذم

العصـــاة في أمـــاكن مختلفة. إلى أن عقد النية على المسير لافتتاح كردفان واستخلاص الأبيض عاصمتها من قبضة المهدي وجنوده. فبعث الجواسيس يســـتطلعون أحوال العدو، ولكن أخبارهم جاءت مختلفةً متناقضة، فاحتار ولم يعلم أيها الصحيح. ثم أفضى إلى شفيق بما هو فيه من الحيرة والتردد، وقـــال له: "لا بد لنا من رجل نثق به كل الثقة ليستطلع لنا أحوال العدو، وإلا فإننا في خطر على حياتنا".

فأطرق شفيق هنيهةً ثم قال: "ما رأيك في أن أسير أنا في هذه المهمة؟".

قـــال: "إنك أقدر الناس على ذلك لمعرفتك العربية، ولاطلاعك على عوائد هذه البلاد. وإذا فعلت فإني أذكرك لدى نظارة الحربية فتنال مكافأةً عظيمةً، ولكن أخشى أن تلقي بنفسك إلى التهلكة بهذه المغامرة".

قال: "إني لم آت إلى هذه الديار إلا للقتال".

"ومن كانت منيته بأرض فليس يموت بأرضٍ سواها"

"وإنما أسألك أن تكتم أمر ذهابي عن كل أحد".

وكـــان شـــفيق قـــد تعلم لغـــة عـــرب السودان، وعرف كثيراً من عوائدهـــم فـــأزمع الذهاب متنكراً في زي المغاربة، فلبس جبة فوق قباء طويل، واعتم بعمامة بيضاء، واحتذى حذاء كحذاء المغاربة، وحمل السبحة بيـــده، وعلق الغليونَ بمنطقته. وجاء بجملين خفيفين أحدهما لركوبه وعليه رجـــل خفيف بكل من جانبيه قربة ماء. ثم تقلد سيفاً سودانياً واصطحب دليلاً كان في الخرطوم في مثل لباسه وحاله، وركب الاثنان وسارا جنوباً يـــريدان الأبيض بعد أن حمل شفيق جملاً آخر بأكياس فيها أنواع العطارة مـــتظاهراً بأنه تاجر مغربي يطوف البلاد للإتجار بها. ولم ينس رسم فدوى فجعلـــه في كيس وعلقه حول عنقه تحت ثيابه احتفاظاً به لأنه كان تعزيته الوحيدة في تلك الأنحاء.

وخرج شفيق من الخرطوم في أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٣ دون أن يعلم

أحـــد بذلك، وفي غد يوم خروجه سارت حملة هيكس تريد الدويم بقيادة هيكس باشا وعلاء الدين باشا حكمدار السودان، على أن يلتقوا بشفيق في جهة مواربي عند أول خور أبي حبل، وكان قد اتخذ طريقه بعيداً عن مجرى النيل، وكلما مر بحي من العرب في الصحراء بات عندهم وباعهم الطيوب وحادثهم في مختلف الشؤون.

-١٠-

المهدي والدراويش

وما زال شفيق سائراً ومعه دليله حتى صارا مقربةً من الأبيض فقال له الدليل: "لا يمكننا المسير بهذا الزي بعد الآن، إذ لا بد لنا من التنكر في زي الدراويش". وأشار عليه بإخفاء غليونه لأن التدخين به محظور على أتباع المهـــدي، فعمـــل شـــفيق بمشورته. ثم انطلقا حتى لقيا جماعة قادمين من الأبيض، فعلما منهم أن المهدي خارج بموكبه ليخطب في رجاله الذاهبين لملاقـــاة العدو. فأحب شفيق مشاهدة ذلك الموكب فوقف حتى جاء ذلك الموكب فانضم إليه، ولما كان العصر سمع نقر الدفوف من بعيد، وعلم أن هذا هو موسيقى الجيش المهدوي السائر إلى الدويم، وبعد قليل رأى أفواجاً مـــن الدراويـــش تسير مهرولة، ويتقدمها أربعة يحمل كل اثنين منهم آنية كـــبيرة مـــن النحاس شد عليها رق من الجلد، ومعهما ثالث ينقر عليها نقرات تقلق الأذن ولكن الدراويش يطربون لها. ووراء هذه الموسيقى خيالة عـــلى أفـــراس بسرج عربية، وعليهم لباس الدراويش المؤلف من جبة من نســـيج الســـودان يقال لها مرقعة لأنها مرقعة بقطع مختلفة الألوان، وعلى رؤوسهم عمائم بيضاء ملفوفة حول القش الأبيض أو القطن، تسترسل من كل منها ذؤابة طويلة تتدلى على الصدر، وحول أوساطهم مناطق من نسج الدمور أو القش يقال لها في لغتهم كربة. وهم حفاة، وقليل منهم يحتذون نعالاً تشدها على القدمين سيور من الجلد، وحول أعناقهم سبحات مدلاة

على صدورهم. أما أسلحة غالبيتهم فهي الرماح والحراب وسيوف مستطيلة ذات حدين أغمادها من الجلد الأصفر يعلقونها بأكتافهم ويحملون درقاً من جلد بقر النهر، وكبراؤهم يتقلدون خناجر معلقة بمناطقهم. وكان شفيق يسمع عن ملابس الدراويش فلم يعجب منها كثيراً، ثم رأى القوم قد حطوا رحالهم ونصبوا بيارقهم الحمراء والبيضاء والزرقاء، مكتوباً على بعضها بالعربية (لا إله إلا الله محمد رسول الله والإمام المهدي خليفة رسول الله). ثم تعالى النقر مرةً أخرى فاصطف الفرسان في ناحية والمشاة في أخرى، وكان هذا الجيش مؤلفاً من: الدراويش وهم سمر الوجوه، ومن الجنود حملة البنادق وفيهم السود والسمر وهم حامية الأبيض الأصليون، ثم من العبيد خدم الدراويش وهم يلبسون شمالات من قماش أصله أبيض من نسيج السودان يسترون بها عوراتهم وبعض صدورهم.

وعرف شفيق أمراء ذلك الجيش بخيولهم المطهمة وبما يحدق بهم من الخدم، وإن كان لباسهم لا يختلف كثيراً عن ملابس بقية الدراويش.

ثم صاح القوم جميعاً بصوت واحد قائلين: "في سبيل الله قتل الكفار". فخفق قلب شفيق وجلاً، وندم على تعريض نفسه للخطر، لكنه تجلد واندس في الصفوف منتظراً ما يكون، فرأى كل أمير قد وقف بجانبه قبيلته، ثم وقف أحد هؤلاء الأمراء على مرتفع هناك وفي يده كتاب، فضج الجمع، وصاح بعضهم قائلين: "اسمعوا ما يقول الخليفة محمد الشريف، إنه والله لأشبه بالإمام علي عليه السلام). فعلم شفيق أنه أحد خلفاء الخليفة الأربعة.

وكان محمد الشريف هذا مرتدياً لباس الدراويش، فلما سكنت الضجة نادى بأعلى صوته قائلاً: "الفاتحة أيها المسلمون". فقرأوا جميعاً الفاتحة بصوت مرتفع، ثم أنصتوا إليه ففتح ورقة كبيرة وقبلها ووضعها على رأسه ثم قال: "اعلموا أيها الأحباب أن هذا منشور من سيدنا الإمام المهدي صلوات الله عليه، وسأتلوه عليكم وهو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم، وبعد فهذا إعلام من عبد الله محمد المهدي ابن السيد عبد الله، إلى كل المشايخ والأمراء والنواب والمقادم والأتباع. يا عباد الله، اسمعوا ما أقوله لكم وكونوا على بصيرة، واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بها، وهي ظهورنا بينكم مما هو شرف لكم يرفعكم إلى سائر الأمم، والمطلوب منكم يا أحبابنا المهاجرة والمجاهدة في سبيل الله، مع الزهد في الدنيا فكل ما فيها إلى البوار، فجاهدوا في سبيل الله، فلهزة سيف مسلم في سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة، وعلى النساء الجهاد إذا كن قاعدات وقد انقطع منهن أرب الرجال، أما الشابات فليجاهدن نفوسهن وليسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، ولا يخرجن إلا لحاجة شرعية، ولا يتكلمن جهراً، ولا يسمعن الرجال أصواتهن إلا من وراء حجاب، وليقمن الصلاة ويطعن أزواجهن ويسترن ثيابهن، فمن قعدت كاشفة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً، ومن تكلمت بصوت عالٍ فتضرب سبعة وعشرين صوتاً، ومن تكلمت بفاحشة تضرب ثمانين سوطاً، ومن قال لأخيه يا كلب أو يا خنزير أو يا يهودي أو يا فاجر أو يا سارق أو يا زاني أو يا كفار أو يا نصراني إلخ، فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام، ومن تكلم مع أجنبية ليس بعاقد عليها في غير أمر شرعي، أو حلف بطلاق أو حرام يضرب سبعة وعشرين سوطاً، ومن شرب الدخان أو خزنه في فيه أو أنفه يؤدب بثمانين سوطاً ويحرق ما يوجد عنده منه، ومن باعه أو اشتراه ولم يستعمله يؤدب بسبعة وعشرين سوطاً، ومن شرب الخمر ولو مصة يؤدب بثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام، وكذلك من ساعد شارب الخمر بشربة ماء أو إناء، ومجاهدة النفس في طاعة الله حقيقة أشد من الجهاد بالرماح، لأن النفس أشد فتنة من الكافر، فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة

منه، وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومسلكها تعب، ومن ترك الصلاة عمداً فهو كافر بالله ورسوله ويجب قتله، وعلى الجار أن ينهى جاره عن إتيان المعصية، فإن لم يقدر عليه فليكلم أمير البلد، فإن لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام.

واعلموا أيها الأحباب أن خلافتكم وإمارتكم ونيابتكم عنا في الأحكام والقضايا لأجل أن تشفقوا على الخلق وتمدوهم في الدنيا، ويزوج الفتى بعشرة ريالات مجيدية أو أنقص، والعزبة بخمسة أو أنقص، ومن خالف هذا، فعليه الأدب بالضرب والحبس بالسجن حتى يتوب أو يموت في سجنه. ويكون مقطوعاً من أهل زمرتنا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام).

★★★

ما أتم محمد الشريف قراءة منشور المهدي حتى ضج الجماهير بالدعاء، فقال شفيق في نفسه: "والله إنها لتعاليم حسنة لا يأتي المتمدنون بأحسن منها". ولكنه شعر بخطر موقفه فصارت ركبتاه ترتجفان وأخذ يدبر وسيلة يتخلص بها إذا انكشف أمره ثم جعل يفكر في قيام المتمهّدي وما تأتّى له من الفوز، وفيما هو في ذلك رأى الناس في جلبة واختلاط، ثم علم أنهم يستعدون لملاقاة المتمهّدي وهم يتطلعون إلى جهة الأبيض، فنظر وإذا بالموكب قادم والمتمهّدي في لباس الدراويش على جواد أصيل يحدق به الخليفتان: التعايشي، وولد الحلو. ووراءهم جماعة من الفرسان في لباس الدراويش غير أن مراقعهم أقصر لا تتجاوز ركبهم ويكاد يظهر من تحتها أسفل سراويلهم وعلم بعد ذلك أنهم جماعة الملازمين أي خدم المتمهّدي وكانوا سائرين وراء الخلفاء مطرقين احتراماً ووقاراً وبينهم العلم الخاص بالمتمهّدي.

فلما وصل الموكب ترجل المتمهّدي، وترجل كل من معه، ومشوا إلى مرتفع هناك ثم تنحوا جميعاً إلا المتمهّدي فجيء إليه بفروٍ من جلد فرش

أمامه فوقف للصلاة ووقف الجميع صفوفاً خلفه وبينهم شفيق، وقد زاد اضطرابه لما شاهده من سعة نفوذ المتمهّدي، وخيل إليه أنه لا يلبث أن يكشف أمره فيقتل في الحال.

وبعد انقضاء الصلاة وقف المتمهّدي فخطب في الأمراء موصياً إياهم بالثبات، وحول عنقه سبحة من خشب البقس مدلاة على صدره، ولم يكن في ملابسه ما يميزه عن سائر الدراويش إلا كونها أكثر إتقاناً وأغلى قيمة. فأخذ شفيق يتأمل في هيئة هذا الرجل الذي أقلق دول أوربا وألقى في مجالسها الشقاق، فإذا هو طويل القامة، خفيف العضل، كبير العينين، حسن الملامح كسائر الدنقلاويين أبناء وطنه، وآنس في وجهه مهابة ولطفاً. ولفت انتباهه الخال الأسود على خط المتمهّدي، فتذكر ما كتبه إلى السنوسي من أن ذلك الخال هو علامة المهدوية، وكان الحاضرون جميعاً يقفون مطرقين صامتين وكلهم آذان لسماع الخطبة وقد جاء فيها:

"أيها الأحباب من المقدمين والمشايخ والنواب والأنصار، اعلموا أن الله لو شاء سبحانه وتعالى أن يبيد أهل الكفر ويستأصل شأفتهم من غير قتال لفعل، كما ورد في الكتاب العزيز قوله تعالى: (ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوكم بعضكم ببعض). وقوله: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين). فصار لا محيد للخلق عن امتثال هذه الحكمة، فها إنكم مرسلون لقتال الكفرة القادمين إلينا من جهات الخرطوم، فعليكم أن تكونوا أهل حزم، وتشددوا العزائم والنيات، وتسيروا بالهمم العاليات في نصرة دين الله، وأن تبذلوا نفوسكم وأموالكم في سبيل الله كما عاهدتم الله ورسوله وبايعتمونا على ذلك، ولا يحصل منكم أدنى فتور ولا توان عما أنتم بصدده، وضيقوا عليهم أشد التضييق (فعسى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين). أنتم على كلا الحالين من الفائزين، فخوضوا الغمرات شوقاً إلى الله، وإلى جنة قصورها

عالية وأنوارها زاهية وأنهارها جارية وقطوفها دانية".

ولما أتم المتمهّدي خطابه ضج القوم بالتهليل والتكبير، ثم ركب مع حاشيته وعادوا إلى الأبيض، فتراكض الدراويش إلى موطئ قدميه يمسحون وجوههم وأعناقهم بالتراب الذي وطئه ويعفرون رؤوسهم به، وكان قد عهد في قيادة تلك الحملة إلى الأمير عبد الحليم، وأبي جرجة، ويبلغ عدد جنودها ثلاثة آلاف. ثم سارت الحملة إلى الدويم، وشفيق معها وقلبه يخفق بشدة مخافة انكشاف أمره.

-١١-

أسير المتمهدي

أخذ شفيق بعد أن دخل الدويم يطوف بها مستطلعاً أحوالها، فوجد منازلها مبنية بالآجر طبقة واحدة، وليست من طراز واحد، وشاهد بينها مساكن مصنوعة من القش يقال لها (تكول) يسكنها من لا قدرة لهم على البناء بالطين. ثم وصل إلى ديوان الحكومة فإذا هو مبني بالآجر وفي وسطه فضاء يقيمون به الصلاة، ولم يشاهد في الأسواق من أرباب الصناعة غير الحدادين والصاغة، لأن أكثر الأهلين يتعيشون بالتجارة في ريش النعام والصمغ والتمر الهندي وسن الفيل وهم جميعاً يشربون من آبار عميقة يبلغ عمق بعضها ١٧ قامة.

وكان شفيق قد أرسل دليله ليبحث عن منزل يبيتان فيه، فعاد الدليل مصحوباً بزمرة من الدراويش، وما وقعت أعينهم على شفيق حتى قبضوا عليه وأوثقوه وساروا به إلى ديوان الحكمدارية حيث جلس المتمهّدي، فلما بلغوا الديوان تصدى له بعض الأمراء وأخذوه إلى الخليفة، فلما رآه توسم في وجهه النباهة وعجب من جرأته فأحب أن يراه المتمهّدي نفسه، فأوقفه خارج قاعة المتمهّدي، حتى استأذن في إدخاله عليه، ثم أدخل القاعة فإذا المتمهّدي قد جلس فيها على عنقريب وبين يديه الأمراء جالسين الأربعاء

خافضي الرؤوس في احترام ووقار والسكوت مستول على تلك القاعة.

وكـــان شفيق قد أيقن بالهلاك وعلم أنه أسر بدسيسة من دليله، لكنه تجلد وأخذ يفكر في وسيلة للنجاة، فلما وصل إلى مجلس المتمهّدي وأوقفوه بين يديه، شعر بعظم هيبة ذلك الرجل وسطوته ولكنه تجرأ ووقف وهو لا يزال في لباس الدراويش ينتظر أمر المتمهّدي فخاطبه هذا قائلاً: "ما الذي جاء بك إلى هذه الديار؟".

فقال شفيق: "جئت بقضاء من الله سبحانه وتعالى".

قـــال: "ألا تعلم أننا لا نؤخذ بالدسائس وقد نصر الله دعوتنا ومنحنا الغلبة على القوم الكافرين؟".

فقال شفيق: "إن القدرة لله يهبها لمن يشاء من عباده".

فأعجب المتمهّدي جوابه وقال: "ولكن الله يقول: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة). فلم فعلت هذا بنفسك؟".

قال شفيق: "صدق الله العظيم، وهو سبحانه يقول أيضاً: (من آمن بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)..".

فقال المتمهّدي: "أتعلم أنك الآن في قبضة يدنا ولو أردنا قتلك لما كلفنا ذلك غير إشارة؟".

قال: "نعم أعلم ذلك، وأعلم أن الموت والحياة بيد الله".

فقـــال: "قد كنت عازماً على قتلك، ولكن أعجبني إيمانك، فهل أنت مؤمن بما دعانا الله تعالى إليه من المهدوية؟ أم أنت على ما أصحابك عليه من الكفر المبين؟".

قـــال: "إذا أذن لي يـــا مـــولاي، قلت: إن الكفر ليس من أوصاف الموحديـــن، ومـــا في أصـــحابي إلا كل موحد يؤمن بالله وبرسوله وبيوم الدين".

قال: "إنك تستحق القتل بمقتضى الشرع لأنك جاسوس جاء يستطلع أحوالنا، وقد جاء بك إلينا من نال أجره في الدنيا والآخرة، على أننا سنبقي عليك عسى أن تفيدنا بشيء".

قال: "لله الأمر يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير، ولو قدر الله قتلي ما أمسكت عنه فإن كل شيء بقضاء وقدر، وأنا لم أعمل إلا ما أستوجب من أجله الثناء لأني قمتُ بأمر مولاي كما قام رفيقي هذا (وأشار إلى دليله) بأمر مولاه. وقد قال الله في كتابه العزيز: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)..".

فقال المتمهّدي: "خذوه إلى السجن موثوقاً حتى نبت في أمره".

فقال شفيق: "حيا الله مولانا وبياه، إن الوثاق لا يزيد شيئاً في الحجر علي، لأني لو أطلقتم سبيلي ما استطعت العود وحدي، فاتركوني محلول الوثاق، لعلي أستطيع خدمةً لكم".

★★★

ازداد شفيق كرامةً في عيني المتمهّدي، فأمر بعض من في حضرته أن يذهب به إلى حجرة يبقى فيها تحت الحجر، فخرج شفيق ينفض غبار الموت عن وجهه وقعد يندب سوء حظه ويلعن ذلك الخائن الذي خانه وألقاه في هذا الضيق.

وذهبوا به إلى حجرة ينام فيها بعد أن جاءوه بالطعام فتناول بعضه، ثم تركوه في الحجرة وقد أظلمت الدنيا فجلس على الأرض وأفكاره تتقاذفه كخشبة تتقاذفها الأمواج، وأخذ يتأمل فيما مر به من الأخطار وما يزال يخشاه، وخطرت بباله فدوى فخفق قلبه وجلاً عليها لئلا تحزن على طول غيبته، واشتد به الشوق حتى بكى وأراد أن يخرج الصورة لمشاهدتها ولكنه أدرك أنه في ظلمة إذا أخرج يده فيها لم يكد يراها، فاكتفى بلمس الصورة وتقبيلها، وظل ليلته يبكي ويخاطب نفسه نادباً سوء حظه، طالباً إلى الله

تعالى أن يخفف حزن والديه وخطيبته.

وفيما هو في ذلك وقد مضى معظم الليل سمع وقع أقدام عند باب الحجرة وصوتاً منخفضاً يقول: "لا تخف يا أخي ولا تجزع". فاقشعر بدن شفيق وأسرع إلى إخفاء الصورة وقال: "من أنت؟". قال: "إني صديق لك فلا تخف". فأمل شفيق في ذلك خيراً فسكنت برهةً وإذا بذلك الرجل قد دخل بعد أن أشعل قطعة خشب ووضعها في منتصف الحجرة ليستضيء بها، فتأمله فإذا هو أسمر البشرة تدل ملامحه على أنه مصري الأصل ولكنه في لباس الدراويش، فأوجس شفيق خيفةً وظهر ذلك على وجهه فابتدره الرجل هامساً في أذنه قائلاً: "لا تخف يا أخي، إني لست درويشاً إلا في الظاهر و لم أتقلد هذه الملابس إلا مرغماً، فطب نفساً وعسى أن ينجيك الله على يدي".

فقال شفيق: "ومن أنت؟". قال: "كنت قبل سقوط الأبيض من مستخدمي الحكومة فيها فلما سقطت في قبضة المهدويين، و لم أر بداً من التظاهر بدعوتهم حفظاً لحياتي فأحبوني حتى دخلت في خدمتهم فاتخذني الأمير عبد الحليم كاتباً له، واسمي حسن". قال هذا وسارع إلى الخشبة المشتعلة"، فأطفأها وقال: "إن الظلام خير لنا لئلا يأتي إلينا أحد فيعود ذلك وبالاً علينا".

فقال شفيق: "قد سمعت اليوم أن الحملة سائرة بقيادة الأمير عبد الحليم فهل أنت ذاهب برفقته؟".

قال: "نعم سنسافر بعد غد إن شاء الله، ولكني لا أخفي عليك أني ذاهبٌ رغماً عني، إذ لا يسعني غير ذلك. والآن يجب أن أتخذ وسيلة أنقذك بها من الخطر، لأن المهدي لا بد أن يأمر بقتلك، فهو قلما يثق بغير الدراويش، وسأبذل الجهد في إنقاذك، ولا أريد أن أسألك عن أحوال حملة هيكس باشا لأننا قد عرفنا عنها كل شيء، إذ أن جواسيسنا منبثون في

سائر الأنحاء. وأرى أن نجعلك من الدراويش فتسير معهم حتى يقدر لنا الفرار والعودة إلى بلادنا، فإننا إن لم نفعل ذلك قتلنا لا محالة".

فلما سمع شفيق ذلك تحقق إخلاص الرجل فقال له: "إني فاعلٌ ما تأمرني به ولن أنسى فضلك، فماذا أفعل؟".

قال: "إن المهدي أمر الأمير عبد الحليم بأن يقتلك قبل مغادرته هذه المدينة، وسيدعوك غداً لأجل ذلك على أني سأفعل ما يجب علي كي أنقذك وأضمك إلى حملتنا فنسير معاً حتى يمن الله علينا بالفرج".

فتنهد شفيق وقال: "إن الموت لا يخيفني، ولكني أضن بحياتي لأجل من هم أحب إلي منها، وهل في هذه المدينة أحد غيرك من المصريين؟".

قال: "فيها كثيرون، جلهم من رجال الحامية الذين أصيبوا بمثل ما أصبت فانضموا إلى المهدويين، وفيها أيضاً رجل إفرنجي يقال له الأب بونومي كان راهب دير في جبل دلن من جبال نومبيا جنوبي كردفان، فلما حاصر أمراء المهدي ذلك الدير واستولوا عليه جيء به إلى هنا، وهو لا يزال تحت الحجر، وهناك غيره كثيرون".

فتأوه شفيق وكاد ييأس لكنه تجلد وقال في نفسه: "إن الرجل من احتمل المشاق والأخطار، ولله الأمر يفعل ما يشاء".

وبعد أن أمضيا وقتاً في الحديث، نهض حسن للعودة إلى المعسكر، وانصرف بعد أن أعطى شفيقاً ملابس ليرتديها تنكراً في زي الدراويش وهي المرقعة والعمامة والسبحة.

★★★

في صباح اليوم التالي قام الدراويش للصلاة، ثم جاء أحدهم يدعو شفيقاً إلى مقابلة الأمير عبد الحليم.

وكان حسن قد بكر بالذهاب إلى الأمير كعادته، وتظاهر بالاضطراب والقلق، فلما سأله الأمير عما به قال: "رأيت حلماً هذه الليلة أقلقني ولا

أعلم تفسيره". قال: "ما هو؟".

قال: "رأيت أيها الأمير كأني جالس في مجلسك فجاء إلى المجلس شيخ بملابس الدراويش كبير السن عظيم الهيبة واسع اللحية، ولما رأيناه سقطنا على وجوهنا فقال لك: (لا تخف يا عبد الحليم إني الشيخ البصير، و لم آت لأدعوكم إلى المهدوية، ولكني جئت رجلاً حل بينكم لعله ينفعكم). ولما قال ذلك رفعت وجهي لعلي أراه فشعرت كأن الشمس تلمع أمام عيني فلم أر شيئاً وللحال استيقظت مذعوراً".

فقال الأمير عبد الحليم: "كرم الله وجه الشيخ البصير، إنه جد مولانا الإمام المهدي، وكثيراً ما يتراءى له ويخاطبه، فلا تخف إنه حلم ليس فيه شر".

ثم نادى الأمير تابعاً له لإحضار شفيق، فلما حضر بين يديه، عجب لرؤيته في ملابس الدراويش وسأله: "ما هذا؟. وما الذي ألبسك هذه الثياب، ألا تعلم أنك قد دنستها لأنها لباس كرام الرجال الأتقياء؟".

فأشار شفيق بيده إلى السماء وقال: "إني لم ألبس هذه الثياب إلا بأمرٍ ممن لا بد من طاعته".

فقال الأمير: "ومن أمرك بذلك؟". قال: "قد رأيت يا سيدي حلماً سرني كثيراً، وذلك أني رأيت رجلاً عظيم الهيبة كبير السن عريض اللحية، جاءني وفي يده هذه الملابس وقال لي: "إنك لم تأت هذه الديار إلا لتكسب آخرتك وتصلح دنياك، فقم إلى دعوة الإمام المهدي خليفة رسول الله). ثم علمني آية وأوصاني أن أتلوها تكراراً وهي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله والإمام المهدي خليفة رسول الله). فحفظتها ولكني سألت الشيخ عن اسمه فلم يشأ أن ينبئني به واكتفى بأن قال: (إني مصدر الهدى والصلاح لكل المؤمنين). ثم رأيت كأن الشمس خارجة من باب الحجرة، ولما استيقظت رأيت هذه الملابس بجانبي، فآمنت بصحة

الرؤيا، وارتديتها ولبثت أكرر الشهادة السابق ذكرها حتى جاءني رسول الأمير فجئت معه".

فعجب الأمير عبد الحليم لذلك الاتفاق، واستنتج من اتفاق الحلمين أنهما صحيحان، وبعث إلى المهدي بذلك فقال: "إنه ممن اختارهم الله لدعوتنا فلا تقتلوه بل ولوه منصباً يليق بعلمه ومعارفه!".

فلما جاء الأمر إلى عبد الحليم بطلب ذلك سأل كاتبه حسناً أن يمتحن الرجل ويرى ما يصلح له، فامتحنه وأبلغ الأمير أنه يعرف الكتابة والرطانة باللسان الأجنبي فأمر أن يضم إلى كاتبه ويرافقه في الحملة.

وكان حسن هو الذي لقن شفيقاً أن يقول ما قاله للأمير عبد الحليم.

-١٢-

مصرع هيكس

انضم شفيق إلى معسكر الأمير عبد الحليم وهو بملابس الدراويش، وكان ذلك غاية ما يريد لأنه استأنس بحسن وتوسم فيه الخير.

وفي اليوم التالي سارت الحملة بجمالها وخيولها، وقد عجب شفيق لقلة انتظام ذلك الجيش، وكان مع كل درويش فروة خروف يستخدمها للجلوس والصلاة والرقاد. وما زالت الحملة سائرة حتى وصلت (أبو جوى)، وهناك التقوا بجيش هيكس باشا. وكان قد عسكر هناك ليجمع إليه بعض القبائل البدوية تعزيزاً له، ولا علم لهيكس ورجاله بشيء عن جيش الأمير عبد الحليم.

وحاول شفيق أن يفر إلى معسكر هيكس ولكنه لم يستطع ذلك لبعد المسافة. ثم أرسل الأمير عبد الحليم حسناً إلى المهدي مستأذناً في الحرب، فأمره بألا يفعل، بل يتبع الحملة في خور أبي حبل حتى بحيرة الرهد، وهناك تصل إليه الأوامر الأخيرة.

وكان هيكس بعد أن فارقه شفيق قد جاء الدويم وتفاوض مع زميله

عـــلاء الدين باشا في أي الطريقين يتخذان طريق خور أبي جبل؟ أم طريق بـــارا. فكان من رأي علاء الدين اتخاذ طريق الخور لأنها كثيرة المياه وإن كـــانت بعيـــدة المشقة. فسارت الحملة حتى جاء نورابي أول الخور في ٨ أكتوبر، ثم سارت الحملة من نورابي إلى جلبن هار في الخور أيضاً، ولكنهم عـــلموا هـــناك أن جنود المتمهّدي تتعقبهم فندموا على قطع خط الرجعة بينهم وبين الدويم، ولكنهم ما زالوا سائرين وأملهم في الحياة يقل يوماً بعد يـــوم، لأنهم رأوا أنفسهم محاطين بالعدو من كل ناحية. فضلاً عن وقوع الـــنفور بين القائدين هيكس وعلاء الدين وما زالوا بين حل وترحال حتى ألقوا عصا التسيار في بحيرة الرهد، فحطوا رحالهم وتحصنوا هناك، وأخذوا يتفاوضـــون في أمر الجهة التي يسيرون منها إلى الأبيض، لأن الخور هناك ينفصـــل إلى فـــرعين: أحدهما يتصل بمحلة البركة، والآخر يتصل بمحلة كشـــجيل. وهـــذه أقرب إلى الأبيض. فبقيت الحملة في رهد ستة أيام، وشـــاهدوا في اليوم الخامس بعض العربان على الضفة الأخرى من البحيرة فظن علاء الدين أنهم الرجال الذين جمعهم الشيخان اللذان أرسلهما لجمع الـــنجدة فشد منديلاً إلى عصا وجعل يلوح لهم بالمجيء، فلم يبالوا وملأوا قـــربهم ماء وعادوا من حيث أتوا، فبعث هيكس في أثرهم بعض الفرسان فعـــادوا وأخبروا بأنهم رأوا عدداً كبيراً من العدو معسكرين بين الشجر. وبعـــد ستة أيام سارت الحملة قاصدة البركة فوصلت إلى محل على ثمانية أميال من الوبا. ومن هناك بعث هيكس جاسوساً إلى الأبيض يستطلع قوة المتمهّدي. وفي اليوم التالي ساروا إلى الوبا، وفيها كثير من الماء فبقوا هناك حتى يرجع الجاسوس، وأرسلوا جاسوساً آخر يستطلع أحوال البركة، ولم يمـــض أربعة أيام حتى عاد الجاسوس من الأبيض ومعه كتاب من المهدي لقواد الحملة يدعوهم فيه إلى التسليم، وبعد قليل جاءهم الجاسوس الآخر وذكر أن العدو جاء قاصداً البركة لملاقاة جيش هيكس. فوقع هيكس في

حيرة وتشاور مع رجاله في أي السبل يسلكونها إلى الأبيض بحيث لا يلتقون بالدراويش في البركة، فأجمع الرأي على أن تكون طريقهم عبر كشجيل، على أن يأخذوا معهم ما يكفيهم من الماء يومين.

سارت حملة هيكس في اليوم الثالث من نوفمبر قاصدة كشجيل، وبعد مسيرة عشرة أميال في غابات موحشة وقفوا وقد وقع الرعب في قلوبهم خوفاً من أن يكونوا قد تاهوا عن الطريق، وكان الخبراء الذين معهم من الأسرى مكبلين بالقيود خوفاً من فرارهم، وفي اليوم التالي ساروا قاصدين غابة شيكان بين البركة وكشجيل.

وفي تلك الغابة كانت جنود أبو عنجر، أما المتمهّدي فكان قد علم باعتزام هيكس المسير إلى كشجيل، فسار لملاقاته في طريقه إلى شيكان ومعه الخلفاء الثلاثة، وابن النجومي وغيرهم. وشفيق لا يزال في جيش عبد الحليم الذي يتبع خطوات الحملة، وقد أيقن بأن فوزها لم يعد ممكناً لما علمه من استعداد المهديين، ولكنه كان ينتظر فرصة يستطيع فيها إفادة هيكس باشا بشيء، وقلبه يكاد ينفطر كلما تصور الخطر الذي أحدق بتلك الحملة المنكودة الحظ وفيها نحو ١١ ألفاً من الرجال، كأنما ساقتهم الأقدار ليكونوا طعاماً للوحوش في تلك البيداء.

فلما هيأ المتمهّدي جنده على هذه الطريقة، جمع أمراءه ليبلغهم الأوامر الأخيرة، وصلى بهم أولاً، ثم قرأوا الفاتحة، وبعد ذلك رفع يديه إلى السماء وأخذ يقرئهم الدعاء التالي:

"اللهم لا عيش إلا في دارك، ولا نعيم إلا في لقائك، ولا خير في غيرك، ولا نصر إلا من عندك، بك الحياة وبك الممات، وبك التقلبات، وإليك المصير". وكان الجميع يرددون ذلك الدعاء في خشوع. ثم استل المتمهّدي سيفه وقال: "الله أكبر لا تخافوا إن النصر لنا". ثم أصدر أمره بالهجوم على الحملة. وكانت قد وصلت إلى غابة شيكان بين البركة وكشجيل، فهجم

عـليها المختبـئون في تـلك الغابة، ثم هجم المتمهّدي برجاله من الجهة الأخـرى، وجاء عبد الحليم من الوراء، والتحم الفريقان يقتتلان بالسلاح الأبيـض. وأراد شفيق أن يسير إلى هيكس لعله يستطيع إغاثته فلم يدركه إلا مقـتولاً بسيف الخليفة محمد الشريف. وانتهى الأمر بإبادة الحملة عن آخرها ما عدا حوالي ثلاثمائة جندي، أخذهم الدراويش أسرى.

وكـان المتمهّدي وقواده في فرح لا مزيد عليه بعد هذا النصر، وشغل الدراويـش بالغـنائم، وطاف شفيق بالقتلى فإذا بالجثث متراكمة تلالاً والدمـاء جارية أنهاراً، ومر ببحثة هيكس فوجده قد صرع بحربة أصابته في صـدره، وشـاهد علاء الدين باشا في مثل ذلك، فكاد قلبه ينفطر لتلك المـناظر، لكـنه تجلد مخافة افتضاح أمره. وفيما هو في ذلك رأى الناس يهرولون إلى مكان المتمهّدي فسار في أثرهم، وإذا بالأسرى الذين قبضوا عـليهم قـد أوقفوا في بقعة من الأرض موثقين وعلى وجوههم علامات الشقاء والتعب والجوع والعطش، فسأل عما دعاهم إلى ذلك فقيل له إنهم سـلموا أنفسـهم وأحبوا مبايعة المهدي، فوقف شفيق ليسمع المبايعة فإذا بمحمد أحمد قد جيء له بالفرو فصلى بمن معه، ثم وقف أحد الخلفاء يلقن الأسرى سورة المبايعة وهم يرددونها بعده حانين رؤوسهم إجلالاً، وهي:

بسـم الله الـرحمن الرحيم، بايعنا الله ورسوله ومهديه، بعنا أرواحنا وأموالنا وعيالنا في سبيل الله، فلا نهرب من الجهاد، ولا نزني، ولا نسرق، ولا نشرب الخمر، ولا نعصيه في معروف".

وبعـد قليل أخذ الأمراء والمقدمون في إحضار الغنائم إلى ما بين يدي المـتمهّدي، فأمرهم بأن يأخذوا خمسها له، ويفرقوا ما بقي على الأمراء والمقدمـين حسـب المعتاد. وكان في تلك الحملة من الغنائم ما لا يحصى عدده من الثياب والدراهم. أما الأسلحة والمدافع فأخذت إلى بيت المال.

وبعـد الاستراحة عاد الجميع غانمين فائزين قاصدين الأبيض، وغادروا

جثث رجال الحملة المنكودي الحظ ملقاة على الرمال وبين الأشجار.

فلما وصل الجيش المنتصر إلى الأبيض أطلقت المدافع تحية لـــه، ودخل المدينة باحتفال عظيم.

★★★

مكث شفيق في الأبيض بعد ذلك حيناً وهو يترقب فرصة لعله يستطيع العودة إلى الخرطـــوم، ولكنه لم يكن يستطيع الفرار وحده لأنه لا يعرف الطريق فضلاً عن أنه لا يأمن غائلة أنصار المتمهّدي إذا كشفوا أمره. فلبث صابراً على مثل الجمر، وقلبه لا ينفك مشتغلاً بوالديه وحبيبته، ولا عزاء له إلا صـــورة فدوى يتأملها كلما خلا إلى نفسه ويطلق لدموعه العنان حتى يشـــفي غـــليله، ثم يعود إلى التفكير في وسيلة لنجاته من تلك الأصقاع والعودة إلى الديار المصرية، أو على الأقل في إرسال كتاب يبشر أهله ببقائه على قيد الحياة.

وكان حسن يجتمع به أحياناً فيتحادثان في شؤون كثيرة أخصها تدبير الوســـائل لـــلخروج من ذلك السجن فكان شفيق لا يظهر مللـه من تلك الحال خيفة أن ينسب إليه الجبن أو ضعف العزيمة.

وكـــان يـــترقب ورود جواسيس المتمهدي ليطلع منهم على حركات الحكومة المصرية ومقاصدها بعد انكسار حملة هيكس، فلم يكن يسمع إلا باتســـاع سلطة المتمهدي وانتشار نفوذه في الأقطار السودانية، فلم يمض بعـــض سنة ١٨٨٤ حتى أصبح معظم السودان على دعوته، وسلمت له مديريات: دارفور، وكوردفان، وبربر، وبحر الغزال، وغيرها. ولم يبق من الســـودان في حـــوزة الحكومة المصرية إلا بعض المدن التي فيها حاميتها كالخرطوم وسنار وكسلا وسواكن، وبعض المدن في خط الاستواء.

وأخيراً علم شفيق من أخبار الجواسيس أن الحكومة الإنجليزية أشارت إلى الحكومة المصرية بأن تخلي السودان، فيئس من العودة إلى مصر وأخذ

يـــندب سوء حظه ويأسف على ما ساقه إلى تلك الحالة وقد كان في غنى عنها.

وفي صـــباح يوم من أيام سنة ١٨٨٤ رأى في منامه فدوى وقد شفها الســـقام حتى أشرفت علي الموت، فاستيقظ مرتعباً وتناول صورتها وأخذ يقبـــلها ويـــبكي بكاء مراً حتى كاد يغمى عليه. على أنه لم يكن يستطيع التمادي في إظهار عواطفه خوفاً من انكشاف أمره.

وفـــيما هو في ذلك سمع وقع أقدام خارج الحجرة، فذعر وسارع إلى إخفاء الصورة وكظم ما به، ثم التفت إلى الباب فإذا بصديقه حسن قادماً إليه وعلى وجهه أمارات السرور، فاستبشر وسأله: "ما وراءك يا حسن؟".

قال: "أبشر بقرب الفرج يا عزيزي".

فقـــال شـــفيق: "من لنا بالفرج ونحن هنا، ودون الوصول إلينا خرط القتاد؟".

فقـــال حســـن: "ليـــس شيء على الله بعسير، وقد قررت الحكومة الإنجـــليزية إرســـال غـــوردون باشا إلى هذه الديار لإخماد الثورة وتلافي الأحوال وأنا واثق بأنه سيفوز بإذن الله".

فقال شفيق: "ومن قال لك ذلك؟".

قال: "أتظن المهدي غافلاً عن استطلاع أحوال عدوه، إن له في مصر نفسها جواسيس يبعثون إليه بالكتب والأخبار عن كل أحوال البلاد، وقد جاءنـــا أمـــس رسول بكتاب من أحد أعيان الصعيد ينبئ بعزم الحكومة الإنجليزية على إرسال غوردون باشا بلا جيش لتدبير هذه المسألة".

فقـــال شـــفيق: "كيـــف يمكن تلافي الأحوال وقد آمن بالمهدي أهل الســـودان كافة، وهو لا يقبل إلا أن يمنح كل مطالبه، وهي تقضي بزوال الســـلطة المصـــرية، بل الرجل طامع في عرش مصر بل في عرش الخلافة

بالأســـتانة. وإن شئت فقل إنه لا يقنع إلا بفتح العالم، ولا سيما بعد أن ســـاعدته المقادير وانتصر في وقائع عدة. ولا يخفى عليك أن ما حل بجيش هيكس المنكود الحظ لم يكن إلا تنشيطاً لمشروع هذا المتمهدي، لأنه صرح في منشوراته إلى أتباعه بأن من علامات المهدوية عدا الخال الذي على خده أن النصـــر يرافقه حيثما توجه، وأن علماً أبيض يتقدمه حيثما سار لجهاد، وقد رأيت أن جميع حروبه جاءت بنتائج أيدت دعواه، فإذا راجعت تاريخ ظهـــوره منذ كان فقيهاً يعلم الناس الصلاة والعبادة في جزيرة أبا حتى بلغ نفـــوذه هـــذا المبلغ وانتشرت سطوته في سائر أقطار السودان، رأيت أن المقادير كانت تساعده وتوفق مساعيه تأييداً لدعوته. فإذا كانت الحكومة لم تقدر على تلافي خطر المتمهدي عند أول دعوته في جزيرة أبا وهو وحيد ليـــس حوله إلا قليل من طلبة العلم، فكيف تستطيع ذلك الآن بعد ثبتت دعواه لدى أهل السودان أجمع؟".

فقال حسن: "لا أنكر استفحال أمر هذا الرجل لاستخفاف الحكومة المصـــرية بـــه أول الأمـــر حين ظهر بدعوته في جزيرة أبا، إذ بعثت إليه حكمداريـــة الخرطوم نفراً من العلماء يأتون به إليها فأهانهم، ثم بعثت إليه نفـــراً قليلاً من الجند فقتل معظمهم، وظلت الحكومة مستخفة به، بينما واصـــل هو نشر دعوته بين أهل السودان متظاهراً بأن قصده الوحيد نصر الإسلام، وإنقاذ المسلمين مما حاق بهم من الاستبداد لإهمالهم فروض دينهم. فكان هذا داعياً إلى التفاف العامة حوله حتى آل الأمر إلى ما ترى، ولكن لا يخفى عليك أن غوردون باشا لا يقل اعتباراً في عيون أهل السودان عن المهدي، لأنه حين تولى حكمدارية السودان أظهر من العدل والحنو والرأفة والـــلطف والدعة ما حببه إلى الناس، ولا سيما بعد أن ألغى في عهده بيع الرقيق، ولهذا أرجو أنه إذا جاء الآن لا يعجز عن تلافي مسألة المهدي بوجه من الوجوه".

فأطـــرق شفيق مفكراً وقال: "إن غوردون باشا حرر السودانيين من

الـــرق حقـــاً، ولكن أمر المهدي قد استفحل بعد أن بايعوه على الطاعة والجهاد. ورأوا من انتصاره في الحروب ما أيد دعوته، ولا تنس أنه استحوذ على عقول أكثر القواد السودانيين مثل: "ولد النجومي، وأبي عنجر، وأبي جرجه، فضلاً عن خلفائه: ولد الحلو، وعبد الله التعايشي، ومحمد الشريف، وقائده عثمان دقنا الذي أتى بالمعجزات في حروبه بالسودان الشرقي، وغير هـــؤلاء مـــن القـــواد العظام. على أني لأعجب غاية العجب من إرسال غوردون باشا وحده في هذه المهمة التي قصرت دون حلها الجيوش، وكان على الحكومة المصرية إذا أرادت قهر هذا الرجل أن ترسل إليه جيشاً منظماً مخلصاً لها كجيش هيكس باشا الذي كان معظمه من الجنود العرابيين".

فقال حسن: "ما أظن أن الحكومة المصرية تعجز عن ذلك، ولكنها لا تستطيع أن تفعل غير ما تشير به دولة إنجلترا، فإنها هي التي أشارت عليها بـــإخلاء الســـودان وإرجاع الحامية من الخرطوم وغيرها، ولما لم توافقها الـــوزارة المصرية أصرت على وجوب الإخلاء فاستعفت الوزارة الشريفية وخلفـــتها الوزارة النوبارية ووافقت على إخلاء السودان، فأنقذت إنجلترا غـــوردون باشا لكي يسترجع الحاميات ويعيد حكم السودان إلى ما كان عليه قبل أن يفتحه محمد علي باشا".

فقال شفيق: "هب كل ذلك صحيحاً، فما الذي يترتب عليه من النفع لـــنا، إذا كان غوردون آتياً لاسترجاع الحاميات فليس هنا حاميات نرجع معها!".

فقال حسن: "فلنتوكل على الله والله مع المتوكلين". ثم عاد حسن إلى بيته، وعاد شفيق إلى هواجسه.

ثم انتبه بغتةً والتفت إلى ما هو حوله قائلاً: "ما لي ولهذه الهواجس، إنني هـــنا في بـــلاد الحرب والقتال، ولا بد لي من الصبر والجلد والحزم شأن الرجال".

وألقى بنفسه على العنقريب لعل النوم يخفف ما ألم به من التعب بسبب تلك الهواجس.

وما لبث قليلاً حتى سمع نقرات الدفوف إشارةً إلى عرض الجند، فخرج بلباس الدراويش إلى ساحة العرض خارج المدينة، وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب ذلك، وفي الطريق لقيه حسن فسأله عن السبب فقال: "تمهل وستعلم كل شيء عما قليل". فخفق قلبه وخاف أن يكون في الأمر ما يخشى منه. وما إن انتهى العرض وعادت الجيوش إلى أماكنها حتى سار بجانب حسن، حتى بعدا من الجمع فقال له حسن: "ألم تشاهد الرجل الذي جاءنا اليوم محاطاً بالحراس". قال: "نعم ولعله أسير". قال: "لا... ولكنه رسول من غوردون باشا أرسله من الخرطوم".

فقال شفيق متلهفاً: "وهل جاء غوردون إلى الخرطوم؟ وماذا يريد بهذه الرسالة؟".

قال: "إنه بعث يؤكد للمهدي أنه جاء لإنقاذ المسلمين وفتح طريق الحج إلى بيت الله الحرام مظهراً رغبته في توطيد دعائم السلم، وطلب إلى المهدي أن يطلق سراح من في حوزته من الأسرى النصارى والمسلمين من رعايا الحكومة، على أن يعين في مقابل ذلك مديراً لكردفان".

فقال شفيق: "وهل تظن المهدي يجيبه إلى طلبه؟".

قال: "يا حبذا ذلك، لأننا نكون ممن يطلق سراحهم، ولكني لا أظنه يقبل بعد أن اتسع نطاق سطوته ونفوذه، ولذلك رأيته قد أمر بعرض الجيش أمام الرسول ليبين له قوته".

فقال شفيق: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وماذا ترى؟".

قال: "أرى أنه لم يكن من حسن السياسة إرسال غوردون وحده من أقاصي الغرب إلى أواسط إفريقيا ليخمد ثورة المهدي التي جعلت السودان شعلة ثورة بلغ لهيبها أقاصي إفريقيا بل لقد مس شعاعها أقطار آسيا،

وسيرفض المهدي ذلك الطلب، ولا سيما بعد أن أيقن بالفوز واعتاد رجاله النصر والاستخفاف بالحكومة المصرية. وزد على ذلك أن السودانيين يكرهون الجنس التركي، وهم يرون كل من لبس الطربوش تركياً. وإذا تأملت فيما كتبه غوردون إلى المتمهدي فسترى أنه مما يزيده طمعاً في النصر والاستخفاف بعدوه، فهو قد أساء إلى الحكومة المصرية بقتل حامياتها وسلب حقوقها، ولكنها بدلاً من أن تقتص منه بعثت على لسان غوردون تكافئه بتوليته كوردفان!".

فقال شفيق: "لنصبر إلى الغد لعلنا نصيب خيراً بإذن الله والله مع الصابرين". ثم افترقا ومضى كل منهما لشأنه.

وأمضى شفيق ليلته مسهداً يدعو الله أن يجيب المهدي طلب غوردون لتتاح له العودة إلى مصر ورؤية فدوى. ثم لاح له أنه حتى لو رفض المتمهدي ذلك الطلب قد يستطيع إرسال كتاب إلى فدوى أو والديه مع رسول غوردون.

وفي الصباح توجه إلى حسن وسأله عما انتهى إليه رأي المتهمدي في خطاب غوردون، فقال حسن: "لقد رفض كما توقعت وكتب إلى غوردون مؤكداً أنه لم يقم بجهاده رغبةً في الدنيا ولا ليتولى كوردفان أو غيرها، وأن النصر مقدور له لأن النبي ﷺ بشره بسقوط كل من يناوئه. ثم طلب من غوردون نفسه أن يؤمن بدعوته وينتظم في سلك الدراويش، وبعث إليه مع الرسول صرةً بها جميع ما يحتاج إليه الدرويش من الملابس!".

فقال شفيق: "ومتى يسافر الرسول؟". قال: "يسافر في صباح الغد".

فتساقطت عبرات شفيق على الرغم منه وسكت، فابتدره حسن سائلاً عما أبكاه، فقال: "تذكرت والدي اللذين ربياني بدموعهما وضحيا بكل شيء من أجلي، وهما الآن على وشك يحسباني في عالم الأموات وقد لبسا علي الحداد".

فقال حسن: "إننا جميعاً في مثل هذا المصاب يا أخي، وهذا قضاء الله".

فتنهد شفيق وقال: "إن بقائي هنا دون علم والدي يقضي عليهما لا محالة، فأنا وحيدهما وقد علقا آمالهما بي، وكنت إذا غبت عن البيت ساعة قلقا لغيابي، فكيف يكون حالهما وقد جئت إلى هذه الديار مع حملة علماً بأنها بادت عن آخرها؟".

فقال حسن: "لعلك تريد أن تبعث مع رسول غوردون بكتاب إلى والديك؟".

قال: "حبذا ذلك". فقال: "هذا أمر عسير جداً، لأن الرسول محجور عليه ولا يباح لأحد أن يخاطبه في شيء، ولكن اكتب الخطاب فلعلي أجد وسيلة لإرساله مع من سيصحبون الرسول في عودته من رجال الأمير عبد الحليم. ولكن يجب عليك أن تختصر الكتاب ما أمكن، وتطويه بحيث يستطيع الرسول إخفاءه في ثنايا ثوبه أو نعله".

فشكره شفيق وجاء بورقة في حجم الكف وكتب فيها يقول:

"سيدي الوالدين. أكتب إليكما من الأبيض حيث قدر لي أن أكون في عداد الدراويش في أمن وسلام لولا البعد عنكم، ولا أدري متى يتاح لي الرجوع، فاصبرا حتى يأتي الله بالفرج، واكتبا إلي مع حامل كتابي هذا... شفيق".

ثم فكر في أمر فدوى وخجل أن يذكرها في كتابه، فلا يكون أبوه قد علم بأمره معها بعد، أو يكون غير راضٍ عن خطبتهما، أخيراً رأى أن يوجه الكلام عن فدوى إلى والدته تحت ذلك الكتاب حاشيةً قال فيها: "أرجو من والدتي أن تخبر فدوى بأني باقٍ على العهد، فإذا رأت سعادتها في البقاء عليه فبها نعمت، وإلا فهي في حلٍّ من أمرها، والأمر لله".

ثم طوى الكتاب ودفعه إلى حسن ليسلمه إلى الرسول، وأعطاه له عشرين ريالاً على أن ينقده ضعفها حينما يأتي بالجواب. وجعل العنوان

على قنصلية إنجلترا بالقاهرة، فإن لم يجد الرسول أباه هناك، سلم الكتاب لوالد فدوى في بيته".

فأخذ حسن الكتاب وسلمه إلى الرسول، ثم عاد وأخبر شفيقاً بذلك.

★★★

كان والدا شفيق قد اشتد بهما الحزن لفقده حتى كرها الإقامة بمصر، ولم تكن سعدى قد أطلعت زوجها على شيء من أمر فدوى، لكنها كانت تنتهز الفرص لمشاهدتها للاجتماع بها حيث تتشاكيان الأحزان.

وفي ليلة من ليالي سنة ١٨٨٤ كانت سعدى جالسة في غرفتها فدخل زوجها وبيده صحيفة (لسان الحال). وكان يطالع فيها وعلى وجهه بعض الانبساط مع ما كان فيه من شدة الحزن، فاستغربت سعدى ذلك منه، وتطلعت إليه متسائلة فابتدرها قائلاً: "لقد دنا الوقت الذي يباح لي فيه أن أطلعك على ذلك السر، بعد أن مات الأمير عبد القادر الجزائري ولم يعد علي رقيب".

فلم تفهم مراده وأصغت لسماع تتمة كلامه، فقال: "هاتي الكتاب الذي عهدت إليك في حفظه".

فسارعت إلى النهوض وتوجهت لإحضار ذلك الكتاب، ولكنها لم تجده حيث وضعته، وعبثاً حاولت البحث عنه، فعادت إلى زوجها قلقة مضطربة وقالت له: "لعلي وضعته في مكان لا أتذكره الآن. وسأواصل البحث عنه حتى أجده بإذن الله".

فاشتد غيظه لضياع الكتاب، وتركها ومضى إلى حجرتها قلقاً متكدراً، فلم تجرؤ على مخاطبته في شيء.

وفي الصباح التالي قال إبراهيم لزوجته: "إن المقام بهذه الديار لم يعد يحلو لي، ولا سيما بعد فقد ولدنا، وأرى أن نبيع أمتعتنا ونهاجر من مصر

إلى لبنان فنتخذ لنا مسكناً في قرية من قراه نقضي فيها بقية حياتنا".

فوافقته على ذلك، ولم تمض أيام حتى هاجرا إلى لبنان، وأبى خادمهما الأمين أحمد إلا أن يرافقهما ليكون عوناً لهما في السراء والضراء.

أما فدوى فظلت تزداد سقاماً يوماً بعد يوم حتى خاف أبوها عليها الهلاك، وكان كثير التعلق بها لأنها وحيدته ولما آنس فيها من الخلال الحميدة، فلما رأى ما ألم بها من النحول بسبب حبها لشفيق، عمل على أن ينسيها ذلك الحب وراح يتخذ كل وسيلة يراها مؤدية إلى ذلك. ومن هنا أصبح ميالاً إلى الاجتماع بعزيز والاستماع لمشورته في هذا الشأن.

فلما وصف لها الأطباء السفر إلى الشام لترويح النفس في ربى لبنان الجيدة الهواء، سارع إلى إجابة هذه الرغبة، معتقداً أن بعدها عن القاهرة ربما يعينها على السلوان، وعرض عليها الأمر فلم تمانع، فأعد عدة السفر، واصطحبها وبختياً وخادمين آخرين، تاركاً امرأته في البيت مع بقية الخدم، ثم ركبوا القطار إلى الإسماعيلية ليسيروا منها إلى بور سعيد ومن هناك يبحرون إلى بيروت.

وودعهم عزيز في المحطة وقد أضمر أن يقتفي أثرهم بعد حين إلى لبنان لعل المقادير تساعده في نيل مرامه.

وبعد مسيرة يومين بالباخرة في بحر الروم، وصلوا إلى ميناء بيروت، فأعجبهم موقعها عند سفح لبنان الشامخ الآكام، الذي لم يحل ارتفاعه الهائل دون اكتساء جباله المناطحة للسحاب بأنضر الأشجار.

واتفق وصولهم في يوم رق أديمه واعتل نسيمه، فلاحت لهم قمم ذلك الجبل القديم العهد مكسوة بالثلج الأبيض الناصع، وكانت كل رباه الخضراء قد غسلها المطر الذي لازمها أسبوعاً فأصبح منظره من أبهج ما يكون.

وأخذ الباشا بيد ابنته فدوى وأشار إلى تلك المناظر الطبيعية وقال لها:

"تأمـــلي يـــا عزيزتي هذه الآكام الممتدة على مدى النظر وسبحي الخالق العظيم الذي فجر الماء من أعلى قممها فاكتسبت خضرة بهيجة بين أشجار وأعشاب، تتخللها قرى صغيرة، كل قرية على أكمة أو في سفح أكمة، وبيوتها بيضاء متفرقة بين الزرع كأنها أحجار كريمة على ديباجة خضراء. وانظري إلى هذه المدينة الجميلة القائمة على مرتفعات لطيفة عند سفح هذا الجبل، إن أبنيتها الشاهقة مختلفة الألوان، وفي سقفها القرميدية الحمراء وما يحيط بها من الحدائق الخضراء ما يجعلها بهجة للناظرين".

وكان يقول ذلك وينظر إلى وجه فدوى ليرى ما يكون منها، فإذا هي ســـاكتة لا تـــبدي جواباً فظنها تتأمل جمال ذلك المنظر، ثم ركبوا عربة أوصلتهم إلى فندق بســـول على الشاطئ، فوجدوه حسن الموقع لا تنفك الأمواج تضرب أساســـه ليلاً ونهاراً، فهيأ صاحبـــه حجـــرة لنوم الباشا وابنـــته وأخـــرى لـــلخدم، فلما دخلت فدوى الغرفة استقبلت المرآة في صدرها، فارتاعت لما رأت نحولها فألقت بنفسها على السرير وهي تغالب الحزن والبكاء.

وبعد الاستحمام وتغيير الثياب وشرب المنعشات والاستراحة من وعثاء الســـفر، تناولوا الغداء، ثم خرج الباشا ملتفاً بقباء شتوي لمشاهدة غرف الفندق فقابله أحد خدمه وذهب به إلى غرفة الإستقبال المطلة على البحر، فأشعل سيجارة وجلس بجانب النافذة يسرح نظره في البحر الهادئ وصوت أمواجه.

أمـــا فدوى فلبثت في الحجرة ترتب الثياب، وفيما هي تقلب محتويات صـــندوقها عـــثرت بصورة شفيق فتناولتها وأخذت تتأمل فيها وتذرف الدمـــوع حـــتى بلـــلت ثيابها وخارت قواها فألقت بنفسها على السرير والصـــورة في يدها وهي لا تعلم فأخذتها سنة من النوم. وفيما هي كذلك عـــاد أبوها فلما رآها على تلك الحال علم أنها نامت باكية، ثم لاحت منه

الـــتفاتة إلى يدها فإذا فيها صورة شفيق، فانتزعها من يدها وهي لا تدري وأخفاها في مكان بالغرفة، ثم خرج عائداً إلى قاعة الاستقبال.

ولمـــا أفاقت فدوى افتقدت الرسم فلم تجده فأخذت تبحث عنه فلم تقف له على أثر، وفيما هي في ذلك دخل عليها أبوها، فلما أخبرته بفقدها رسم شفيق تظاهر بمشاركتها في البحث عنه، وأخذ يحاول إقناعها بأنه ربما سقط منها في البحر وهي غائبة عن صوابها.

وفهمـــت من كلامه أنه مغتبط لفقد ذلك الرسم فصبرت حتى خرج وبعثت إلى بخيت وأطلعته على الأمر فوعدها بأن يبحث عن الرسم ويأتي به ولو كان في لج البحار.

★★★

لاحظ صاحب الفندق أن الباشا يبدو قلقاً مهموماً، فجاء إليه وحياه، ثم أخـــذ يجاذبه أطراف الحديث لاستطلاع أمره إلى أن قال: "لعل الهانم لم تسر بنـــزولها بهذا الفندق لعدم وجود سيدات فيه".

فقال الباشا: "هذا صحيح، ولا سيما أن تقاليدنا لا تسمح لها بالظهور أمام الرجال كما يفعل الإفرنج ومن يقلدونهم".

فقال صاحب الفندق: "إذا أذنت سعادتك، فإن زوجتي تتشرف بمعرفة ابنتكم لعلها تأنس بها في وحدتها". فوافقه الباشا وشكره.

فخـــرج صـــاحب الفندق وأخبر زوجته بأن عنده سيدة مصرية تود الاســـتئناس بها، فلبست أحسن ما عندها من الثياب والحلي وسارت معه حـــتى دخلا على الباشا فاستقبلهما مطرقاً ولم يرفع إليها نظره جرياً على عادة بلاده، ثم عهد إلى بخيت في أن يسير بالسيدة إلى فدوى ويعرفها إليها لعـــلها تســـتأنس بمعاشرتها في وحدتها، وسار بخيت أمام زوجة صاحب الفـــندق حتى وصل إلى باب غرفة سيدته، فأوقفها خارجاً ودخل وحده ليســـتأذنها، فرآها متكئة مبهوتة لا تبدي حراكاً، فأخذ يلاطفها ويسري

عـــنها ثم قال لها: "إن زوجة صاحب الفندق بالباب، وقد جاءت لتحيتك فهل أدعوها إليك؟".

فقالت: "دعني يا بخيت، إني غير قادرة على لقاء أحد الآن".

فقال: "إنك يا مولاتي توقدين في قلبي ناراً تحرق حشاشتي بهذا الكلام، ولا أقـــول لـــك شـــيئاً الآن سوى أني مستعد لأن أبذل حياتي في سبيل مرضاتك، فانهضي غير مأمورة وأذني للسيدة في الدخول، فإن لم تؤانسي مـــنها تعزية فلا تعودي إلى مجالستها مرة أخرى، على أن أهل هذه المدينة كلهم يجيدون الحديث والمؤانسة لتعودهم لقاء الغرباء".

فقـــالت: "دعهـــا تدخل". ونهضت ترتب ثوبها وتنظم غرفتها، فلما دخـــلت المرأة قابلتها بوجه باش وأذنت لها في الجلوس. فبادأتها بالحديث قائلةً: "أهلاً وسهلاً بك يا حبيبتي، إنك شرفتنا بقدومك".

فأجابـــتها فـــدوى بمـــا عهد في أهل مصر من اللطف والدعة وحلو الحديث. ثم جرى الحديث بينهما في شؤون مختلفة، إلى أن تطرقتا إلى ذكر الملابس والحلي فنظرت زوجة صاحب الفندق إلى سوار من الذهب المرصع بالياقوت والماس كانت فدوى تتحلى به وقالت: "لعل هذا السوار من صنع أوربا، إنه في غاية الإتقان".

فقالت فدوى: "نعم هو من صنع أوربا، ثم نزعته من يدها وناولتها إياه قائلةً: "هل يستطيع الصاغة عندكم أن يصنعوا مثله؟".

فقـــالت: "إن الصـــاغة عـــندنا مشهورون بالمهارة والحذق، وجميع مصوغاتنا من صنعهم". ثم أشارت إلى سوار في يدها، ونزعته وناولتها إياه قائـــلةً: "إنه من صنع صاغتنا". فتأملته فدوى فإذا هو مصنوع من الذهب ومرصع ترصيعاً جميلاً.

ثم مدت صاحبة الفندق يدها إلى شعرها وانتزعت دبوساً مرصعاً بالماس

ناولتها إياه وقالت: "هذا من صنع أوربا على ما أظن".

فتناولت فدوى الدبوس، وما تأملته حتى اشتد وجيب قلبها ورجفت ركبتاها، لأنه يشبه الدبوس الذي أعطته لشفيق، ثم تحقق أنه هو بعينه فازداد خفقان قلبها واصفر وجهها وأخذتها الرعدة وتلعثم لسانها وبردت أطرافها. فأدركت زائرتها ذلك ولم تفهم له معنى لأنها لم تعلم له سبباً.

أما فدوى فإنها حاولت إخفاء عواطفها فلم تستطع لأن الدموع سبقتها، وأرادت أن تسألها كيف وصل هذا الدبوس إليها فلم تستطع وخافت الفضيحة فأسندت رأسها إلى وسادة المقعد متظاهرة باضطراب صحتها فوقع الدبوس من يدها فتناولته المرأة وشكته في شعرها قائلةً: "لا أراك الله سوءاً يا ابنتي ما هذا الاضطراب الذي اعتراك؟ هل تأمرين باستدعاء الطبيب؟".

فقالت: "لا حاجة إلى الطبيب الآن". قالت ذلك وهي ترتجف، فنهضت المرأة واستأذنت في الانصراف، ثم سارعت إلى إطلاع زوجها على الأمر ليخاطب والد الفتاة في شأنها.

ودخل بخيت على فدوى فرآها على تلك الحال، فسألها عن شأنها فأخبرته بأمر الدبوس وقالت: "أريد منك أن تستطلع هذا الأمر وتعرف كيف وصل الدبوس إلى هنا". فقال: "سمعاً وطاعةً". وخرج وهو لا يقل عنها دهشة.

ومضت زوجة صاحب الفندق إليه وقصت عليه قصة الفتاة وقالت: "لعلها مصابة بمرض من الأمراض العصبية، ومما يدل على ذلك شدة ضعفها وسرعة تأثرها، فيحسن أن تخبر أباها بذلك وتشير عليه باستدعاء الطبيب، لأني أضن بهذه الفتاة لما شاهدت من لطفها وجمالها".

فاستصوب الرجل رأيها وقال: "سأغتنم فرصة مناسبة وأذكر ذلك أمامه".

ولما كان وقت العشاء طلب الباشا الطعام في الغرفة، ثم تغير الجو تلك الليلة وتساقطت الأمطار غزيرة، فآثر الاستدفاء بالفراش. وقضت فدوى ليلتها مشغولة البال بأمر الدبوس.

نهض الباشا في صباح اليوم التالي، فرأى فدوى في حالة يرثى لها من الضعف والاصفرار، فقلق على صحتها وعزم على أن يأتيها بالطبيب، فسار بعد الغداء إلى قاعة الاستراحة وبعث إلى صاحب الفندق فلما حضر قال له: "أريد استدعاء أشهر طبيب في بيروت لمشاهدة ابنتي".

فقال: "إن لكل طبيب شهرة في فرع من فروع الطب".

قال: "أريد أشهر طبيب في الأمراض العامة".

فقال: "في هذه المدينة طبيب من أعرف الأطباء بهذه الأمراض وإن يكن مشهوراً ببراعته في علاج أمراض العين، وهو الدكتور (ن). وفضلاً عن سمعة اطلاعه قد خصه الله باللطف والإيناس فإن كلم المريض طيب خاطره وخفف أوجاعه بلطف حديثه قبل أن يصف له الدواء. وقد أقام هنا خمسين عاماً بين تطبيب وتدريس في فن الطب. وهو بفراسته يعرف الداء بالنظر إلى المريض".

فقال الباشا: "إلي به حالاً". قال: "لا يمكننا أن ندعوه إلا بعد الظهر، لأنه قبل ذلك يطبب الفقراء في بعض المستشفيات مجاناً".

قال الباشا: "ندعوه من المستشفى، فلا بد أنه يفضل المريض الذي ينقده الدراهم".

فتبسم الرجل قائلاً: "لا يا سيدي إنه على نقيض ذلك يفضل تطبيب الفقراء، بل هو يساعدهم في الحصول على الدواء وغيره. وله صدقات يجريها على عائلات كثيرة كل شهر في الخفاء".

فقال الباشا: "إذن ندعوه بعد الظهر". قال: "سمعاً وطاعةً".

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر وقفت عربة أمام باب الفندق، ونزل منها شـــيخ في نحو السبعين من عمره يمشي على عصا لكن من غير تحدب ولا خمـــول، وهـــو ســـريع الحركة قصير القامة خفيف الجسم طويل اللحية خفيفها، وعلى عينيه النظارات. فاستقبله صاحب الفندق وأخبر الباشا بأن الطـــبيب حضـــر، فخرج الباشا لاستقباله، وعاد معه إلى غرفة الاستراحة فآنس الباشا منه فوق ما سمعه عنه من اللطف والدعة، فأثنى عليه ثناءً جميلاً إلى أن قـــال: "لقـــد وددت لو أكون مريضاً فأتمتع بتطبيبك. إن حديثك لأشهى من الترياق". فلم يرد الطبيب على المدح فراراً من مدح آخر.

ثم تحادثـــا قـــليلاً إلى أن قـــال الباشا: "قد دعوتك يا حضرة الطبيب لأستشيرك في أمر ابنتي، وقد جرأتني أخلاقك الشريفة على أن أطلعك على سر لم أطلع عليه أحداً في هذه المدينة". فقال: "قل ما بدا لك".

فقص الباشا قصة ابنته مع شفيق إلى أن قال: "وقد وقعت في حيرة الآن لأن الفتاة كلفة بذلك الشاب كلفاً شديداً، ولا أنكر عليك أني أحبه أيضاً، لأنه أنقذني من الموت وآنست منه شهامة غريبة، ولكني لا أرى فائدة من بقائهـــا عـــلى حـــبه بعد أن تحققنا أن الحملة التي سار معها قد هلكت بأجمعها".

فقال الطبيب: "هل حاولتم أن تشغلوها بشأن من الشؤون؟".

قال: "نعم وبلا فائدة".

فقال: "إن أفضل طريقة على ما أرى أن تشغل الفتاة عنه بما ينسيها إياه تدريجياً، ولقد أعجبني منها محافظتها على العهد، ولكن ليس في اليد حيلة".

فقال: "وكيف نشغلها عنه؟".

قـــال: "أشغلوها بالأسفار من بلد إلى آخر، والسفر في لبنان أفضل ما يكـــون، ولكـــن هذا الفصل فصل شتاء فلا تستطيعون التجوال في أنحاء الجـــبل، فامكثوا هنا ريثما ينقضي هذا الفصل ويحلو المقام على ربى لبنان

فتتمتع الفتاة بهوائه".

فقال الباشا: "ولكن ما العمل الآن، وهي لا تنفك تفكر في ذلك الشاب ليلاً ونهاراً، وكلما زدت في تسليتها عنه زادت شغفاً به؟".

فأجاب الحكيم وهو يمسح النظارات بمنديله الحريري: "تلك عادة أهل الغرام، كلما زدتهم لوماً زادوا هياماً، فالأولى أن تغض الطرف عن ذلك، وإذا ذكرت حبيبها فاذكره بالجميل، مع الإشارة إلى الدهر الذي يقضي على المحبين بالفراق، وأشغلها بالأمل البعيد حتى يقضي الله بما يشاء".

فتأوه الباشا ثم قال: "والله إنك لأحسن من يعزي عن المصائب، فهل لك أن تتردد علينا حيناً بعد حين".

قال: "سأفعل إن شاء الله، ولكن ربما كان الأفضل أن تذهب بها إلى زيارة منزلي بقرب المنارة فإنه في مكان يشرف على البحر من جهة وعلى الجبل من جهة أخرى".

★★★

ظلت فدوى معتكفة في غرفتها، مشغولة بالبحث عن صورة شفيق، فلم تترك مكاناً هناك إلا بحثت فيه، لكنها لم تقف للصورة على أثر، فلاح لها أن أباها أخفاها في جيبه فعزمت على البحث عنها في ثيابه بعد نومه ليلاً. ثم ألقت نفسها على فراشها خائرة القوى، في انتظار عودة بخيت.

وفي المساء عاد بخيت والدبوس بيده، فلما رأته فدوى خفق قلبها وأسرعت إليه وخطفته من يده وجعلت تقبله وتتأمله وتبكي قائلة: "هل عرفت حكايته؟".

فقال: "لا يا سيدتي، ولكني ذهبت إلى صاحب الفندق وزعمت له أنك تحبين مشاهدة الدبوس لأنك أعجبت بصنعه، وحاولت معرفة طريقة وصوله إليه، فلم يقل أكثر من أنه جاءه هدية من أحد السياح الإنجليز

الذين ينـــزلون بفندقه".

فقالت: "لم يقل الحق، لأني شاهدت الدبوس مع شفيق قبل سفره إلى السودان، فكيف وصل بعد ذلك إلى بلاد الإنجليز؟".

فقال بخيت: "سأواصل البحث حتى أهتدي إلى طريقة وصوله، كما أني سأقلب الأرض طـــولاً وعرضاً حتى أجد الرسم المفقود".

قـــالت: "ليس في العالم من أثق به سواك، فلا تضع أملي فيك، والآن خذ الدبوس وأرجعه إلى صاحبه". فأخذ الدبوس وخـــرج.

وجاء الباشا إلى غرفة فدوى بعد قليل، فرآها أحسن حالاً من ذي قبل، فقال لها: "لقد أطلت عليك الغيبة اليوم".

قالت: "نعم يا أبتاه، وأنت تعلم أني لم آت هذه البلاد لأسجن في هذه الحجرة".

قال: "كنت أبحث عن مكان نخرج إليه للنـــزهة، وقد دعانا الدكتور (ن) الشـــهير لـــزيارة منـــزله غداً وهو في طرف المدينة يطل على البحر والجبل".

قالت: "وكيف دعانا إلى منـــزله وهو لا يعرفنا؟".

قال: "لقد دعوته لأستشيره في أمرك، وقد آنست بلقائه كثيراً وأحببته للطفه وكرم أخلاقه فضلاً عن علمه الغزير".

وصحيح أن الإفرنج لا يدعون إلى منازلهم أحداً إلا بعد طول معرفة، ولكنه أمضى في هذه البلاد قرابة خمسين سنة فتخلق بأخلاق أهلها وألف عـــاداتهم، كما أتقن لغتهم وحفظ أمثالهم وأساليب كلامهم. وقد سمعته يورد في حديثه من الأمثال الدارجة ما يتعذر إيراده على كثير من أبناء اللغة أنفســـهم. وأؤكـــد لـــك أنك لو جالسته ساعة لذهب عنك كل كدر، وســـتعرفين زوجـــته حين نذهب إلى منـــزله غداً، ولا بد أن تكون قد اكتسبت شيئاً من أخلاقه ولطفه وظرفه".

قالت: "إذن نذهب إليه غداً". ثم ذهب كل منهما إلى فراشه، ونامت فدوى لأول مرة منذ السفر نوماً عميقاً مريحـــاً.

★★★

مضـــى بخيت إلى صاحب الفندق فرد إليه الدبوس وقال: "إن سيدتي سرت كثيراً بإتقان صنعه وتحب معرفة المكان الذي صنع فيه لتوصي بصنع مثله".

قـــال: "قلت لك إنه صنع في أوربا وقد أهداه إلي سائح إنجليزي، و لم أسأله عمن صنعه هناك، ولو أن الهدايا لا تباع ولا تشترى لقدمناه لحضرة السيدة".

فشـــكره بخيـــت، ثم ذهب إلى عبود طباخ الفندق، وكانا قد تعارفا وتحابـــا، فدعاه هذا إلى حجرته، ثم دعاه إلى مشاركته شراب (العرقي). فـــتظاهر بالقبول، وأخذ يسكب على الأرض كل قدح يملؤه له دون أن يشـــعره بذلـــك حتى فرغت الزجاجة أو كادت، وسكر الطباخ فقال له بخيـــت: "إن موقع هذا الفندق جميل جداً ولا سيما في فصل الصيف، فإنه يشرح الصدر لقربه من البحر".

فقال الطباخ: "صدقت ولكنا نسر في الشتاء لكثرة السواح فإنهم يأتوننا جماعات من أقاصي البلاد".

فاستبشر بخيت بذكر السياح آملاً أن يعرف شيئاً عن وصول الدبوس إلى هـــناك فقـــال: "وما الذي يحملهم على المجيء إلى هذه الديار في هذا الفصل".

قـــال: "إنهم يأتون إلى يافا ويسيرون منها إلى بيت المقدس لزيارة قبر المســـيح، ثم يأتون إلى هنا غالباً في أوائل الربيع لمشاهدة أشجار أرز لبنان المشهورة بقدم عهدها حتى ليقال إنها باقية من أيام سليمان".

قال بخيت: "إنهم يزورون مصر في فصل الشتاء لاعتدال الهواء هناك".

قال: "نعم وهم يأتون من مصر إلى يافا، ولكنهم لا يستطيعون التجوال هنا لكثرة الثلوج التي تتراكم في طرق جبل لبنان، والمهم أنهم ينفقون أموالاً طائلة فنكسب منها كثيراً".

فقال بخيت وقد رجا قرب الوصول إلى مبتغاه: "هل يعطونكم هدايا مثل الثياب أو الحلى، أو يكتفون بالنقود؟".

قال: "هم يعطوننا نقوداً وهدايا من الثياب والحلى وغيرها، ولكني أفضل النقود طبعاً".

فقال بخيت: "ولكن إذا أعطوك حلى مثل دبوس رقبة مثلاً، أفلا تفضله على الدراهم؟".

قال: "وما أصنع بالدبابيس وأنا لا ألبس ثوباً إفرنجياً، ولو أعطيتني حلة إفرنجية ما لبستها وكذا لو أعطيتني قطعة حلى فإني أفضل بيعها وإذا كنت لا تصدق فاسأل معلمي الخواجه بسول، فهو قد خبرني جيداً منذ جئت من بلاد السودان".

فسر بخيت لمعرفته أن صاحبه كان في السودان وقال له: "إنك مغربي يا عزيزي فكيف ذهبت إلى بلاد السودان؟".

فتغيرت حالة عبود من السكر المضحك إلى الهدوء والرزانة وقال: "ذهبت إليها من مصر، لأني كنت أذهب كل سنة إلى القاهرة في فصل الشتاء لمرافقة السياح، فلما كانت سنة ١٨٨٢ مضى فصل الشتاء علي في القاهرة دون عمل لأن محل كوك احتكر السياح وكان يرسل معهم تراجمة وأدلاء من عنده، فلما اعتزمت العودة إلى بيروت سمعت بمسير حملة هيكس باشا لمحاربة المتمهدي في السودان، وعرضت على أحد ضباط الحملة الإنجليز أن يصحبني لخدمته هناك فقبل ومضيت معه حتى أتينا الخرطوم". قال ذلك وشرق بدموعه وتوقف عن الحديث.

فقال بخيت: "لا بأس عليك يا أخي، ما الذي يبكيك؟".

فتنهد عبود وقال: "تذكرت ما مر بي من الأهوال بعد ذلك، فقد تركني صاحبي الضابط الإنجليزي في الخرطوم، وذهب متنكراً إلى الأبيض حيث يقيم المتمهدي، وأبقى عندي أمتعته وثيابه حتى يعود، ولكنه لم يعد وا أسفاه، ثم سمعنا بالقضاء على هيكس وجيشه، ولم يسعني إلا المهاجرة من هناك فحملت ما خف حمله من ثياب ذلك الضابط، وسافرت قاصداً هذه الديار عن طريق بربر، فلما بلغتها خشيت على نفسي خطر الدراويش، فطرحت ما كان معي من تلك الثياب ولم أبق معي إلا بعض الأشياء الغالية الثمن، ثم واصلت المسير إلى سواكن مصطحباً أعرابياً كان ذاهباً إليها في مهمة سرية أرسله فيها حسين باشا خليفة مدير بربر، فقطعنا نصف الطريق في بضعة أيام، ثم علمنا أن الطريق إلى سواكن مقطوعة لظهور دعاة المهدي فيها بقيادة عثمان دقنا الذي أصبح ألد عدو للأتراك ومن شابههم مع كونه تركي الأصل".

فضاق بخيت ذرعاً لطول القصة، وأراد أن يبتدره بالكلام لاستطلاع ما يهمه، ولكنه خاف أن يغضبه فبقي صامتاً مصغياً، وأتم عبود حديثه فقال: "فلما سمعنا ذلك وقعنا في حيرة، وتوسلت إلى رفيقي الأعرابي أن يدبر لي وسيلة أخلص بها من تلك الورطة فأعطاني بعض ثيابه وعلمني من الكلام السوداني فوق ما كنت أعرف حتى إذا وقعنا في مشكل ندعي أننا من أهل تلك الجهات القائمين على دعوة المهدي. وما زلنا سائرين حتى صرنا على مقربة من سنكات، فأخبرني بأنها محاصرة وفيها حامية من الجنود المصريين، وقد أرسلت الحكومة المصرية إليهم نجدة بقيادة رجل إنجليزي إسمه بيكر باشا، وأشار بأن ندخل سنكات بدلاً من الاستمرار في السير إلى سواكن، فدخلناها وبتنا تلك الليلة قرب الحصون، وفي الصباح تجولت في البلدة فإذا هي ليست كبيرة وأبنيتها من الآجر تتخللها بيوت من القش. وشاهدت

أهلها في ضنك شديد لقلة المؤونة بسبب انقطاع الموصلات".

-١٣-

بطل سنكات

واصل عبود الطباخ حديثه عن الأهوال التي لقيها في رحلته إلى السودان فقال: "وفيما أنا أجول في سنكات جاءني جندي يدعوني إلى مقابلة توفيق بك محافظها، فذهبت إليه في ديوانه، فسألني عما سمعته عن حملة بيكر باشا فقلت: (إني لم أسمع إلا أنها جاءت لإنقاذكم من هذا الحصار) فتنهد توفيق بك وهز رأسه وجعل يخاطب نفسه قائلاً: (أجاءوا إلينا بنساء أم برجال؟). ثم قال يخاطب ضابطاً بجانبه: (لقد جاء بيكر باشا في حملة لإنقاذنا، ولكن الأوامر جاءته بإنقاذ حامية طوكر أولاً، ولكن جنوده لم يحسنوا القتال فهزمهم الدراويش واضطروهم إلى العودة).

"فأخذ ذلك الضابط يخفف عنه ويهون عليه، فقال له: (إني لا أخاف الموت، ولكني أخشى العار الذي يلحق بحكومتي لإهمالها إنقاذ حامية هذه البلدة التي دافع أهلها دفاعاً حسناً، وكم من كتاب جاءنا من عثمان دقنا يعدنا مواعيد حسنة إذا سلمنا ولم نجبه إلا بالتهديد والوعيد. وعما قريب يحل بنا ما حل بهيكس، ولكن حملته كان لها عذرها لبعدها عن مراكز الحكومة، وجهل هذه مقر الحملة. أما نحن فمقرنا معلوم، وقد أصبحنا في حال لا تطاق)...".

وكان بخيت قد سمع طرفاً من قصة البطولة التي أبداها ذلك القائد الشهم فأحب الوقوف على تفصيلها، وشغل بذلك عن حكاية الدبوس، فقال: "يلوح لي أن هذا القائد من أصحاب الحزم والعزم".

فقال عبود: "نعم، وقد أعجبت بإخلاصه للحكومة وعظم شهامته، وقلت في نفسي: "إنه إذا انحاز إلى العصاة فلا لوم عليه لأنه مضطر، ولكنه في اليوم التالي جمع ضباط مجلسه في جلسة حافلة حضرتها وخطب فيهم

قائلاً: (ها إن العصاة قد أحاطوا بنا من كل ناحية، والنجدة التي أرسلتها الحكومة إلينا لم تصل، والبلد في جوع مدقع. فالآن إما أن نلبث في الحصار فنموت جوعاً، وإما أن نخرج مستقتلين وندافع عن أنفسنا وحكومتنا، فإذا قتلنا عن آخرنا فذلك خير لنا من التسليم لأنه لن يفيدنا شيئاً، وعثمان دقنا لن يبقي علينا إذا سلمنا له. فما رأيكم؟".

فبهت الجميع وقد سحروا بكلام ذلك القائد المملوء شهامةً وحزماً، وتركوا الرأي له فقال: (أرى أن نفتح أبواب البلدة غداً بعد أن نخربها ثم نخرج منها مستقتلين فإذا لقينا الأعداء قاتلناهم إلى آخر نسمة من حياتنا باسم خديوينا توفيق باشا حتى يقضي الله بيننا وبينهم، ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون).

فوقعت في حيرة، لأني لست جندياً ولا معرفة لي بالقتال، وندمت على دخولي سنكات، وكذلك كان شأن رفيقي فتعاهدنا على أن نفر من المدينة تلك الليلة إلى معسكر العدو كما كنا قبلاً وقد لبسنا المرقعيات نريد معسكر عثمان دقنا، فدخلناه مولولين مستنجدين، وزعمنا أننا ضللنا الطريق فمررنا بجانب سنكات، فأطلقت حاميتها علينا الرصاص و لم ننج إلا بعد الجهد والعناء. فصدقونا وبتنا تلك الليلة هناك، وفي الصباح تركنا المعسكر وسرنا حتى أتينا سواكن. وهناك علمنا بخروج توفيق بك ورجاله من سنكات حيث أحاط بهم الدراويش من كل جانب وأفنوهم عن آخرهم، فأسفت لمصرع ذلك البطل. ثم ركبت البحر من سواكن إلى السويس، و لم أصل إلى هنا إلا منذ أيام".

فقال بخيت: "إن حكايتك غاية في الغرابة، ولكنك لم تذكر الأشياء التي جئت بها من السودان".

قال: "لقد جئت من هناك بما بقي معي من ثياب الضابط الإنجليزي وفي جملتها دبوس مرصع، فبعته لصاحب هذا الفندق بثمن زهيد إذ أنه لا

ينفعني".

فأخذ قلب بخيت في الخفقان، ثم سأل عبوداً عن اسم ذلك الضابط الإنجليزي، فأجابه عبود قائلاً: "من الغريب أن اسمه عربي وهو الكابتن شفيق، وكان يعرف العربية كأنه من أهلها".

فازداد خفقان قلب بخيت، وكاد يطير من الفرح لاكتشافه سر الدبوس، ولكنه أسف لتذكره فقد شفيق، وقال لعبود: "ألم تسمع شيئاً بعدئذ عن ذلك الضابط؟".

فقال: "لو كنت سمعت عنه شيئاً ما برحت السودان قبل أن ألتقي به".

فقال بخيت: "ولكنك ذكرت أنه لم يسر مع الحملة فمن الممكن أن يكون حياً بعد؟".

قال: "آه لو أعلم أنه حي، إذاً لما ادخرت وسعاً في سبيل البحث عنه، لأني لا أنسى فضله ولطفه فقد كان يحبني ويعدني بمستقبل حسن عنده".

فاكتفى بخيت بهذا الحديث ونهض فودع صاحبه شاكراً له حسن ضيافته، وأعطاه بعض النقود قائلاً: "إن الباشا مسرور منك وقد أوصاني بأن أكرمك". فتناول الدراهم وقبلها قائلاً: "أطال الله حياة الباشا".

ثم خرج بخيت غارقاً في بحار من الهواجس، وود لو استطاع أن يسير تواً إلى سيدته ليطلعها على ما سمعه، ولكنه سمع الساعة تدق عشر دقات: فسار إلى حجرته على أن يقص عليها القصة في اليوم التالي.

أمضت فدوى تلك الليلة تحلم بأمر الدبوس ورسم شفيق، فلما أصبح الصباح، تناولت طعام الإفطار مع أبيها في حجرته، وفي الساعة العاشرة أرسل بخيتاً ليأتيهم بعربة توصلهم إلى منزل الدكتور (ن). وكانت فدوى قد لبست ثيابها استعداداً لهذه الزيارة وضفرت شعرها ضفيرةً واحدة محلولة من طرفها وأرختها على ظهرها، فبدت غايةً في الجمال رغم نحولها. ثم جاءت العربة فركبت بجانب أبيها، وركب بخيت بجانب السائق وساروا

قاصدين رأس بيروت حيث منـــزل الدكتور.

وساروا في طريق طويل خارج المدينة ينتهي ببناء فيه المنارة التي تهتدي بهـــا السفن إلى ميناء بيروت. فشاهدوا على يمينهم قبل وصولهم إلى المنارة باباً كبيراً عارياً من كل زينة، دخلوا منه إلى بقعة محاطة بسور وفي صدرها باب آخر وقفت العربة عنده، فاستقبلهم خادم هناك، وأدخلهم رواقاً يحف به من الجانبين حوضان مزروعان بأعشاب ونباتات مختلفة ألوانها، وفي نهاية ذلك الرواق باب يؤدي إلى حديقة تشرف على البحر والمنـــزل كله على مرتفع أشبه بتل كبير.

فـــلما وصـــلوا إلى آخر الرواق، دخل الخادم في باب صغير على يمينه اتصـــل منه إلى مكتب الدكتور وأخبره بمجيء الضيوف، ثم سار في طرقة أخـــرى إلى اليسار مرصوفة بالرخام يتصل منها إلى باب المنـــزل الحقيقي وأخبر زوجة الدكتور. فخرج الدكتور واستقبل الباشا ودخل به مكتبته، وجاءت امرأته واستقبلت فدوى بكل ترحاب كأنها تعرفها من زمن مديد، وأمرت بالقهوة وسائر معدات الترحاب، وبعثت إلى بناتها وعرفتهن إليها، فشاركن والدتهن في الترحيب بها ومؤانستها حتى كادت تنسى هواجسها.

وأمـــر الدكتور للباشا بالقهوة والنرجيلة وجلسا يتبادلان الأحاديث. وكان الدكتور يرتدي فوق بذلته الإفرنجية عباءة سوداء من ملابس البدو، وعلى رأسه بدل القبعة عراقية من المخمل الأزرق مزركشة بالقصب تتدلى منها طرة من القصب.

ومضى نصف النهار دون أن يشعر الباشا لاستئناسه بمضيفه، ثم تنبه إلى ذلـــك فاستأذن في الانصراف، ولكن الدكتور لم يتركه حتى تغدى عنده، بينما مدت مائدة أخرى للسيدات احتفاء بفدوى.

وقال الباشا للدكتور وهما على المائدة: "اعذرني إذا تطفلت في سؤالك عما رغبك في عادات الشرقيين والتخلق بأخلاقهم".

فقال الدكتور: "تلك عادتي في سائر أيامي، فإني جئت إلى هذه الديار واتخذتهـــا وطـــناً لي، وأحببت أهلها محبتي لأولادي، ولا أنسى محبتهم لي وإكرامهم لي".

ثم سأله الدكتور عن صحة فدوى، فأخبره بأنها استراحت قليلاً. فقال الدكتور: "إذا كان منـــزلنا يفيدها فإننا نرحب بإقامتها معنا إذا شاءت". فأثنى الباشا على كرمه واعتذر عن عدم استطاعته ذلك.

وبعـــد تناول الغداء وشرب القهوة استأذن الباشا في الانصراف فودعه الدكتور، وودعت زوجته فدوى بحرارة.

وفيما العربة سائرة بهم بالقرب من مدرسة طبية في الطريق إلى الفندق، حرنت الخيل، وعبثاً حاول السائق حملها على المسير، فهبط الباشا وفدوى منها، وأرسلا بخيتاً ليحضر عربة أخرى، ثم أخذا يتمشيان في الطريق أمام المدرسة حتى يعود إليهما.

وفـــيما همـــا يتمشـــيان أمام سور المدرسة ويتأملان في بنائها الجميل المشرف على البحر، أمطرت السماء على غير انتظار، فاضطرا إلى دخول المدرسة للوقاية من المطر، ووقفا هناك ينتظران مجيء بخيت بالعربة، فجاءهما البواب بكرسيين جلسا عليهما.

ومضـــت ســـاعة دون أن يعود بخيت، ثم حان موعد الانصراف من المدرســـة فـــإذا بالتلامذة والأساتذة يخرجون أفواجاً. وسمع الباشا قرقعة عجـــلات عـــربة خارج الباب، فحسب أنها العربة التي أحضرها بخيت، فخرج ليتحقق الأمر، فوجد بالقرب منها أحد أساتذة المدرسة وهو شيخ في لـــباس إفـــرنجي أشيب الشعر كثيف شعر اللحية على عينيه النظارات، فحياه فرد التحية مرحباً به وسأله عن غرضه، فأخبره بما كان فقال: "ربما يتأخر رسولكم أكثر من ذلك إذ لا بد له من الذهاب إلى المدينة لإحضار عربة. وهذه عربتي تحت أمرك".

فشكره الباشا على أريحيته وقبل هذه الدعوة بعد إلحاح.

ولم يكن الدكتور قد شاهد مع الباشا أحداً سواه ولذلك كان يريد الركوب معه، فلما رآه ينادي ابنته امتنع عن الركوب معه، فركب الباشا وابنته وقال للسائق: "خذنا إلى فندق بسول على البحر". والتفت إلى الدكتور شاكراً، فسارت العربة حتى أتيا الفندق فلم يجدا بخيتاً هناك، فقلقا عليه، ولكن صاحب الفندق طمأن الباشا وقال له: "لعله ضل الطريق ولا يلبث أن يعود".

★★★

انقضى اليوم كله دون أن يعود بخيت، فبات الباشا وفدوى ليلتهما قلقين عليه، فلما كان الصباح جاء أحد خدم الفندق يدعو الباشا إلى مخاطبة شرطي جاء يطلبه، فخرج فإذا بأحد الشرطة وبيده ورقة فلما تلاها فهم منها أن بخيتاً في سجن البوليس رهن التحقيق، فلبس ثيابه وسار مع الشرطي إلى دار البوليس قرب حديقة الحميدية، فلما دخل على المأمور وقف له احتراماً وأجلسه بجانبه وقال له: "إن خادمك وأحد المصريين تشاجرا أمس، وجيء بهما إلى المخفر". ثم أمر بإحضارهما فحضرا فإذا بالمصري الذي تشاجر معه بخيت هو عزيز.

وما وقعت عين عزيز على الباشا حتى أكب على يديه يقبلهما وقال: "عفواً يا سعادة الباشا، لقد لقيت خادمكم هذا مساء أمس وهو منسرع نحو المدينة، فناديته لأسأله عن سعادتكم، فلعنني وأهانني، وسمعنا الشرطة فقبضوا علينا وساقونا إلى السجن".

فقال الباشا: "لعله لم يعرفك؟". وهنا صاح بخيت قائلاً: "كلا يا سعادة الباشا، بل عرفته ولولا ذلك ما أهنته".

فقال له الباشا: "اسكت يا بخيت، لقد جئت الآن لأصلح بينكما وأخرجكما من السجن".

ثم قال الباشا للمأمور: "لقد تصالحا لأنهما من بلد واحد وكلاهما من خاصتي، وأرجو أن تأمر بإطلاق سراحهما".

فقال المأمور: "ليكن ما تريد سعادتك". وأمر بالإفراج عنهما.

وعاد الباشا إلى الفندق وهما معه، وفي الطريق رحب بعزيز وسأله عن سبب مجيئه فقال: "يعلم الله يا سعادة الباشا أنه لم يهدأ لي بال منذ برحتمونا، ولم أر سبيلاً للاطمئنان إلا بالمجيء إلى هنا ومشاهدتكم، فعسى أن تكون فدوى هانم بخير".

فقال الباشا: "إنها بخير والحمد لله". ثم سأله عن محل نزوله فقال: "لم أختر منزلاً بعد، وقد قيل لي إن هذا الفندق من أفضل فنادق بيروت، وقد وضعت أمتعتي في مقهى بقرب الميناء على أن أعود لأخذها بعد الاهتداء إلى منزل مناسب، فالتقيت بخادمك وجرى ما جرى".

فقال: "سنبعث من يأتيك بالأمتعة إلى هنا".

وكانت فدوى في انتظار عودة أبيها فلما سمعت صوته في الدهليز المؤدي إلى غرفتها فتحت الباب لاستقباله والاستفهام عن بخيت، فوقعت عينها على عزيز فارتعدت فرائصها وخفق قلبها واتقدت النار في فؤادها، فعادت إلى الحجرة وأغلقت الباب وراءها وألقت بنفسها على المقعد خائرة القوى من شدة الغيظ والتأثر.

وقد أدرك أبوها ما بها، ودخل عليها ومعه بخيت فأسرع هذا إلى تقبيل يدها وقال لها: "معذرة يا سيدتي، إنها حادثة عرضت وانقضت بسلام". قال ذلك وحرق أسنانه، فأدركت أن في المسألة سراً فصبرت ريثما تخلو إليه وتعلم ما هناك.

وجلس الباشا يقص القصة عليها وهي مصغية، حتى وصل إلى ذكر عزيز فامتقع لونها وظهرت عليها أمارات الغيظ، فلحظ منها ذلك وقال ضاحكاً: "ما الذي غاظك من حديثي يا حبيبتي؟".

قالت: "لم يغظني شيء وإنما عجبت لهذا الاتفاق".

فقـــال: "إنه اتفاق عجيب، والرجل قد جاء من مصر غيرة علينا، وقد سألني عنك كثيراً". فازدادت هي غيظاً حتى لم تعد تقدر على إخفاء ما بها فقالت: "وما الذي حمله على افتقاد من لم يخطر لهم في بال".

فضحك أبوها وقال: "ألا تزالين حاقدة عليه يا عزيزتي؟".

قالت: "نعم يا سيدي ولن أزال كذلك ما بقيت حية".

فقـــال: "يا للعجب، لقد عهدتك كريمة لينة الجانب لا تحملين لأحد حقداً وهذا الفتى لم نر منه بعد تلك الحادثة المشؤومة إلا إخلاصاً ومحبةً".

فازداد اضطرابها لتذكرها شفيقاً، وأرادت التكلم فلم تستطع، فألقت بنفسها على الفراش وغلب عليها البكاء.

فحـــاول أبوهـــا إســـكاتها فلم يستطع، فاغتاظ منها ونسي محبته لها وانتهرها قائلاً: "كفي يا فدوى كفى، ألا تزالين مشغوفة بحب الأموات؟".

فلم تزدد إلا بكاءً وعويلاً، فتركها وخرج مغضباً مغلقاً الباب وراءه.

وبعـــد قليل دخل عليها بخيت وقال لها: "لا تخافي يا سيدتي، وطيبـــي نفساً، فلعل وقت الفرج قد دنا وقد قيل:

"ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج"

فالتفتت إليه مندهشة وقالت له: "هل عندك خبر جديد؟".

قال: "نعم عندي خبر جديد ولكني لا أخبرك به إلا متى سكن روعك وأصغيت إلى ما أقول".

فمسحت دموعها وقالت: "ها أنذا أصغيت فقل ما عندك".

فقال: "إن هذا الخائن إذا بقي حياً إلى الغد فلن يبقى إلى ما بعده، ولو ســـاعدتني الأقدار لسقيته كأس المنون أمس، ولكن أبشري فسوف أذيقه تلك الكأس عاجلاً أو آجلاً. وأما الأهم من ذلك فإني عرفت شيئاً جديداً

يختص بالدبوس".

فقالت: "قل حالاً ماذا عرفت؟".

قال: "قد عرفت أنه دبوس سيدي شفيق، وعرفت الرجل الذي جاء به وهو طباخ هذا الفندق".

قالت: "وماذا قال عن شفيق؟".

قال: "أكد لي أنه لم يكن مع حملة هيكس باشا بل...".

فانتفضت فدوى من الفرح وهزت بيدها كتف بخيت قائلةً: "وأين ذهب إذن؟".

قال: "ذهب يا سيدتي في مهمة سرية إلى الأبيض".

فأخذت فدوى تثب في أرض الغرفة كأنها أصيبت بجنة وهي تقول: "شفيق لم يمت في الحملة؟!.. آه يا شفيق هل أنت حي؟".

فقال بخيت: "اجلسي يا سيدتي فأحدثك بكل ما سمعت". فجلست وقص عليها الحكاية كما سمعها. ثم قال لها: "على أني لا أرى أولاً أن أقتل هذا الخائن ثم أقول لك ماذا فعل بعد ذلك".

فقالت: "اقتله لا بارك الله فيه، ولكن..". وسكتت.

فقال بخيت: "لكن ماذا؟ إنه يستحق القتل حرقاً لأنه خائن غادر".

فقالت: "لا يا بخيت، لا تقتله، إن شفيقاً أوصى بأن لا نقتله فهل نخالف الوصية؟".

فقال بخيت: "كيف لا نقتله وقد فرح بمقتل شفيق، ألم يكتب إليك يوم سمع بمذبحة هيكس باشا يقول: "من عاش بعد عدوه يوماً فقد بلغ المنى؟..".

فقالت: " إن أخلاق شفيق تأبى قتله مع ذلك، والأمر الجدير بالاهتمام الآن هو البحث عن شفيق وإذا قدرت لنا لقياه فإني أصفح عن هذا الخائن إكراماً له".

وفـيما هما في الحديث، سمعا وقع أقدام فعرفا أن الباشا قادم وتظاهرا بالسـكوت، فلما وصل الباشا رأى ابنته حمراء العينين فازداد غضبه وأمر بخيتاً بأن يخرج، ثم نظر إليه شزراً ولحيته تنتفض في وجهه ويداه ترتعشان وقال: "ما هذا يا فدوى؟ أتريدين أن تلبسيني ثوب العار في هذه الديار؟".

فقالت: "حاشا وكلا يا سيدي، لا ألبسك الله عاراً أبداً".

قال: "لماذا إذن تخالفين أمري وتنقادين إلى أمل لن يتحقق؟".

فقالت: "لا تقل هذا يا أبتاه، فإنك بذلك تزيد أشجاني وتهيج أحزاني".

قال: "ألا تزالين تؤملين عودة الأموات إلى الدنيا؟".

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت: "لا تقل إن شفيقاً مات يا أبتاه، بل قل إنه حي يرزق بإذن الله".

فقال: "هل إذا قلت ذلك يقوم من بين الأموات؟".

فقـالت: "إن الله على كل شيء قدير، وهب أنه لا سمح الله غير حي فماذا تريد مني؟".

قال: "أريد أن تطيعي أوامري".

قـالت: "إني لا أزال ابنتك المطيعة البارة ولكن..". فقاطعها وانتهرها قـائلاً: "هيا اغسلي وجهك ودعي عنك الهواجس فإنها مجلبة للسقام. ولا تعـلقي آمالك بحبال من هواء، فقد سمعت بأذنك عندما سألنا شفيقاً عن مذهبه ووطنه أنه لا يحقق أهو مسلم أم غير مسلم، ولا هل هو من الشام أم مـن مصـر، فافرضي أنه حي فهو ليس من أمثالنا ولا ينبغي أن نعلق به آمالنا".

فوقـع هـذا القول على قلب فدوى وقوع السهام ولم يزدها إلا ولعاً بشـفيق، لكنها نهضت وغسلت وجهها وهي عالمة بما يضمر أبوها، وقد أغضـت عنه تخلصاً من القيل والقال وأضمرت الإصرار على عزمها مهما

تلقى في سبيل ذلك من الأهوال.

-١٤-

حصار الخرطوم

عاد الباشا إلى غرفة الاستقبال بالفندق، فنهض عزيز لاستقباله احتراماً لـــه، ولما رآه منبسط الوجه استبشر بنيل مبتغاه و لم يجرؤ على مخاطبته في ذلك.

و لم يملك الباشا إخفاء عواطفه فقال: "يلوح لي أنها لانت، وإن كانت لا تزال تذكر ذلك الشاب".

فقـــال عزيز مراوغاً لا يمكننا تعنيفها على ذلك لأن محبته تمكنت من قلـــبها. لكنه مات وا أسفاه فعلينا أن نسعى إلى تعزيتها وتسليتها حتى لا تضار صحتها".

فقـــال الباشـــا: "لقد نطقت بالحق، إذ لا فائدة من محبته وقد صار في عداد الأموات، لكني لا أعلم كيف أبغضه إليها".

فقال عزيز: "عندي طريقة تريحنا جميعاً فهل أعرضها على سعادتك؟".

قال: "قل ما بدا لك".

قـــال: "قرأت في بعض المجلات العلمية عن علم حديث يقال له علم التنويم المغناطيسي يستخدمه بعض الأطباء لتنويم المريض صناعياً، ثم يسألونه خلال نومه هذا عن مرضه فيشرح لهم حقيقته وعلاجه شرحاً وافياً، وهم يؤكـــدون أن الـــنائم بهذه الطريقة يتنبأ بالغيب أيضاً. كما يؤكدون أن الطـــبيب المـــنوم يتسلط حينذاك على إرادة المريض النائم بحيث يجعله بعد استيقاظه يفعل ما يأمره به حين نومه. فإذا قال له وهو نائم: (إذا صحوت فـــابغض فلانـــاً وأحـــب فلاناً) فعل ذلك من تلقاء نفسه دون أن يعلم السبب".

فقال الباشا: "وهل يخضع كل إنسان لسلطان النوم؟". قال: "لا، ولكن

النساء أكثر قبولاً له من الرجال، ولا سيما العصبيات منهن".

قال: "إذن تكون فدوى صالحة لذلك التنويم، ولكن على من نعتمد في تنويمها هنا؟".

قال: "إن الذين يعرفون هذا العلم هنا قليلون، وفي استطاعتنا أن نسأل عنهم أحد كبار الأطباء".

فقال الباشا: "لقد عرفت هنا طبيباً من أشهر أطباء هذه المدينة وأعلمهم، وهو خير من نسأله في ذلك، وهو الدكتور (ن)...".

فخشي عزيز أن يعرقل هذا الطبيب مساعيه، إذ قد تمنعه استقامته عن استخدام التنويم للغاية التي يريدها فقال: "إن هذا الطبيب على شهرته لا يستطيع التنويم، لأنه شيخ طاعن في السن، ولا بد للمنوم من أن يكون شاباً قوي البنية لكي يمكنه التسلط على من ينومه فإذا شئت فإني أبحث عن طبيب آخر يصلح لذلك".

فقال الباشا: "لا بأس بذلك، وأرجو أن يوفقك الله".

فسر عزيز لنجاح مسعاه، ثم نهض مستأذناً ليذهب ويأتي بأمتعته إلى الفندق، فأذن له الباشا وهو ليس أقل منه فرحاً بتجدد الأمل في مصاهرتهما، طمعاً في ثروته الكبيرة.

★★★

لبثت فدوى بعد خروج أبيها تفكر في أمرها وتدبر وسيلة لنجاتها، ثم جاءها بخيت فأخبرته بما كان من أبيها فكاد يتميز غيظاً وقال لها: "ما لنا ولهم؟ ما دمت أنت محافظة على عهد سيدي شفيق فلا نخاف شراً بإذن الله، وقد دبرت وسيلة للبحث عنه".

فقالت: "وما هي هذه الوسيلة؟".

قال: "اتفقت مع عبود الطباخ على أن يذهب إلى السودان ويأتينا

بالخبر اليقين في أسرع وقت ممكن. وقد دفعت إليه بعض النقود سلفاً، و لم أخبره بحقيقة الأمر، اكتفاء بأن أعطيه كتاباً يوصله إلى سيدي شفيق حيثما يجده هناك".

قالت: "ولكن أين يبحث عنه في السودان؟".

قال: "سيذهب أولاً إلى مدينة الخرطوم التي ذهب إليها غوردون باشا مؤخراً".

قالت: "أحسنت يا بخيت بارك الله في وفائك".

وكان عبود قد عثر بصورة شفيق، فحفظها معه ليتذكره بها، فلما طلب إليه بخيت الذهاب في تلك المهمة استبشر بالفوز، وأخذ يعد معدات السفر، بعد أن ألح على صاحب الفندق أن يبيع الدبوس لبخيت، فباعه إياه بضعف ثمنه ولبث عبود في بيروت حتى سلمه بخيت الكتاب المطلوب توصيله إلى شفيق، وقد كتبته فدوى وقالت فيه:

"إلى شقيق الروح ومنى القلب.

أكتب إليك هذا الكتاب من بيروت، غير عالمة بمحط رحالك، وكلي أمل أن تسمح الأقدار بالاطمئنان عليك فأنسى ما قاساه فؤادي من العناء والمشاق بعد طول الفراق. وكنت قد يئست من بقائك في عالم الأحياء حتى ظفرت بناقل هذا إليك فقص علي قصة جددت آمالي وأحيت ما بقي في من رمق الرجاء. فإذا تحقق لي هذا الأمل فلا يكون على وجه هذه البسيطة من هو أكثر سعادة مني، وإلا فالموت خير لي من معاناة الحزن الذي كاد يذهب برشدي بعد أن ذهب بصحتي، كما أن فيه خلاصي من شر الوقوع فيما نصبه لي ذاك الذي لم ترض الإجهاز عليه فتركته يتبعني حيثما توجهت وينصب لي الشراك حتى أوغر قلب أبي عليّ، وحمله على تهديدي ومحاولة إرغامي على قبوله.

فإذا وصل إليك كتابي هذا فبادر إلى إنقاذي من مخالب الموت والعار،

هذا إذا بقيت حية حتى وصولك والسلام.

كتب في فندق بسول بيروت أول مايو سنة ١٨٨٤.. الباقية على عهدك.. فدوى".

وما تسلم عبود الكتاب حتى غادر بيروت إلى مصر في إحدى البواخر، ليستقل منها سفينة نيلية إلى الخرطوم، وذلك لعلمه أن طريق سواكن قد قطعت لاستفحال أمر عثمان دقنا فيها، فلما وصل إلى القاهرة ركب القطار منها إلى أسيوط، ومن هناك اكترى جملاً خفيفاً وسار فوقه على البر الغربي في عطمور الأربعين قاصداً دنقلا، ومديرها يومئذ ياور بك فوصل إليها في أواخر يونيو ووجد أهلها في هرج ومرج واستعداد للحرب، وعلم أنهم سائرون لمقاتلة الدراويش في الدبة.

وكان عبود يظن أن الطريق إلى الخرطوم آمنة فلما سمع هذا الخبر وقع في حيرة. ثم أخذ يطوف في الأسواق حتى دخل وكالة شاهد فيها بعض التجار السوريين فتقرب من أحدهم، وتحقق منه أن الطريق من هناك إلى الخرطوم لا يمكن السير فيها مخافة خطر الدراويش، كما أن الخرطوم نفسها في حصار شديد.

وفيما هما في الحديث إذا بجماعات من الجند يسيرون بأسلحتهم وخلفهم فارس نحيف الجسم قصير القامة يرتدي الجبة والقفطان، وحوله جماعة من الحشم، فسأل عنه التاجر فقال: "إنه مصطفى ياور بك، وهو خارج في رجاله لمقاتلة العصاة في الدبة. فعسى أن ينتصر عليهم لأنه رجل من الأولياء الأتقياء، إذا أطلق عليه الرصاص لا يخترق لحمه، وإذا سار إلى حرب لا يحمل من السلاح إلا حربة قصيرة في يد، وسبحة في اليد الأخرى، ولا يكف عن الصلاة والدعاء ما طالت المعركة!".

وكان التاجر قد استأنس بعبود لأنه غريب مثله فدعاه إلى الإقامة بمنزله حتى ينجلي الأمر فقبل شاكراً، وذهب معه إلى منزله في المساء

فإذا هو بيت مبني بالطين، وبابه من الضيق بحيث لا يدخله الإنسان إلا ساجداً، فبات ليلته هناك بعد أن تناول العشاء، وظل في ضيافة الرجل بضعة أيام حتى وصلت الأخبار بانتصار يارو بك على العصاة، فظن أن هذا الانتصار كاف لإخماد الثورة وفتح الطريق إلى الخرطوم، ولكن مضيفه أشار عليه بأنْ يتريث قليلاً وقال له: "لقد علمت أن الحكومة الإنجليزية أمرت بإرسال حملة إلى الخرطوم لإنقاذ غوردون، وستمر هذه الحملة بدنقلا فتسير معها". قال:" ولكني لا أستطيع صبراً حتى تجيء الحملة، ولا بد من سفري إلى الخرطوم من أقرب طريق إليها".

فقال: "إذن تسير إليها من الطريق الجنوبي في الصحراء". ثم أحضر له جملاً ركبه ومعه ثيابه وأوراقه كلها في حصير صغير من صنع السودان. وودعه حتى أول الطريق، وعاد وهو يدعو له بسلامة الوصول.

وسار عبود حتى بعد عن دنقلا بمسيرة يوم، وهو ما زال في الصحراء، ثم أدركه جماعة من الدراويش فسلبوه ثيابه وكل متاعه ولم ينج من الموت إلا بالجهد، فعاد إلى دنقلا وقد فقد الرسم والكتاب في جملة الأمتعة، فلما رآه التاجر السوري وعلم بما حدث له أخ يعزيه وأشار عليه بأن ينتظر مجيء الحملة فيسير برفقتها كما أشار عليه من قبل، فلم يجد بداً من العمل بمشورته.

★★★

لبث شفيق في الأبيض ينتظر الفرج من عند الله، حتى إذا كان ذات صباح علم أن المهدي أمر باستعراض جيشه استعراضاً عاماً، فذهب لمشاهدة الاستعراض في الساحة المتسعة خارج البلدة. وهناك رأى الجنود واقفين بأسلحتهم. ثم جاء المهدي وخلفاؤه وأمراؤه، فصلى بهم جميعاً، ثم ألقى خطبة حثهم فيها على الجهاد والسير لمحاصرة الخرطوم بدأها بقراءة الفاتحة ثم أخذ يغري الناس بالقتال والاستشهاد، فلما أتم خطبته أخذ الدراويش في الدعاء والتكبير وقد هاجت عواطفهم، ثم أخذ في

استعراضهم، وأمرهم بالسفر إلى منطقة الخرطوم لنصرة الدراويش المحاصرين لها، ثم عاد إلى مجلسه بعد أن وكل قيادة الحملة إلى الأمير ولد النجومي، على أن يتولى هو القيادة العامة بعد وصوله إلى هناك.

وكان من قواد المهدي في حصار الخرطوم الأمراء: أبو جرجه، وولد البصير حمد المهدي، والأمير الفضل، والأمير عبد القادر ولد أم مريم، والأمير مصطفى ابن الفقي الأمين، وشيخ الأبيض. وغيرهم.

وعلم شفيق من رفيقه حسن أنه دبر له أمر السفر مع هذه الحملة في صحبة ولد النجومي بصفته أحد الكتبة، فسر لذلك كثيراً وشكره، كما علم منه أن عدد الحملة عشرون ألفاً، وأن معظم الدراويش يحيطون بالخرطوم وأم درمان وقد بدأوا الحصار منذ عودتهم من وقعة هيكس أي قبل أن يأتي غوردون إلى السودان، فسأله: "أذاهب أنت معنا إلى هناك؟". فأخبره بأنه لم يتلق أمراً بذلك بعد، وهنأه بهذا السفر لأنه سيكون قريباً من بلاده وربما أتيح له الخروج من معسكر الدراويش ودخول الخرطوم فيصبح في حمى الحكومة المصرية.

ففرح شفيق بذلك إذ رأى فيه باباً للفرج، وذهب إلى حجرته وأخذ في الاستعداد، ثم سافرت الحملة في اليوم التالي يتقدمها الفرسان وفيهم الأمراء، ثم المشاة وجميعهم في لباس الدراويش، ووراء الجميع النساء والأولاد.

وكان شفيق قد اعتاد طعام الدراويش، وكانوا يقصرونه في السفر على الذرة اليابسة، فيحمل كل منهم جراباً فيه قدر من الذرة، يأكل منه شيئاً كلما جاع، وقل بينهم من يحمل ماء ولو كان طريقهم في الصحراء لأنهم يصبرون على العطش.

وما زالت الحملة سائرة في البر تمر تارةً بصحراء وطوراً بغابات وأخرى في جبال، حتى وصلوا إلى جوار الخرطوم، فبعث ولد النجومي إلى رجال

المهدي في المناطق المجاورة فأخذوا في الاجتماع من سائر الجهات حتى زاد عددهم على مائة ألف، ففرقهم فرقاً وأرسل كل فرقة إلى مركز في جوار الخرطوم.

والخرطوم تقع عند ملتقى النيلين الأزرق والأبيض اللذين يتكون منهما النيل، ويحدها من الشمال النيل الفاصل بينها وبين الجزيرة والبر الآخر، ومن الغرب البحر الأبيض، ومن الجنوب سور موصل بين النيلين. وكان شفيق قد شاهد ذلك السور لما مر بالخرطوم بالمرة الماضية ولكنه علم عند وصوله هذه المرة أنهم حفروا حوله خندقاً كبيراً في غيابه حتى أصبح منيعاً. وهو قائم على مسافة من المدينة وبينهما فضاء.

وشدد ولد النجومي الحصار على الخرطوم فبعث فرقاً من رجاله إلى البر المقابل لها من الشمال، وفرقاً إلى البر الآخر المقابل لها في الغرب، وبقي هو في فرقته وراء السور بالقرب من محلة يقال (كلاكلا). كما شدد الحصار على أم درمان في البر الغربي مقابل الخرطوم، حتى أصبح غوردون وأهل الخرطوم في ضيق عظيم ولبسوا لباس الجوع والخوف.

وعلم شفيق من استطلاع أحوال أهل الخرطوم أنهم في ضيق، وأنهم ينتظرون نجدة من إنجلترا لإنقاذهم، ثم مضى حوالي ثلاثة أشهر ولم تأت تلك النجدة، حتى يئس أهل الخرطوم وقلت رغبة شفيق في الفرار إليها خوفاً من أن يفر من بلاء فيقع في أعظم منه ويكون عرضة للقتل إذا ظفر المهدي بالمدينة.

وبعد قليل جاء المهدي من الأبيض وانضم إلى جنوده في الخرطوم فأصبحت قوة المهدويين عظيمة حتى لم يعد عند شفيق شك في سقوط المدينة إذا لم تأت النجدة المنتظرة. واستشار صديقه السوري، وكان قد جاء إلى هناك، في أمر الفرار إلى الخرطوم، فضحك حسن قائلاً: "والله لو آنست من الفرار نفعاً لكنت أول الفارين، ولكنني أؤكد لك أن الخرطوم

لا تستطيع المقاومة طويلاً لأنها في ضيق من قلة المؤن كما قد علمت، فالأفضل أن تكظم ما بك لنرى ماذا يأتي به الغد".

فصبر شفيق على مضض، وفيما هو جالس يوماً يفكر في حاله، جاءه حسن ضاحكاً وقال له: "ما الذي يهمك الآن في هذه الغربة؟".

قال: "يهمني أن أعرف ما جرى لأهلي". فقال له: "إن الرسول قد عاد من القاهرة، فهيا قابله".

فكاد شفيق يجن من الفرح، ومضى معه إلى الرسول، فقال له هذا: "لقد سألت عن أبيك في قنصلية إنجلترا، فعلمت أنه باع أمتعته وهاجر الديار المصرية، ولا يعلم أحد أين توجه، فذهبت إلى بيت الباشا فقيل لي: إنه هاجر إلى الشام ولكن امرأته في البيت، فدفعت إليها الكتاب ولم تعطني جواباً!".

فأخذ شفيق يندب سوء حظه ويبكي حزناً على والديه وعلى فدوى.

وأخبرهما الرسول أن الحكومة الإنجليزية أعدت حملة لإنقاذ غوردون باشا والخرطوم، فتشاورا فيما يعملان واستقر رأيهما أخيراً على الصبر حتى تأتي الحملة الإنجليزية.

-١٥-

وقعة ابن طليح والمتمة

علم المهدي بعد أيام بوصول الحملة الإنجليزية إلى كورتي، وأنها عازمة على مواصلة السير في صحراء البيوضة إلى المتمة وشندي ومنها إلى الخرطوم، فبعث بعض رجاله بقيادة موسى ودخلوا وابي صافية ليقطعوا عليها الطريق عند آبار أبي طليح وراء المتمة، ويمنعوها من الوصول إلى النيل.

وفي اليوم العشرين من يناير سمع شفيق إطلاق المدافع في معسكر

المهـــدي، فعجب لذلك إذ لم يكن هناك ما يوجب ذلك وهم بعيدون من الخرطوم والدراويش ليسوا في حالة حربية، فسار إلى صديقه حسن وفيما هـــو في الطريق إليه مر بجماعات من الدراويش في أيديهم قبعات وثياب إنجـــليزية فأوجس خيفة من أن يكونوا قد ظفروا بالحملة الإنجليزية، فلما وصـــل إلى صـــديقه سأله عن السبب فقال له: "إن المهدي علم بانكسار رجالـــه في أبي طليح والمتمة، فأراد أن يوهم من معه خلاف ذلك، فأمر بـــإطلاق مائة مدفع ومدفع علامة النصر، وجاءهم بتلك القبعات والثياب عـــلى أنهـــا بعض الأسلاب وقد سمعت أنه جمع خلفاءه والمقربين إليه من الأمـــراء في هـــذا الصـــباح للشـــورى، وفي المساء نعلم ماذا يكون من اجتماعهم".

فقـــال شـــفيق: "كيـــف يمكنك أن تعرف ذلك إذا كانت الشورى سرية؟".

قـــال: "إن لي بيـــنهم صديقاً حميماً لا يخفي علي شيئاً، فإذا أتيتني في صباح الغد أخبرك بما تم".

وفي الصباح التالي جاء شفيق وقد صمم على الفرار من معسكر المهدي إلى الخـــرطوم، فلما التقى بصديقه حسن استطلعه الخبر فقال له: "اجلس لأخبرك بما تم في اجتماع أمس".

فجـــلس شفيق وجلس حسن بجانبه وقال: "لقد اجتمع المهدي أمس بخلفائه والمقربين من رجاله، ولما استتب بهم الجلوس قرأوا الفاتحة ثم قال لهم المهدي: (جاءتني الحضرة في الليل العابر وقد جمعتكم لأقص عليكم ما قاله لي ﷺ فقـــد أمـــرني بالهجرة إلى الأبيض، لأن الإنجليز قوم لا نقوى على قـــتالهم، فـــإذا كان غوردون وهو فرد منهم قد دافعنا شهوراً فكم يفعل الآلاف منهم وقد ظفروا برجالنا المحنكين في أبي طليح، أفلا يستطيعون أن يغلـــبونا هنا؟). فوافقه الجميع إلا الأمير محمد عبد الكريم فإنه عارض في

الهجرة قائلاً: (الأحسن أن نهاجم الخرطوم فإذا ظفرنا بها فلا يعود الإنجليز ولا غيرهم يستطيعون الوقوف أمامنا، وإذا ظفروا بنا فإن الهجرة مستدركة). وارفض المجلس على أن يعودوا إلى الاجتماع مرة أخرى".

فقال شفيق: "ها قد تحققنا حبوط مسعى المهدي و لم يعد لدينا ما يمنع انحيازنا إلى حامية الخرطوم".

فقال حسن: "إن لدي موانع تحول دون مرافقتي إياك الآن، فسر أنت في حراسة الله، وإذا قدر لنا الاجتماع ثانية فإننا لا نفترق بعد ذلك".

★★★

وعند الظهر انتهز شفيق فرصة اشتغال القوم بالصلاة وسار يريد باب المسلمية من أبواب سور الخرطوم، فلما بعد عن معسكر المهدي رفع عصا عليها منديل أبيض، فلما رآه حماة الخرطوم من السور علموا أنه آت مسالماً، ففتحوا له الباب فانذهل لما شاهد من متانة ذلك السور وعمق خندقه، وكانوا قد حفروه أثناء غيابه وعرضه نحو ١٧ متراً وعمقه عشرة أمتار فقال في نفسه: "إن مثل هذه الحصون لا يمكن أن يتخطاها الدراويش". وسار به الحراس إلى فرج باشا قومندان الحصون، وكان أسود اللون طويل القامة، فلما رأى شفيقاً في لباس الدراويش سأله عن أمره فقال: "أريد مقابلة غوردون باشا". فأخذه وسار به إلى المدينة حيث تقع سراي الحكومة على البحر الأزرق ويقيم بها غوردون، فنظر شفيق إلى جانبيه عند دخوله السور فإذا بالجنود قد تفرقوا جماعات وأسلحتهم منصوبة على طول ذلك السور، والرجال بين متوسدين خائري القوى ومتضورين جوعاً، وقد علت وجوههم علامات الضعف واليأس فلما رأوا شفيقاً استبشروا بقدومه ظناً منهم أنه إنما جاء لمخابرة سرية ربما كان فيها خير لهم، وكانوا يظنون أن المهدي بعد أن علم بمجيء الحملة الإنجليزية أصبح راغباً في الصلح والتسليم، ولكنهم كانوا في ريب من أمر المدافع التي

أطلقت في الليلة الماضية، لعلمهم أن مثل ذلك العدد من المدافع لا يطلق إلا لانتصار، فتقاطر جماعة منهم ينظرون إلى شفيق وهم بين مصري وسوداني وباشبوزق وغير هؤلاء، فرأوا على وجهه أمارات البشر وأنه ليس على شاكلة رجال المهدي إلا بلباسه فأحبوا أن يسألوه عن أمره فانتهرهم الضابط السائر بصحبته وأمرهم بأن يرجعوا. وكانوا قد وصلوا القشلاق في وسط تلك الساحة فدخل بعضهم القشلاق وعاد الآخرون إلى السور. أما شفيق فما زال سائراً حتى دخل المدينة فإذا بها قليلة الناس لتقلد أهلها السلاح واشتراكهم في الدفاع، ولم ير أسواقاً مفتوحة ولا أحد ماراً فيها ما خلا بعض الفقراء المطروحين في الشوارع يتضورون جوعاً. وشاهده أحدهم فلما رآه بلباس الدراويش والحراس بجانبه صاح به قائلاً: "أما تخافون الله وأنتم مسلمون، كيف تمنعون عنا المؤن، وإذا كان صاحبكم مهدياً حقاً فكيف يستحل دم المسلمين؟". فضحك شفيق ولم يجب ببنت شفة، ولكن قلبه كاد يقطر دماً لما عاينه في تلك المدينة من الضيق، وخاف أن يتهور بعض أهلها فيرميه برصاصة أو سهم.

★★★

ولما وصلوا إلى باب السراي سأل حراس شفيق عن الحكمدار فقيل لهم: "إنه سار لتفقد قلعة بوري عند الطرف الشرقي للسور، وربما يسير من هناك على محاذاة السور لتفقد حاميته، ثم ينقلب إلى الغرب لتفقد قلعة موكران على ضفة النيل غربي المدينة". فاضطر شفيق إلى الانتظار هناك ريثما يعود الحكمدار حوالي الغروب للاجتماع بأعيان المدينة. وأدخلوه غرفة جلس فيها ينتظر عودة غوردون، فجلس يفكر فيما وصلت إليه حامية المدينة ويعجب لتأخر الحملة الإنجليزية إلى ذلك الوقت، ولكنه قال في نفسه: "إن الذين تحملوا الحصار سنين لا يصعب عليهم احتماله أياماً قليلة". وكان ينتظر الفرج القريب لأنه علم أن جيش المهدي خائف من الإنجليز وعول على أن يطلع غوردون على مقاصد المهدي. ثم تصور أنه نجا

مـــن تلك الأخطار وعاد إلى القاهرة فاضطرب فؤاده لتذكره ما أخبره به الرسول من سفر فدوى إلى الشام لتغيير الهواء، وخطر رسمها في باله فمد يده إلى جيبه ليستخرجه ولكنه سمع وقع أقدام كثيرة ولغطاً، فأصاخ بأذنيه فـإذا بجماعة يسألون عن غوردون باشا وهم يتكلمون العربية والإنجليزية والفرنسـية، فأطل من نافذة تشرف على صحن السراي فإذا بجماعة من الأعيـان يرتدي أكثرهم الملابس الإفرنجية، فتأملهم جيداً فعرف أكثرهم، وفي جملـتهم: "المستر بور مكاتب جريدة التيمس وكان قد جاء بصحبة حملة هيكس وبقي في الخرطوم بعد مسيرة الحملة، والمدير أحمد علي بك، ونيقـولا ليونتيدس قنصل اليونان، وإبراهيم فوزي بك، وفتح الله جهامي أحـد التجار السوريين وكان قد تقلد مصلحة النقل والحمل، والدكتور نقـولا بـك مفتش صحة السودان العام. وآخرون لم يعرفهم. وسمعهم يتضجرون من تلك الحالة ويتذمرون فيما بينهم من إبطاء وصول النجدة. فعـلم مـن مجمل حديثهم أنهم آتون للمفاوضة في وسيلة يصلون بها إلى نتيجة.

وفـيما هـو ينظر إليهم جاءهم رجل في لباس رسمي علم من ملامح وجهـه أنه يوناني النـزعة وتأكد بعد ذلك أنه جرياجس بك باشكاتب غـوردون فاسـتقبل هؤلاء الأعيان وقادهم إلى القاعة لينتظروا فيها قدوم الباشا.

★★★

وعـند الغروب علم بعودة غوردون، ثم لحظه ماراً في صحن السراي مطرقاً عابساً لا يلتفت يمنة ولا يسرة، ورآه يهم بالصعود إلى القاعة فابتدره وخاطبه بالإنجليزية، فالتفت بغتةً فلم ير أحداً في لباس الإنجليز، فناداه ثانية فـنظر إليه فلم يتحقق صورته لأن الظلمة كانت قد بدأت تسدل نقابها، فوقـف وسـأله: "من أنت؟". قال: "إني من ضباط الجيش الإنجليزي".

فاختلج قلب غوردون لأن لفظ الجيش الإنجليزي كان نصب عينيه ليلاً ونهاراً وقد أقلق أفكاره ومل انتظار مجيئه، فتقدم إلى النافذة وأمر بالنور فجيء إليه فتأمل الرجل فإذا هو بملابس الدراويش ولكن صورته غير سودانية فأمر بإخراجه وأن يلحق به إلى القاعة. وجلس الجميع هناك ينظرون إلى شفيق متعجبين، فابتدرهم غوردون قائلاً: "لا تعجبوا لهذا الرجل ولباسه فإنه حمل في ثياب الذئاب". ثم التفت إلى شفيق وسأله: "ما اسمك وما الذي جاء بك إلى هنا؟". قال: "اسمي شفيق وقد جاءت بي إلى هنا الأقدار". وحكى لهم الحكاية من أولها إلى آخرها فلما وصل إلى المدافع التي أطلقها العصاة، وما دار بين المهدي وأمرائه ضرب غوردون الأرض برجله والتفت إلى من حوله وقال: "ألم أقل لكم يا سادة أنهم لم يقصدوا بتلك المدافع إلا إيهام رجالهم خلاف الواقع تشجيعاً لهم، وقد عرفت ذلك من المرأة التي كنت أرسلها لاستطلاع أخبارهم؟".

فانقشع عن وجه الجلوس بعض العبوس وأخذوا ينظرون إلى شفيق نظرهم إلى رجل جاءهم رحمة، وجعلوا يسألونه عن حركات المهدي وقواته فأخبرهم بكل شيء إلى أن قال: "إن هؤلاء الدراويش على جانب عظيم من البسالة والإقدام، لا يبالون الموت، وهم متعاقدو الأيدي مرتبطو القلوب لا شيء يثنيهم عن القتال، وهم ينزلون كلام المهدي منزلة الوحي ولا سيما إذا ادعى (الحضرة) كما أخبرتكم. أما إذا صبرتم على قتاله فإنه لا يقوى عليكم لأنكم تعلمون مما قدمت أنه في خوف وإذا لقي مقاومة شديدة يخور عزمه ويعود على أعقابه إلى الأبيض".

فقال قنصل اليونان: "من لنا بالدفاع وأهل المدينة منطرحون في الأسواق عشرات يتضورون جوعاً، وهل نلومهم إذا أرادوا الخروج إلى العدو فإن الحامية نفسها لا مؤونة عندها على ما سمعت".

فقال فتح الله الجهامي: "إننا لم نسمع بحصار مثل هذا الحصار، ولا نفهم معنى لإبطاء النجدة إلى هذا الحد، ونحن في مثل هذه الحال من

الضنك والخطر".

ثم التفت إبراهيم فوزي بك إلى غوردون باشا وقال: "إننا جئنا لنستفهم عن أمر الحملة، فقد ضاقت نفوسنا وحارت قوانا وهلكت أولادنا ونساؤنا، وانحطت ثقتنا، وأصبحنا في حال لم يصل إليها أحد قبلنا ولن يصل إليها أحد بعدنا".

فالتفت إليه غوردون وعلامات التأثر ظاهرة في وجهه وقال لهم: "ما الذي تريدونه مني؟... مروني بما شئتم فأنفذ أمركم، إنني أقسم لكم بالشرف أني لم أكذب في شيء مما قلته لكم، وإني لأفضل الموت على التفوه بغير الصحيح، كما أني على استعداد لأن أخلي لكم مركزي ليشغله من أراد منكم على أني أؤكد لكم أنه لن يستطيع أكثر مما فعلت، وعلى كل حال، أرى أننا صبرنا كثيراً و لم يبق إلا القليل، والحملة الإنجليزية في المتمة الآن وستكون هنا بعد يومين".

وكان شفيق خلال ذلك الحديث ينظر إلى غوردون فوجده قد نزع الطربوش عن رأسه وقد خف شعره وشاب ما بقي منه وقطب وجهه وأسند خده إلى كتفه، فساد الصمت حيناً، ثم وقف الجميع وانصرفوا وعاد غوردون بعد أن ودعهم إلى القاعة فوقف له شفيق احتراماً فنظر إليه ممسكاً طربوشه بيده اليسرى وخاطبه وقد أخذ منه الضجر كل مأخذ قائلاً: "أرأيت مثل هذا الإهمال؟ ها قد مر علي أكثر من ستة أشهر وأنا أنادي بأعلى صوتي مستنجداً أصحابنا في لندن لإنقاذ حاميات السودان، فبعد أن شبعوا من المحاورة والجدل في برلمانهم أقروا إرسال النجدة، ولكني لا أظنها تصل قبل أن يصل إلينا الموت، فإن أهل الخرطوم بعد أن كانوا يحترمون مقالي احترامهم لكلام منزل أصبحوا لا يصدقونني لكثرة ما وعدتهم وأخلفت اعتماداً على وعود أصحابنا في لندن. فهل تصل تلك الحملة ونرى رجلاً منهم في الخرطوم؟". ثم رمى بطربوشه إلى المقعد وجلس

مطرقاً ويده في جيبه ثم تناول سيجارة من علبة بجانبه وأشعلها وراح ينفث الدخـــان في قـــلق ملحوظ. فهاب شفيق غضبه ولبث صامتاً حتى قال له غوردون بعد قليل: "فلندع المقادير تجري في أعنتها". ثم أمر بإحضار بذلة لـــه ليرتديها بدلاً من ثياب الدراويش، ودعاه إلى الطعام فتناولاه ومعهما كبار الموظفين و لم يفه أحد منهم بكلمة.

★★★

أمضى شفيق ليلة في السراي بالخرطوم، وفي الصباح سأل عن غوردون فقيل له: "إنه على سطح السراي يراقب حركات العدو بالنظارات". وكان ذلـــك شغله في معظم النهار فينظر تارةً إلى العدو وطوراً إلى النيل يترقب عـــودة البواخر التي أرسلها لملاقاة الحملة الإنجليزية في جهات شندي، فلم يجرؤ شفيق على الصعود إليه ومخاطبته، وعاد إلى حجرته، ثم خرج منها إلى غـــرفة الاستقبال فوجد فيها بعض الكتب والجرائد الإنجليزية فأخذ يتلهى بمطالعتها ريثما ينـــزل غوردون، ثم لاحت منه التفاتة إلى رسم فوتوغرافي بـــين الجرائد والأوراق فما كاد يراه حتى خفق قلبه بشدة إذ علم أنه رسمه الـــذي أعطاه تذكاراً لفدوى، وقد أدرك ذلك من توقيعه عليه لأن الرسم كان مقطوع الرأس، فأخذت ركبتاه ترتجفان، وهو لا يصدق أنه في يقظة. ثم جعـــل يفكر فيما جاء بالرسم إلى ذلك المكان، وفي قطع رأسه. وبقي واقفاً مطرقاً والصورة في يده حتى سمع الجنرال غوردون يخاطبه مسلماً فانتبه فـــإذا هو قد نزل من السطح والنظارات بيده، فبهت شفيق ثم رد التحية حانيـــاً رأسه احتراماً، ولكنه لم يستطع إخفاء ما كان فيه من الاضطراب والرسم لا يزال في يده على أنه تجلد خوفاً من ظهور دلائل الوجد والغرام على وجهه لأنه ليس في حال تتيح له ذلك.

أمـــا غوردون فحمل تلك المظاهر على خوف شفيق سقوط الخرطوم بعد أن سمع ما سمعه بالأمس فابتدره قائلاً: "لا تجزع يا عزيزي، إن قضاء الله سبحانه وتعالى لا مفر منه ويجب ألا تعود نفسك على الخوف وأنت في

شرخ الشباب".

فتجلد شفيق وحاول التبسم ثم قال: "إني يا سيدي لا خوف علي طالما كنت والجنرال غوردون في حال واحدة إذ لست أفضل منه".

فقال غوردون: "ولكن يا ولدي لا يخفى عليك أني قد أمسيت شيخاً وقد انقضت أيامي، أما أنت فلا تزال في أول حياتك وربما كانت لك فتاة وتود البقاء من أجلها".

فعاد قلب شفيق إلى شدة الخفقان، ولم يمكنه الجواب لتلعثم لسانه، ولما حاول الإجابة سبقته العبرات، فظنه غوردون يبكي خوفاً من وقوع القضاء فقال له: "اعتبر يا بني بما يقاسيه الإنسان من الأخطار في هذا العالم وكيف يكتب الله نجاته منها".

فتنهد شفيق تنهداً عميقاً، وأراد أن يسأل عن الرسم وسبب وصوله إلى تلك الغرفة لكنه لم يجرؤ على إطالة الكلام لعلمه بأن الرجل مشغول بما هو أهم.

وأخيراً جلس غوردون على المقعد وأشعل سيجارة أخذ ينفخ دخانها ويتلهى بنفض رمادها بإصبعه وينقلها من يد إلى أخرى مكرراً ذلك مراراً حتى أمست القاعة تعج بالدخان عجيجاً.

ومضت بضع دقائق وهما صامتان، وغوردون كلما انتهت سيجارة أشعل غيرها وهو لا يهدأ في جلوسه لحظة. وفيما هما في ذلك دخل جندي يقول: "إن بورديني بك بالباب". فقال غوردون: "دعه يدخل". فدخل الرجل وعليه الجبة والقفطان والعمامة وهم بيد الباشا ليقبلها، فلما رآه في تلك الحال من القلق اضطرب فؤاده ولم يعد يجرؤ على مخاطبته مع ما كان له من الدالة عليه، أما غوردون فقال له: "ماذا أقول الآن؟". إن الناس لا يصدقونني لكثرة ما أنبأتهم بقرب وصول النجدة ثم لم تصل".

وكـــان بورديني بك من كبار تجار المدينة، وقد جاء يدعو الباشا إلى جلســـة يتخذون فيها قراراً نهائياً بشأن الدفاع، فرأى أن الباشا لا يستطيع وهو في هذه الحال من الغيظ أن يحضر الجلسات فتركه وانصرف. ثم نهض غوردون وفي يده النظارة المقربة وصعد إلى سطح السراي ليراقب حركات الأعداء المحدقين بالمدينة من جهاتها الأربع. فعاد شفيق إلى غرفته والرسم في يده يعيد النظر إليه مفكراً. ولاح له أن يحافظ على ملابس الدراويش التي جاء بها لعله يحتاج إليها فتفقدها، وحفظها في مكان بالغرفة، وصبر ليرى ما يكون.

-١٦-

سقوط الخرطوم

قضى شفيق ليلته يراقب حركات غوردون فإذا هو قد ظل حتى نصف الليل ساهراً يكتب، ثم سمع شفيق صوت إطلاق المدافع فنهض مذعوراً فإذا بـــأهل الســـراي يتراكضون، فسأل عن الباشا فقيل له: "إنه على سطح السراي يطلق المدافع على الأعداء". فصعد إليه فإذا هو في لباس النوم يطلق القنابل والعدو هاجم على الأسوار.

وبعـــد قـــليل شاهد شفيق جماهير العصاة قد دخلوا السور من باب المســـلمية وامتلأت بهم الساحة وما زال غوردون يطلق القنابل عليهم من الســـطح حوالي ساعة حتى اقتربوا كثيراً، فلم يعد يستطيع تصويب المدافع نحوهم. ثم رأى شفيق أعلام المهدويين تخفق في وسط الجماهير فتحقق لديه أن قد قضي الأمر، فأعمل فكره للنجاة بحياته، فسارع إلى غرفته وارتدى ملابـــس الدراويـــش بعـــد أن تحقق أن الدفاع لا ينفعه شيئاً، ثم نزل من السراي فشاهد جماهير العصاة عند باب السراي يريدون الدخول، ثم تقدم أربعـــة مـــنهم ودخلوها فالتقوا بغوردون عند رأس السلم وقد لبس ثيابه وتقلد سيفه وحمل المسدس بيده فهجم عليه أحدهم ونادى بأعلى صوته:

"آه يا ملعون اليوم يومك". وطعنه بحربة ألقته صريعاً. فأجهز عليه رفاقه.

وكان ذلك قبل شروق الشمس فسقط غوردون صريعاً يتخبط بدمائه، ولم يستطع شفيق النظر إليه فترك السراي ونزل إلى الشارع حيث اختلط بالدراويش متظاهراً بأنه واحد منهم. وكان كثيرون منهم يعرفونه ولم يعلموا أنه فر من معسكرهم فظنوه على دعوتهم. ثم رأى درويشاً حاملاً رأس غوردون يريد إيصاله إلى المهدي، مع أن المهدي كان قد أمر بالإبقاء على حياته، ودامت المذبحة ست ساعات ولم يكف الدراويش عن القتل حتى أمرهم المهدي بذلك.

واغتنم شفيق فرصة اشتغال الدراويش بالنهب والقتل وطلب شاطئ النيل، فوجد خشبة هناك اتخذها بمثابة قارب، وما كاد يبتعد بها من الشاطئ حتى بصر به بعض الدراويش فرموه بالسهام ورصاص البنادق فأصابه سهم في فخذه، لكنه ما زال ماضياً في السباحة بالخشبة حتى أتى جزيرة حلفايا قبالة حلة والتجأ إلى شجرة هناك، وكان الليل قد سدل نقابه فلم يعلم به أحد، لكنه كان في خوف عظيم لانتشار الدراويش في تلك الجهات.

وقضى شفيق ليلته ساهراً يفكر في وسيلة لنجاته، أما جرحه فكان طفيفاً وقد ضمده بقطعة من عمامته. ثم نهض في الصباح فارتدى ملابس الدراويش، وكان قد اسود لون جلده من الحر، وأتقن اللهجة السودانية وعرف اصطلاحات الدراويش في حديثهم وصلاتهم وسائر أحوالهم، فأخذ يجول في الجزيرة حافياً والسبحة في عنقه يكرر الشهادة والدعاء لنصرة الدراويش وإبادة الكفار حتى وصل إلى مكان اشتم فيه رائحة خاصة بأهل السودان يشتمها الإنسان عن بعد، فتقدم نحوها حتى وصل إلى بيت صغير فيه ثلاثة من أهل القرية، فحياهم بتحيتهم المعتادة، فردوا التحية ودعوه إلى الطعام، وسألوه عن حاله فزعم أنه ممن جاءوا للجهاد في سبيل الإمام

المهدي وقد أصيب برصاصة في رجله أثناء هجومه على المدينة فلم يعد يستطيع الجهاد، فقال أحدهم: "إنك والله قد نلت أجراً عظيماً، ويا حبذا لو أصبنا بمثل إصابتك، وعلى كل حال قد أوقع الله النصارى (يريد الإنجليز) في شر أعمالهم، ولم يعودوا يقدرون على المجيء إلى هنا بعد سقوط الخرطوم، وبعد أن رصدهم سيدنا الإمام".

فلم يفهم شفيق معنى ذلك الرصد، فقال: "وكيف كان ذلك؟". فقال أحد القرويين الثلاثة: "يظهر أنك لم تسمع الخبر، إن رجال سيدنا الإمام عثروا في السنة الماضية وهم سائرون إلى الدبة بجاسوس من جواسيس الكفار كان آتياً إلى غوردون، ففر الجاسوس تاركاً متاعه، وكانت فيه صورة من صور عساكر النصارى فسلموها للإمام فأخذها وقطع رأسها بسيفه ثم بعثها إلى غوردون في الخرطوم لينذره بأن القادمين لإنقاذه سيصيبهم مثل ما أصاب تلك الصورة!".

فأدرك شفيق أن تلك الصورة هي صورته وفهم معنى قطع رأسها ولكنه لم يفهم كيف جيء بها إلى السودان ولا من جاء بها فأخذت منه الهواجس كل مأخذ، لكنه خاف أن يظهر عليه ذلك، فتجلد وتظاهر بالدعاء للمهدي. ثم جاء القوم بقدر بها ماء يغلي، ووضعوا فيها شيئاً من الويكة (فتات ورق الباميا الجاف) وجعلوا يحركونه في الماء حتى صار مزيجاً لزجاً، وأخيراً أخرج كل منهم رغيفاً من خبزهم الأسمر الملبد، وأعطوا شفيقاً رغيفاً مماثلاً، وراحوا يغمسون اللقيمات في ذلك المزيج ويأكلون ويلحسون أصابعهم بعد كل لقمة، ففعل مثلهم.

وفيما هو يأكل لاحت منه التفاتة إلى الورقة التي كانت بها الويكة الجافة فما تأملها حتى خفق قلبه ووقفت اللقمة في حلقومه، إذ وجد بها كتابة بخط يشبه خط فدوى، فتناول الورقة دون أن يشعر بذلك مضيفوه ودسها في ثيابه، ولم يعد يستطيع طعاماً من شدة التأثر، فنهض متظاهراً بالذهاب لقضاء حاجة. ثم فتحها وأخذ يقرؤها فإذا هي كتاب فدوى إليه

من بيروت منذ عشرة أشهر، فعجب لهذا الاتفاق، وأخذ يبكي ويتحرق لعدم استطاعته الوصول إليها ولولا تعوده المشاق والأخطار لأغمي عليه، لكنه تجلد وعاد إلى رفاقه حيث قضى معهم بقية ذلك النهار ثم غادرهم شاكراً حسن ضيافتهم، وسار حتى وصل إلى مكان منعزل في الجزيرة فجلس يفكر في أمر فدوى ويبكي نادباً سوء بخته وما وصل إليه.

★★★

في منتصف اليوم التالي (٢٨ يناير ١٨٨٥) شاهد شفيق باخرة قادمة على النيل فوقها العلم الإنجليزي فعلم أنها قادمة لإنقاذ غوردون من الخرطوم، فقال لنفسه: "سامحكم الله على إبطائكم لقد ذهبت أعمالكم أدراج الرياح". ورأى أن نزوله إلى تلك الباخرة آمن له من البقاء هناك فنظر إليها من الجزيرة فإذا هي تجر وراءها صندلاً مشحوناً بالعساكر السودانيين، فأشار إلى من فيها إشارة علموا منها أنه من جندهم، فاقتربوا بالباخرة من الجزيرة ودلوا له خشبة صعد فوقها إليهم فاجتمع إليه الجنود الإنجليز ينظرون إلى لباسه وهيئته ويعجبون، ثم ذهبوا به إلى ضابط لهم قصير القامة خفيف شعر العارضين نحيف البنية هادئ الطبع فهم من كلامهم أنه السير شارلس ولسن رئيس مخابرات الحملة النيلية التي جاءت لإنقاذ غوردون، فخلا إليه وقص عليه قصة مذبحة غوردون ومن معه في الخرطوم، وأشار عليه بألا يمضي إليها لأنها في قبضة العصاة، لكنه لم يصغ إلى مقاله، وسارت السفينة والدراويش يضربونها من الجانبين حتى وصلت إلى الخرطوم فتحقق السير شارلس صحة قول شفيق لما رأى أعلام المتمهدي تخفق فوق السراي والقشلاق والأسوار وغيرها. وهم بالعودة ولكن السفينة اصطدمت بعد ذلك بصخرة عند الشلال السابع فانكسرت وأوشكت أن تغرق، فهرول شفيق في جملة المهرولين إلى الصندل ونزل إليه والرصاص يتساقط عليهم من ضفتي النيل، وحملوا في ذلك الصندل ما

استطاعوا حمله من الناس والمتاع وجروه إلى الشاطئ حتى بلغوا جزيرة يقال لها جزيرة واد حبشي، ثم أرسل السير شارلس ضابطاً في قارب صغير إلى المتمة لإعلام الحملة بذلك الأمر لكي يسرعوا إلى إنقاذهم. ولبثوا على هذه الحال والخطر يزداد كل يوم حتى رأوا في مساء اليوم الرابع باخرة قادمة من جهة المتمة فعلموا أنها آتية لإنقاذهم فاستبشروا بالنجاة، وتعلقت أبصارهم بالباخرة حتى اقتربت من الجزيرة، ولكنهم ما لبثوا أن سمعوا إطلاق المدافع من جهات العدو، ثم علموا بالإشارات أن الباخرة أصيبت بقنبلة عطلت آلتها البخارية، وكاد كل من فيها يهلكون بقنابل الدراويش ورصاصهم وسهامهم، لولا أن تمكنوا من إصلاح الباخرة قبل صباح اليوم التالي، فواصلت سيرها حتى بلغت موضعهم فركبوها وعادوا بها في الظلام حتى بلغوا المتمة حيث معسكر الإنجليز على ضفة النيل الغربية في محل يعرف بالقبة.

وبعد بضعة أيام، انسحبت الحملة راجعة عبر صحراء البيوضة قاصدة كورتي لتسير من هناك في النيل إلى مصر، فكان سرور شفيق بذلك عظيماً، ووصلوا إلى كورتي بعد أربعة عشر يوماً مارين بأبي طليح وجكدول. وهناك جاءهم الأنباء من لندن بأن حكومتها قررت بقاء الجيش في كورتي حتى الشتاء، لمعاودة السير لفتح السودان، فكادت آمال شفيق تنهار، لكنه ما انفك يسعى حتى أذن له في أن يسير وحده إلى القاهرة، فأخذ ما يحتاج إليه، وسار تارة يركب جملاً، وطوراً قارباً، حتى وصل إلى القاهرة في أواخر شهر مارس سنة ١٨٨٥.

-١٧-

في قرية عاليه

لبثت فدوى في بيروت بعد أن استولت على الدبوس واستوثقت من ذهاب عبود بكتابها إلى شفيق في السودان، وهي على مثل الجمر، تأخذ

أباهـــا بالـــلين وتعده بإطاعة أوامره، وكان هو يلح على عزيز في أن يأتي بالمـــنوم المغناطيسي، فكتب عزيز إلى صديق له في باريس في هذا الشأن، وظلا ينتظران الرد.

وورد إلى الباشـــا ذات يوم كتاب من زوجته في مصر، في طيه كتاب شفيق الذي بعث به من الأبيض وفيه نبأ ببقائه حياً، فلما قرأ الباشا الكتاب خـــاف حـــبوط مسعاه في الاستيلاء على ثروة عزيز إذا عاد شفيق حياً. فأخفى الخبر عن ابنته لئلا تتشبث به.

ولاح له أن يسعى أولاً في وضع يده على أموال عزيز فخلا إليه يوماً ودار بينهما الحديث في شؤون مختلفة تطرق منها الباشا إلى مسألة الاقتران بفدوى، ثم قال له: "ما دمنا قد صرنا يا ولدي جسمين في شخص واحد، لأنـــك ســـتكون صهري وفي منـــزلة ولدي والوارث لكل أموالي إذ أن فـــدوى وحيدتي، فأرى أن نضم ممتلكاتنا بعضها إلى بعض، فإما أن أضم مـــالي إلى مـــالك وأكتب لك بذلك صكاً، وإما أن تضم مالك إلى مالي وتكتب لي به صكاً".

ففرح عزيز بذلك القول، إذ استدل به على تمكن محبته من قلب الباشا، وأيقن بزوال كل مشكلة من طريقه وكان يود أن يكون هو المستولي على المـــالين لكـــنه لم يجرؤ على التصريح بذلك. كما أنه أراد أن يظهر للباشا وثوقـــه بمحبته وصدق مواعيده فقال له: "إني يا عماه وما أملك في قبضة يدك، لأنك بمنـــزلة أبي".

ففرح الباشا لنجاح سعيه، وكان قد أعد الورق والدواة لهذا الغرض، فكتب عزيز صكاً بالتنازل عن كل أمواله للباشا، ثم أشهد على ذلك بعض الشـــهود، وناول الباشا الصك فجعله في جيبه فرحاً بتحقيق أمانيه، وهنا شـــعر عزيز بالخطأ الذي وقع فيه، ولكنه لم يجرؤ على استرجاع الصك، فلبث صامتاً مهموماً، لاستيقانه بأنه صار صفر اليدين لا يملك شيئاً، لكنه

عاد فتذكر أنه سيكون عما قليل قريناً لفدوى فتعود هذه الأموال وأموال الباشا جميعها إليه، فسكن جأشه قليلاً، وازداد تعلقاً بفدوى ورغبةً في الاقتران بها".

وفي يوم من أيام شهر مارس كانت فدوى في غرفتها سابحة في بحار الهواجس فدخل عليها بخيت وقال لها: "ورد علي كتاب من عبود ذكر فيه أنه وصل إلى قرب الخرطوم، لكنه لم يستطع دخولها لأنها تحت الحصار، وسيبقى في انتظار الحملة النيلية الذاهبة لإنقاذ حامية الخرطوم فيسير برفقتها".

فقالت: "إني يا بخيت قد بلغ بي اليأس منتهاه ولم أعد أستطيع صبراً". وبكت وأخذت تتأوه وتتحسر، فراح بخيت يواسيها ويمنيها، ثم خشي مجيء أبيها فاستأذن وخرج، وتركها نهباً للوساوس والأحزان.

وفي الليلة التالية رأت حلماً أزعجها كثيراً، لأنها رأت فيه شفيقاً مضرجاً بدمائه في صحراء السودان والنسور حائمة عليه تأكل من جثته، فاستيقظت مرتعبة باكية، وكتمت الأمر عن أبيها، ثم دعت بخيتاً وقصت عليه حلمها وهي تبكي ثم قالت له: "إذا كنت مخلصاً لي حقاً، فأتني بسم أتجرعه، لألحق بشفيق في العالم الآخر قبل أن يدرك مني ذلك اللعين وطراً!".

فقال بخيت: "لا بأس عليك يا سيدتي، والله لن ينال ذلك الوغد مسماراً في نعلك وأنا على قيد الحياة".

قالت: "إن الحياة لم تعد تحلو لي، فأتني بالسم وإلا خنقت نفسي بيدي". وحاولت خنق نفسها بيدها، فأمسكها بخيت وحاول تسكين ما بها فلم يستطع لأن عواطفها تسلطت على عقلها وأخذت تلطم وتثب كمن أصيب بجنة وقد حلت شعرها وقطعته وأوغلت في البكاء.

فوقع بخيت في حيرة وأخذ في البكاء معها، ثم لاح له أن يتظاهر

بموافقتها فقال: "سأفعل ما تريدين، ولكن خففي عنك الآن لئلا يأتي سيدي ويراك على هذه الحال".

فابتدرته قائلةً: "لم أعد أحسب حساباً لأحد، لأني لست مالكة رشدي، ولا أنا خائفة من شيء، وسأكون عما قليل في عداد الأموات".

فبكى بخيت تأثراً، ثم حاول تعزيتها والترفيه عنها كي تصبر حتى يأتي الرسول، فلما ذهبت محاولاته سدى، قال لها: "سأذهب لآتي لك بالسم، ولكن أمهليني بضعة أيام، لأن الصيدليات لا تبيع السموم بغير أمر الطبيب ولا بد لي للحصول عليه من تدبير وسيلة لذلك".

فقالت: "لا بأس ولكني أوصيك بالإسراع ما استطعت لأن الموت أفضل من حياتي هذه".

ثم ألقت بنفسها على السرير خائرة القوى، وخرج بخيت يبحث عن وسيلة لنجاة سيدته من هذه الحال، وخشي أن تعود إلى خنق نفسها بعد خروجه، فعاد لتفقدها بعد قليل فإذا بها ما زالت ممددة على السرير كأنها نائمة. ورأى على سرير الباشا بعض أوراق كأنه نسيها، ووقعت عينه بينها على ورقة مكتوبة بخط يشبه خط شفيق، فتأملها فإذا هي الورقة التي أرسلها شفيق من الأبيض إلى والديه ينبئهما ببقائه حياً، فأخذ بخيت يرقص طرباً كأنه أصيب بجنة، ولكنه خاف على سيدته من صدمة الفرح الشديد، فجاهد نفسه لإخفاء فرحه وانتظر حتى أفاقت، فما كادت تنظر في وجهه حتى قرأت فيه أمارات البشر فنهضت وسألته: "لعلك جئت بالسم المنشود؟".

فتلعثم ولم يحر جواباً، ثم تجلد وأخذ يمهد لإلقاء النبأ إليها لئلا تضرها البغتة فقال: "لقد جئتك بما هو خير وأبقى، فاتكلي على الله وهو يمنحك كل ما تريدين".

قالت: "أنت تعلم صدق إيماني بالله، غير أني أرى مماتي أقل شقاء لي من

حياتي".

قال: "وهل تحققت أن سيدي شفيقاً غير حي؟".

قالت: "إن ما علمناه يقرب من اليقين".

قال: "كلا يا سيدتي، بل الأرجح أنه على قيد الحياة".

فانتفضت فدوى عند سماعها ذلك وقالت: "ماذا تقول يا بخيت؟ هل سمعت شيئاً جديداً"؟.

قال: "هبي أني لم أسمع شيئاً، فإن قرائن الأحوال تدل على ذلك".

قالت: "أين هي هذه القرائن و لم أر واحدة منها".

قال: "أول القرائن أنكما وقعتما في ضيق وخطر مراراً فأنقذكما الله، وهذا دليل على أنه سبحانه وتعالى يريد بقاءكما لتتمتعا ببقية حياتكما. والقرينة الثانية أننا لم نسمع خبراً صريحاً بقتله أو موته. وأما القرينة الثالثة..". وسكت.

فابتدرته قائلةً: "وما هي القرينة الثالثة؟".

فقال: "إن القرينة الثالثة هي هذا الكتاب الصغير". ومد يده إليها بكتاب شفيق، فما كادت تشاهد خطه حتى شهقت وارتدت إليها قوتها وهمت بالورقة فاختطفتها وقلبها يخفق وفرائصها ترتعد، وأراد بخيت منعها فلم يستطع، ثم قرأت تلك الورقة وعيناها تكادان تطيران من اللهفة. و لم تتم القراءة حتى امتلأت عيناها بدموع الفرح والبشر. وظلت تعيد قراءة الكتاب ثانية وثالثة ورابعة، وأخيراً قالت لبخيت: "ما العمل الآن وما الرأي؟".

فقال: "الرأي أن ننتظر الفرج من عند الله فإنه على كل شيء قدير".

قالت: "وماذا نعمل في شأن ذلك الثقيل الذي سلطه الله على أفكار أبي حتى صمم على تبليغه مرامه؟".

قال: "ثقي بأنه غير بالغ مسماراً من نعلك، ولسوف ترين من بخيت ما يسرك".

قالت: "افعل ما بدا لك، ولكنني لا أرى أن أبي يميل إلى موافقته".

فتكلف بخيت الضحك وقال: "بل لقد تم اتفاقهما، ولكن ذلك الوغد لن يبلغ شيئاً ما دمت حياً ولو أتى بمنومي العالم كله!". ثم عض أنامله كأنه صرح بما لم يكن يريد التصريح به.

فقالت له فدوى: "ما معنى هذا الكلام؟ ومن المنومون الذين تعنيهم؟".

فحاول التخلص من الجواب، ولكنها ألحت عليه حتى خاف غضبها إذا لم يخبرها فقال لها: "إن في الأطباء اليوم فئة يستخدمون التنويم المغناطيسي، ومن خواص ذلك التنويم استهواء النائم والإيحاء إليه بأن ينفذ بعد استيقاظه كل ما طلب منه وهو نائم. وقد علمت من ثقة أن ذلك الخائن بعث إلى بلاد أوربا يستقدم طبيباً لينومك ويستهويك كي تحبيه".

فضحكت ساخرة وقالت: "إن جميع منومي العالم لا يمكنهم أن يحببوا إلي هذا النذل الخائن، وإذا مت فإن ترابي لا يحبه ولا يمكن أن يحبه".

فقال: "إن فعل الاستهواء غريب يا سيدتي، ولكني أخبرك بأنك تستطيعين رفض النوم، لأن أباك سيدعي أن ذلك الطبيب جاء لتطبيبك، فتظاهري أنك بخير ولا تحتاجين إلى طبيب، والأفضل أن تطلبي السفر من هذه المدينة لترويح النفس فإن الأطباء قد أشاروا بذلك في الشتاء ولم تكن الطريق مفتوحة لكثرة الثلوج. أما الآن فقد جاء الربيع والتحول في لبنان مما تتوق إليه النفس وينشرح له الصدر".

قالت: "لقد نطقت بالصواب، فأرجع هذا الكتاب إلى ما بين أوراق أبي لئلا يعلم باطلاعنا عليه، وسأدبر أمر سفري منذ الآن".

ولما كان وقت الغداء جاء الباشا ليتناوله مع فدوى. وكان قد قضى

نصف النهار مع عزيز فلما جلسا إلى المائدة أخذا بأطراف الحديث فقال الباشا: "أراك اليوم والحمد لله في صحة جيدة".

قالت: "نعم يا أبتاه وإني أشكر الله على ذلك ولكنني أشعر باحتياجي إلى الخروج من هذا الفندق ومن هذه المدينة".

قال: "وأنا أرى رأيك، فإلى أين تريدين الذهاب؟". قالت: "أسمع الناس يطنبون في مدح هواء لبنان ولا سيما في أوائل الصيف، فالأفضل أن نقصد إحدى القرى حيث يمكننا الإقامة بفندق أو منزل بضعة أشهر، ومتى انقضى الصيف عدنا إلى بيروت".

فاستغرب الباشا ذلك منها، ولكنه فرح به وخيل إليه أن تحسن صحتها نتيجة نسيانها شفيقاً، فازداد سروره.

وما انتهى من الغداء حتى انطلق إلى مقابلة عزيز وعلى وجهه أمارات البشر، فقص عليه ما دار بينه وبين فدوى، فقال عزيز وقد رقص قلبه فرحاً: "وأنا ماذا أفعل؟".

قال: "تتبعنا بعد بضعة أيام إلى قرية عاليه، وهي على مسافة ثلاث ساعات بالعربة من هنا. وموقعها في سفح جبل عال تشرف على بساتين وغياض".

ثم أمر الباشا بخيتاً أن يهيئ ما لزم للسفر، وبعد يومين سار الباشا وابنته وبخيت في عربة حتى وصلوا قرية عاليه فاتخذوا لهم مكاناً في بيت لبعض أهل القرية. ولم يمض شهران حتى تحسنت صحة فدوى كثيراً، وكانت تخرج مع أبيها أو مع بخيت إلى الكروم خارج القرية فتأكل ما حضر من الفاكهة. وتروح النفس باستنشاق الهواء النقي الذي ليس له مثيل في العالم.

أما عزيز فلحق بهم واتخذ مكاناً بالقرب من بيت الباشا حتى يطمئن قلبه على فدوى، دون أن يطمع في مشاهدتها. ولكنه كان يعلل النفس بمواعيد والدها، ورأى بعد مشورته لا حاجة إلى التنويم لأنها أخذت تسلو

شفيقاً.

وفي ذات يـــوم من أيام سبتمبر خرجت فدوى مع بخيت للنـــزهة في بعـــض الكروم، ولما استقر بهما المقام على صخر مرتفع مشرف على عدة آكام يكسوها كروم العنب والتين والمشمش وغيرها، وقد مالت الشمس إلى الـــزوال فأصبح منظر تلك التلال مع ما تشرف عليه من سواحل بحر الروم من بعيد منظراً بديعاً تزينه أشعة الشمس المائلة إلى الاصفرار ويكلل البحر عند الأفق الشفق المتعدد الألوان.

فقالت لبخيت: "ماذا نصنع بذلك النذل الذي ما زال يرجو المستحيل بعد أن علم بأني لا أستطيع أن أراه ولا يمكن أن أميل إليه، وقد وافقه أبي على قصده وأخشى أن يغريه بتعجيل الأمر فنقع في بلاء عظيم؟".

فابـــتدرها بخيت قائلاً: "طيبـــي قلباً يا سيدتي، وتحققي أن الفرج قد صار قريباً. أما أمر الاقتران فشيء يسهل تأجيله ما دمت تظهرين لسيدي أنك لا تكرهين ذلك النذل الخائن، وثقي بـــأن قتله أسهل لدي من شرب كـــأس مـــاء، ولكنني لا أرى داعيـــاً للتعجيل بذلك، فلا حاجة بنا لأن نعرض أنفسنا لقصاص الحكومة أو لغضب سيدي الباشا. أما إذا رأيت منه ما يكدرك فإني أقتله ولو كان داخل القلاع والحصون ولا أبالي ما يكون بعـــد ذلـــك. فاعمـــلي أنت على إلهاء سيدي الباشا عن إتمام ذلك الأمر بالأسفار ونحوها، حتى نعود إلى القاهرة ويكون الله قد أذن باطمئناننا فيما يختص بسيدي شفيق".

فقـــالت: "بـــورك فيـــك يا بخيت لقد نطقت بالصواب، فهيا بنا إلى المنـــزل لأن الشمس قد غربت". ونهضا عائدين إلى المنـــزل.

وفيما هما في الطريق لمح بخيت ساعي البريد قادماً من بيروت، فأسرع إليه وسأله: "أمعك خطابات لسيدي الباشا؟". وكان الساعي قد عرفه من

قبل، فسلمه كتابين أحدهما أكبر حجماً من الآخر كأن فيه أكثر من كتاب، فقالت فدوى لبخيت: "لعل في هذا الظرف كتاباً خاصاً بي، ومتى وصلنا إلى أبي نعلم الحقيقة".

ولما وصلا إلى السبيت وجدا الباشا هناك، فسلمه بخيت الكتابين، فأخذهما وجلس وابنته في الحجرة، وفض أول كتاب وقرأه، ثم فض الكتاب الآخر فإذا فيه كتاب آخر ورقه قديم، وكانت فدوى تختلس النظر إلى أبيها فلاحظت على وجهه علامات التعجب، فخفق قلبها ورغبت في استطلاع الأمر لكنها صبرت حتى يفرغ أبوها من القراءة، ثم رأته قد تناول الكتاب القديم وأخذ يقرؤه في ذهول، فلم تعد تستطيع صبراً، ولكن الباشا ما لبث أن تظاهر بانشغاله بأمر مهم خارج الغرفة ثم عاد وقد أخفى أحد الكتابين، فأدركت فدوى أن فيه شيئاً يخصها، ولكنها اكتفت بأن سألت أباها عن الأخبار فقال: "إن والدتك في خير، وهي تود المجيء إلى هنا لقضاء فصل الصيف والذهاب إلى دمشق لمشاهدة والديها".

فقالت: "حبذا مجيئها فإني أستأنس بها في هذه الديار، فهلا كتبت إليها لتجيء". قال: "سأفعل إن شاء الله".

وبعد العشاء، أوى الباشا إلى فراشه فتظاهرت فدوى بالرغبة في النوم هي الأخرى، ولكنها كانت قد اتفقت مع بخيت على أن يجيئها بالكتاب الذي أخفاه أبوها. فلما انتصف الليل، سمعت وقع أقدام في غرفتها وكان النور فيها ضعيفاً فانتبهت وجلست وأشعلت شمعة، فرأت بخيتاً في يده ذلك الكتاب فأخذته ودنت من الشمعة وأخذت تقرأه فإذا فيه:

"اعلمي يا زوجتي العزيزة أن حكاية ذلك الصندوق وذلك الشعر الملوث بالدماء حكاية قد كتمتها عن جميع المخلوقات أكثر من ثلاث وعشرين سنة. وقد كنت عازماً على كتمانها بعد ذلك، على أن إلحاحك وسفرنا في البحار الآن حملاني على كتابة هذا إليك حتى إذا أصابني سوء

في البحر أو البر قرأت هذه الورقة وعلمت حكايتي وأصلي وفصلي.

"أما أصلي فمن دمشق الشام، ولم يرزق أبواي غيري إلا ابنة واحدة، فأحسنا تربيتنا، وعشنا في رغد ونعيم حتى كانت حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ على أثر حوادث لبنان المفجعة التي ذبح فيها نصارى حاصبيا ودير القمر وغيرهم ذبح الأغنام بعلم رجال الحكومة. وذلك أن أحد المسيحيين في دمشق رأى السير على مقتضى التنظيمات التي سنها السلطان عبد الحميد سنة ١٨٥٦ بشأن البلدية العسكرية، ولكن أحمد باشا والي المدينة لم يوافق على ذلك، وكتب إلى الأستانة يشكو المسيحيين الدمشقيين ويتهمهم بالعصيان، فأذنت له في تأديبهم، فجمع إليه مشايخ المدينة وعلماءها في القلعة، فأفتوا بتأديب العصاة، وفي صباح اليوم التاسع من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ بدأت الثورة في ناحية باب البريد قرب الجامع الأموي فثار أهل تلك المنطقة بدعوى الإهانة التي لحقت بالمسلمين على أثر حكم الوالي على بعض السوقة منهم بالطواف في الأسواق وكنسها وهم مغلولون عقاباً لهم على ما أرادوه بالمسيحيين من الإهانة قبل ذلك برسم صورة الصليب على الطرق.

وكنت أنا في جملة أهل باب البريد أيضاً، فرأيت جيراني قد ثاروا كافة، وأغلقوا حوانيتهم وحملوا سلاحهم غضباً من تلك الإهانة المزعومة فأغلقت حانوتي مثلهم، وتبعت الجماهير فطفقنا ندخل البيوت ونقتل كل من تصل إليه أيدينا من المسيحيين، وكنت دون العشرين من العمر، لا أفقه ما أفعل لأن الاندفاع أعمى بصيرتي، فدخلت بيتاً هناك والخنجر في يدي يقطر دماً فخرج إلي شاب وترامى على قدمي يقبلهما ويتضرع إلي أن أكتفي بقتله ولا أدخل البيت، فلم أصغ إلى قوله وازددت رغبةً في الدخول فقال: "ليس في البيت أحد إلا فتاة هي خطيبةٌ لي فاقتلني واكفف عن البيت لئلا يصيب الفتاة سوء". فما كان مني إلا أني طعنته بخنجري فسقط صريعاً. ثم نظرت

وإذا بفتاة كالبدر طلعة والخيزران قواماً محلولة الشعر حالكته قد خرجت من ذلك البيت، فرمت نفسها على ذلك الشاب تندبه وتبكيه، فهممت بأن أمسكها وأرفعها عنه فأصابت قبضتي شعرها وأردت إنهاضها فإذا هي ميتة لا حراك بها. فشعرت من تلك اللحظة كأني صحوت من سكرة، وعلمت أني قتلت نفسين بريئتين. وكانت يدي لا تزال قابضة على شعر الفتاة فجذبتها فالتصق بيدي بسبب الذي كانت يداي ملوثة به، وغادرت البيت مهموماً. فإذا بجماعة في لباس المغاربة يتقدمهم رجل جليل القدر في مثل لباسهم ولكن أكثر إتقاناً وعظمة، فحالما وقع نظري عليه عرفت أنه الأمير عبد القادر الجزائري وأن هؤلاء رجاله يطوف بهم المدينة لإنقاذ النصارى من الذبح، وعلمت بعد ذلك أنه فرق نحو أربعمائة من رجاله في الأسواق مسلحين يحملون العائلات المسيحية إلى بيته وقاية لهم من القتل، وقد خرج هو بنفسه أيضاً لمساعدة رجاله، فاتفق أنه وصل إلى ذلك البيت وقد تحولت للخروج منه. فلما عاين جثتي القتيلين في ساحة الدار وقد اختلط دمهما بالماء المنسكب من (الفسقية) على الرخام صاح بي قائلاً: "يا لقسوتك يا جاهل". ثم ناداني باسمي وأمر رجاله أن يدخلوا الدار فارتعدت فرائصي وكأني شعرت بشنيع فعلتي ولم أعد أعي ما أعمل فحملني حب النجاة على أن أفر من وجه أولئك المغاربة، فأدركني واحد منهم وهم بالقبض علي فابتدرته بطعنة من خنجري أصابت صدره فسقط، وتحولت إلى داخل البيت وأنا لا أدري إلى أين أذهب فسمعت الأمير يقول: "اقبضوا عليه أو اقتلوه لأنه استحق القتل". فأسرعت إلى نافذة وثبت منها إلى الطريق وطلبت الفرار وما زلت مسرعاً لا ألوي على شيء، وفي يمناي الخنجر يقطر دماً، وفي يدي الأخرى خصلة الشعر ملوثة بالدماء، وما زلت ممعناً في الفرار حتى سدل الليل نقابه فاختبأت في مكان منعزل بضعة أيام حتى علمت أن الحكومة السنية بعثت فؤاد باشا مندوباً عنها لتحري الحقيقة وقتل الجناة، فأيقنت بأن الأمير عبد القادر يترقب الظفر بي ليحكم علي

بالقتل وأنا أستحقه شرعاً وعرفاً، فخرجت من دمشق الشام و لم أخبر أحداً بخروجي وجئت الديار المصرية وأنا لا أزال خائفاً من غائلة ما جنته يدي. وكنت قد حفظت تلك الخصلة من الشعر في صندوق حتى لا أنسى ذنبي. ولما استتب لي المقام في القاهرة لم أر أفضل من انتظامي في خدمة قنصلية إنجلترا لأكون في حمايتها إذا اقتضت الحال، وما زلت أجد وأترقى حتى وصلت إلى ما أنا عليه وقد سميت نفسي إبراهيم بدلاً من عبد الرحمن إخفاء لحقيقة أمري.

وقد كنت عازماً على كتمان هذه الحكاية حتى يحكم الله فيها فإما أن يسافر الأمير عبد القادر من دمشق وإما أن يموت أو تأتي ساعتي، وبما أنك أردت معرفة هذا السر وقد ألححت علي في استطلاعه فقد كتبت إليك هذا حتى إذا غرقت في البحر الذي نحن مسافرون فيه وقرأت هذا علمت أن والدتي ووالدي لا يزالان في دمشق، وقد علمت أن شقيقتي اقترنت برجل عظيم غريب الديار فأعلمي ولدنا بذلك أيضاً حتى يسير إلى جديه، فإنهما يسران بمشاهدته كثيراً إذا كانا لا يزالان على قيد الحياة، وفيما يلي اسم أسرتي وعنوانها. أما الصندوق فأحرقيه بجميع ما فيه والسلام".

★★★

لم تكن فدوى تتم قراءة ذلك الكتاب حتى اختلج قلبها في صدرها وارتجفت ركبتاها وبردت أطرافها وصاحت قائلة: "بخيت.. بخيت.. من تظنه كاتب هذا الخطاب؟... أليس هو والد حبيبي شفيق، فإن اسمه إبراهيم وهو موظف في قنصلية إنجلترا؟.. ولولا ذلك ما أخفى أبي هذا الخطاب؟".

فتبسم بخيت وقال بصوت منخفض: "إن لذلك سبباً مهماً". قالت: "وما هو؟".

فأخرج من يده ورقة أخرى وقال: "هذا كتاب والدتك المرسل مع هذا". فتناولته وقرأته فإذا فيه:

"أنـــت تعـــلم حكاية فقد أخي أثناء حادثة دمشق سنة ١٨٦٠. وقد استنتجت من قراءة هذه الورقة أن كاتبها هو أخي بعينه، فبعثت بها إليك لأرى رأيـــك لعـــلك تعرف شيئاً عن الرجل، وأحب المجيء إليكم لأرى والدي ونتباحث في ذلك".

فبهتت وقد أخذ العجب منها مأخذاً عظيماً ثم صاحت قائلة: "شفيق من ذوي قرابتي؟ شفيق ابن خالي؟.. آه لو عرفت ذلك قبل الآن". ثم بكت من شدة الفرح والتأثر.

فقـــال بخيت: "عليك بكتمان الأمر كأنك لم تعلمي شيئاً عنه، ومتى جـــاءت والدتك فكاشفيها بالحكاية واستطلعي كنه الأمر عنها، وها أنذا ســـأعيد الخطـــابين إلى حيث كانا". قال ذلك وخرج فعادت فدوى إلى فراشها وقد تضاعف حبها لشفيق بعد أن عرفت بما بينهما من القرابة.

وفي اليـــوم الـــتالي بكـــرت للخروج إلى الكروم وسار بخيت برفقتها فافتـــتحت حديـــث الأمس فضرب الأرض برجله وقال: "أؤكد لك يا سيدتي أن الله سيطيب قلبك قريباً لأن محبتكما طاهرة وأساسها القرابة عن غير علم منكما فإن هذه الحجارة تقضي باجتماعكما والله يفعل ما يشاء، وأرى الآن أن تـــلحي عـــلى سيدي الباشا ليستقدم سيدتي إلى هنا، ومتى جاءت تذهبون جميعاً إلى دمشق لمشاهدة جديك".

فـــلما عادت ألحت على والدها في استقدام أمها فأجابها إلى ذلك لأنه كان يراعي رأيها كثيراً حفظاً لرضاها على عزيز.

وبعد مضي بضعة أشهر جاءت والدتها، فخاطبتها فدوى في أمر تلك الوصـــية وأفهمتها أن أخاها هو أبو شفيق حبيبها، فقالت والدتها: "نطلب إلى الله أن يجمعنا بأخي، وعسى أن يعود شفيق من السودان حياً".

فتنهدت فدوى وسكتت تنتظر الفرج من عند الله.

وكـــان الشتاء قد جاء و لم تعد تطيب السكنى في لبنان لتراكم الثلوج

وهطـــول الأمطـــار واشتداد البرد، فاستقر رأيهم على السفر إلى دمشق ليشاهدوا الأهل ويقضوا بقية فصل الشتاء هناك.

فـــبعث الباشا إلى بيروت يكتري عربة خاصة من شركة طريق الشام، فلما حضرت العربة ركبوها جميعاً تاركين سائر الخدم والأمتعة في عاليه.

أمـــا عزيـــز فتواطأ مع الباشا على أن يتبعهم إلى دمشق، فسارت بهم العـــربة عـــلى تـــلك الربى في طريق كثيرة التعرج، تارةً يصعدون وطوراً ينحدرون، حتى وصلوا إلى البقاع العزيزية المشهورة بخصبها واتساعها في منتصف الطريق بين بيروت ودمشق. وهي تبدو للرائي كأنها بساط متسع منقســـم أقساماً مربعة عديدة الألوان، بين أحمر قان وأبيض وأسمر وأخضر وأزرق وسنجابي وعنابي.

فوقفـــت بهم العربة بالقرب من فندق في ذلك السهل نحو ساعة حتى استراحوا، ثم عادوا يريدون دمشق فلم يدركوها إلا بعد الغروب فنـــزلوا بفـــندق مشرف على نهر بردى، ونزل الباشا في الصباح التالي يفتش عن حمويـــه فـــإذا هما لا يزالان في بيتهما القديم، فلما شاهدا الباشا لم يعرفاه لطـــول غيابـــه عنهما، وهو أيضاً لم يعرفهما لما كان من تأثير الشيخوخة عليهما مع ما رافق حياتهما من الأحزان والأكدار، ولما عرفاه وعرفهما هما إليـــه وقـــبلاه وقبل أيديهما وسألاه عن ابنتهما فقال: "هي هنا معي بخير وابنتي كذلك، وإنما جئت وحدي لكي أتحقق وجودكما في البيت".

فتقدما إليه أن يبعث إليهما ليأتيا، فذهب هو بنفسه وجاء بهما، ونزل الجميـــع بـــبيت عمل، ولا تسل عن قلب ذينك الوالدين وما أظهراه من الاشتياق لابنتهما التي لم يرياها منذ خمس وعشرين سنة تقريباً. وقد أحبا فـــدوى خاصـــةً لما كان في وجهها من اللطف والجمال رغم ما فيه من الضعف.

ومكـــث الباشـــا وأسرته في دمشق بقية الشتاء. فلما كان ربيع سنة

١٨٨٥ جاء عزيز إلى دمشق راجياً نيل مرامه بعد طول مدة الانتظار ولكنه لم يجـرؤ على مخاطبة الباشا في ذلك لئلا يغضبه فيضيع جميع ممتلكاته، ولا تسل عن ندمه على كتابة ذلك الصك الذي تنازل له فيه عنها، فلم يسعه إلا الصبر.

-١٨-

معركة مع قطاع الطرق

ولمـا أراد الباشا الرجوع إلى مصر، ألح على حميه في أن يهاجرا من دمشـق ليقيما معه في مصر، وقال لهما بعد أن أطلعهما على خطاب أبي شفيق: "إننا نرجو أن نجتمع بولدكما في مصر، لأني لا أظنه يأتي إلى هنا، فالأفضـل أن تسـيرا معنا لنقضي بقية الحياة معاً هناك". فاستحسنا هذا الرأي، بل كان ذلك غاية مناهما تخلصاً من تذكر ولدهما في المدينة التي فقد فيها. فباعا كل ما كان لهما من الأمتعة والأثاث والأملاك، وسار الجميع مـن دمشق قاصدين مصر. وكان ذلك في صباح يوم من أيام شهر إبريل سنة ١٨٨٥، فاكتروا عربتين ركبت إحداهما فدوى ومعها جداها، وكانا قد أحباها محبةً عظيمة ولم يعودا يستطيعان مفارقتها، وركب في الأخرى الباشا وزوجته وبخيت. وهم جميعاً ملثمون بالكوفيات الحريرية الدمشقية، وقد التفوا بالعباءات فوق ملابسهم للوقاية من غبار الطريق كما هي عادة المسـافرين في تـلك الجهات. وكانوا يقدرون أن يصلوا إلى البقاع عند الأصـيل فيعـرجون من هناك إلى بعلبك للمبيت فيها، ومشاهدة قلعتها الشهيرة في اليوم التالي، ثم يواصلون السير إلى بيروت.

وكان الباشا قد أخبر عزيزاً بأمر سفرهم ليقتفي أثرهم.

وما زالوا سائرين مسرعين بالعربتين مخافة أن يدهمهم الليل في الطريق، وفيهـا أمـاكن خطرة يكمن فيها اللصوص للنهب والقتل. وبعد ثلاث سـاعات حرنت خيل العربة التي بها فدوى وجداها، وجعلت تتقهقر إلى

الوراء، والطريق هناك على حافة هوة سحيقة فخاف السائق أن تتردى فيها العربة، ونصح لهم بالنـــزول منها فنـــزلوا، وما لبثت العربة أن اصطدمت بصـــخرة هناك فتعطل بعض أدواتها، واضطر الباشا إلى وقف عربته أيضاً ريثما يتم إصلاح العربة الأولى. فلم يتم إصلاحها إلا بعد الظهر بساعتين. فاستأنفوا السير مجدين خوفاً من خطر الطريق.

ولما وصلوا إلى محطة ميرسلون بدلوا خيل العربتين في مركز شركة النقل هـــناك، ثم ساروا قليلاً فأشرفوا على منحدر ينتهي بواد عميق بين جبلين والشـــمس قـــد قاربت الغروب، وشاهدوا إلى جانب الطريق قبل مدخل الوادي بناء قديماً مهجوراً بدا رهيب المنظر في ذلك الوقت، ولمحوا في ذلك البـــناء أشخاصاً بملابس أهل تلك المنطقة وقفوا يتفرسون في العربتين حتى مرتا بهم، ثم رآهم بخيت يسيرون في أثرهم متمهلين، فأوجس خيفةً منهم لكنه لم يخبر أحداً بذلك واكتفى بأن أوعز إلى السائقين أن يزيدا في سرعة السير.

★★★

ما زالت العربتان سائرتين حتى دخلتا ذلك الوادي فإذا هو بين جبلين شـــامخين لا يـــرى المـــار فيه من السماء إلا جزءاً صغيراً جداً، فقال أحد الســـائقين يخـــاطب بخيتاً: "هذا هو وادي القرن المشهور بقاطعي الطرق، وكـــان الخطر فيه شديداً جداً في الزمن الماضي، وأما الآن فقد استخدمت شـــركة النقل حراساً من الفرسان يتجولون فيه ذهاباً وإياباً حماية لعرباتها ومـــن فيها. كما أن الحكومة أيضاً عينت نفراً من الجند لهذا الغرض وقد شاهدنا بعضهم في طريقنا منذ ساعة".

وكان الباشا يسمع هذا الكلام، فخفق قلبه بشدة ولا سيما أن معظم رفاقه نساء وشيوخ لا يقوون على الدفاع، لكنه تجلد مسلماً الأمر لله.

وبعـــد أن ســـارت العربتان قليلاً والرهبة مستولية على الجميع، حرن

الجواد الجديد الذي يجر عربة الباشا، وأخذ يسير القهقرى حتى اصطدمت بصخرة هناك، وانغرست إحدى عجلاتها في قناة على جانب الطريق، فلم يعد إخراجها ممكناً إلا رفعاً بالأيدي. فنزل الباشا من العربة مستعيذاً بالله، وكذلك نزلت فدوى، وأخذ بخيت يساعد السائق في رفع العجلة فاستغرق هذا وقتاً غير قصير. وكانت الشمس قد غربت وساد الظلام، فأخذ سائقا العربتين في الشتم والسب، وكان الباشا يسمع السب بأذنيه ولا يسعه إلا ملاطفتهما وإسترضاؤهما بتقديم السجاير وغير ذلك من أنواع الملاطفة فلا يزدادان إلا غضباً وسباً.

وأما بخيت فكان قد درس طباع القوم، وسمع كثيراً من حوادث وادي القرن، فأخذ يتظاهر أمام السائقين بعدم الاكتراث.

وأخيراً، تم إخراج العجلة فاستأنفت العربتان مسيرهما وقد اشتد البرد، فبالغ الباشا ومن معه في التدثر بالعباءات والتلثم بالكوفيات حتى لم يعد يظهر من وجوههم إلا العيون، وكل منهم مرهف سمعه وبصره خيفة من هول ذلك الوادي وشدة رهبته في ذلك الظلام السائد والسكون المطبق.

وكان بخيت راكباً بجانب السائق في العربة الأمامية التي بها الباشا، فلم يمض قليل حتى سمع وقع أقدام وراء العربة فالتفت فإذا بالرجال الذين خرجوا من ذلك البناء قد أسرعوا يريدون إدراك العربتين، فأوعز إلى السائقين أن يسرعا، ولكن القوم أدركوا الخيل وأمسكوا بأعنتها وأوقفوها، فصاح بهم بخيت وقد بدا منظره مخيفاً لشدة سواد لونه ولمعان عينيه في ضوء مصابيح العربتين الخافت: "ماذا تريدون؟". فأجابه أحدهم: "هاتوا ما معكم وفوزوا بأرواحكم".

فرد بخيت بصوت جهوري وقلب لا يهاب الموت قائلاً: "ليس عندنا إلا السيوف القاطعة والرصاصات القاتلة، فاذهبوا لشأنكم وإلا جنيتم على أنفسكم!".

فقال الرجل: "فوزوا بأرواحكم، وهاتوا ما معكم فذلك خير لكم!". وجرد سيفه، وكذلك فعل أصحابه.

فوثب بخيت من العربة وفي يده المسدس وأطلق منه رصاصة في الهواء قائلاً: "إننا لا نهاب سيوفكم، وهذه نارنا تحرق أبدانكم".

وكان بخيت يتكلم وقلبه يخفق خوفاً على من معه ولا سيما فدوى. أما السائقان فلأنهما مسؤولان عن العربتين أمام أصحاب الشركة اضطرا إلى مشاركة بخيت في الدفاع.

على أن اللصوص كانوا قد علموا أن ليس في العربتين من الرجال الأشداء غير هذا العبد والسائقين، وسرعان ما نفخ أحدهم في صفارة معه فخرج من جوانب الطريق نفر من أمثالهم معهم السيوف والعصي والمسدسات، فوقع الرعب في قلوب الجميع، ولكن بخيتاً اشتدت به النخوة والحماسة حتى صار كمن به جنة، والتفت إلى السائقين اللذين معه وقال: "هيا أيها الأبطال، أذيقوا هؤلاء الأنذال كأس الوبال!".

فاستل كل منهما خنجره وهجما معه على اللصوص، بينما أطلق هو من مسدسه بعض الطلقات على هؤلاء فجرح اثنين منهم، ولكنهم بدلاً من أن يفروا، بادلوه إطلاق الرصاص فأصيب في كتفه وصرخ من شدة الألم ولكنه لم يكف عن الدفاع.

أما العربتان فإن خيلهما أجفلت من صوت الطلقات، فأخذت في التقهقر والقفز، وصارت فدوى وجداها في خوف لا مزيد عليه وكذلك الباشا وامرأته في العربة الثانية.

وأخيراً تقدم بعض اللصوص فأطفأوا مصابيح العربتين وطلبوا إلى من فيها أن يسلموا ما لديهم، فأعطاهم الباشا بعض ما معه من المال ووعدهم بأكثر منه إذا كفوا عن أذاهم، ثم جاء رفاقهم بعد أن تركوا بخيتاً مضرجاً بدمائه بين حي وميت، وبعد أن فر السائقان، فانضموا إليهم. وأخذ الباشا

وحموه الشيخ في استعطاف اللصوص واسترحامهم، بينما دنا أحد اللصوص من عربة فدوى وأشعل عوداً من الثقاب، فرآها جالسة بجانب جدتها العجوز في لباس السفر، فلما رأته بالغت في التلثم وأخذت في البكاء والانتحاب مع جدتها فقال لها: "إننا لن نؤذيكم إذا أعطيتمونا كل ما معكم". فصاح زميل له كان قد لحق به وبهره جمال فدوى: "أما أنا فلا أريد إلا هذه الجميلة!". ثم مد يده وجذبها من العربة فسقطت على الأرض، فصرخت جدتها، وراح الباشا وجدها يستعطفان اللصوص ليتركوها ويأخذوا ما يشاءون، ولكن هؤلاء لم يعبأوا باستعطافهم، واستمروا في جرها على الأرض يريدون الهرب بها، بينما أخذ بقية زملائهم في نهب ما في العربة من الأمتعة والملابس وغيرها.

★★★

بينما كان اللصوص يجرون فدوى سمعوا وقع حوافر خيل قادمة مسرعة، فتوقفوا عن جرها، وظن الباشا أن القادمين من اللصوص فخارت قواه وسقط على الأرض، وصاحت فدوى قائلة: "ويلاه اتركوني يا ناس وخافوا من الله". ولم تتم كلامها حتى وصل الفرسان القادمون وصاح أحدهم: "قفوا مكانكم يا أنذال". فسمعه الباشا وأدرك أنه من الحراس فاشتدت عزائمه وكان قد هم بالنهوض ليدافع عن فدوى. ثم سمع بعض الطلقات النارية، ورأى اللصوص يركنون إلى الفرار، ثم تقدم الفرسان القادمون وعددهم خمسة إلى العربتين وهم ملثمون (بالكوفيات) وعليهم الملابس العسكرية فطمأنوا الباشا ومن معه، فشكرهم وتوسل إليهم أن يرافقوهم إلى البقاع أو إلى بعلبك وقال: "إن السائقين فرا ونحن لا نعرف الطريق، وقد أصيب خادمنا الأمين وهو يدافع عنا". فبحثوا عن بخيت حتى وجدوه ملقى على الأرض وهو مصاب بجرح في كتفه وآخر في فخذه ولا يستطيع النهوض، فحملوه إلى إحدى العربتين، وركب اثنان من الفرسان في مكان السائقين وسارا بهما، بينما سار زملاؤهم بجانبهما.

و لم يمض قليل حتى خرجوا من ذلك الوادي ووصلوا إلى محطة الجديدة فوجـــدوا السائقين هناك، فعنفهما الباشا على فرارهما فاعتذرا بأنهما جاءا ليبلغا ما حدث إلى المأمور ليرسل من ينجدهم. ثم عاد كل منهما إلى مكانه في عربـــته بعد أن بدلا الخيل وأنارا المصابيح وساقا العربتين والفرسان ما زالوا يحيطون بهما. وسار الجميع يريدون البقاع.

لاحـــظ جـــد فدوى وهو راكب بجانبها في العربة أن الفارس الذي يحرسها يرتدي عباءة تحتها ملابس مدنية وليس عسكرياً كبقية رفقائه، فلم يعبأ بذلك أول الأمر، ثم أراد الاستفهام منه عن بعض أحوال تلك المنطقة، ولكن الفارس لم يرد عليه، بل أدار شكيمة جواده، ودعا أحد رفاقه وأشار إليـــه أن يجيـــب الشيخ عما يسأل عنه، فتعجب الشيخ لذلك، ولما سأله الفـــارس الثاني عما يريد، قال له: "أريد منك أولاً أن تخبرني لماذا لم يجبني رفيقك الحارس الآخر؟".

فقال: "إنه يا سيدي ليس من الحراس، وكذلك نحن!".

فازداد الشيخ عجباً وقال: "إذن من تكونون؟".

قـــال: "إننا من جند لبنان، وكنا سائرين في مهمة إلى دمشق، أما هو فمسافر لقيناه في البقاع قادم من بيروت قاصداً إلى دمشق أيضاً، ولما كان الليل قد دنا وهو لا يعرف الطريق طلب أن يرافقنا فأجبنا طلبه، ويظهر أنه كريم النفس جداً لأنه لما سمع استنجادكم سارع إلى الهجوم على اللصوص، وأبدى شهامة وشجاعة قل مثلهما، ثم هو رغم تعجله الذهاب إلى دمشق لم يسعه إلا مرافقتكم معنا إلى البقاع، مع أن هذا يؤخر وصوله إلى دمشق يوماً كاملاً على الأقل".

فـــأعجب الشيخ بهذه الشهامة، واعتزم متى وصلوا إلى البقاع أن يخبر صهره بذلك ليوفي الرجل حقه من الشكر والثناء.

وكـــانت فدوى جالسة بجانب جدها تسمع حكاية الفارس فأعجبتها

تـــلك الشهامة، وتذكرت حبيبها شفيقاً فهاج بها الوجد وأخذت دموعها تتســـاقط رغمـــاً عنها، و لم تكن تخشى ملاحظة جديها لأن داخل العربة مظلم.

وفـــيما كان الشيخ يتحدث مع ذلك الفارس العسكري، كان الباشا يتحدث مع الفارس العسكري الذي يسير بإزاء عربته على سبيل التسلية، ففهم منه حكاية ذلك المسافر الشهم كذلك، وأعجب به كل الإعجاب، أما ذلك الفارس نفسه فكان يسير بجواده وراء العربة الخلفية التي بها فدوى وجداهـــا، وهو في شاغلٍ عن كل تلك الأحاديث بما يجول في خاطره من الهواجس والتأملات، تطلعاً إلى دمشق التي كان يتوق إلى الوصول إليها في أسرع وقت.

ومـــا زالت العربتان سائرتين حتى سمع الباشا الفرسان يقولون: "ها قد وصلنا إلى البقاع العزيزية وأصبحنا على مسافة أربع ساعات من بعلبك" فقال: "أظن أن الأفضل أن نبيت بقية هذا الليل في إحدى القرى المجاورة، لأن حركة العربة قد أضرت بجريحنا". ثم سأل عن أقرب قرية من الطريق فقيـــل له: "إن هناك قرية على مسافة نصف ساعة". فهم بأن يأمر السائق بالمسير إليها فإذا ببخيت يئن، فسأله عن حاله فقال: "لم أعد أستطيع البقاء في العـــربة". فأوقفوا العربتين، ونزلت فدوى وهي ملثمة ودنت من أبيها تسأله عن بخيت، فطيب قلبها، وبعث أحد الفرسان يسأل عن أقرب بيت في ذلك الجوار، فعاد وأخبره بأنه وجد بيتاً كبيراً على مقربة منهم، فساروا إليه جميعاً، وترجل بعض الفرسان وحملوا بخيتاً على أيديهم حتى إذا اقتربوا مـــنهم تقدمهم الفارس المجهول وهو لا يزال على جواده وسأل عن أهل ذلـــك البيت، فخرج إليه رجل في لباس أسود لم يستطع تمييزه ولكنه هابه لاسترســـال شعر رأسه على كتفيه وشعر لحيته على صدره، وكان يرتدي جـــبة سوداء غاية في البساطة فظنه راهباً وقال له: "إن معنا جريحاً لم يعد يســـتطيع الـــركوب في العربة، فجئنا به إليكم، فهل تسمحون بأن يبيت

عـــندكم الليلة وأجركم علي الله". فبهت الرجل برهة كأنه يفكر في أمر طـــرق ذهنه ثم قال: "حسناً فليأت". ونادى قائلاً: "تعال يا أحمد ساعد الضيوف في نقل جريحهم إلى هنا". فجاء رجل في مثل لباس ذلك الرجل، وخف إلى المساعدة في حمل بخيت، حتى دخلوا البيت وأجلسوه على مقعد في إحدى الغرف، ودخل الجميع إلا العسكر فإنهم بقوا خارجاً.

-١٩-

الفارس المجهول

أراد الباشا الخروج للثناء على أولئك الفرسان ولا سيما ذلك الفارس الشهم المجهول، لكنه شغل بتضميد جرح بخيت، فخرج حموه الشيخ جد فدوى للقيام بذلك الواجب عنه نيابة عنه، بعد أن أشار إلى فدوى وأمها أن تدخلا إحدى الغرف.

وكـــان الفرسان العساكر قد عادوا إلى خيولهم يعدون لها العلف، ولم يبق خارج البيت إلا ذلك الفارس المجهول، فحياه الشيخ وجلس معه أمام البيت على (مسطبة) فوقها حصير، يشرف الجالس عليها على سهل البقاع الواســـع، فأشـــعل كل منهما سيكارته وأخذا بأطراف الحديث، وكان الفـــارس ما زال ملتفاً بالعباءة واللثام على وجهه، فأخذ الشيخ يثني عليه قائلاً: "لقد أسرتمونا بما أظهرتم من شهامة، فعسى أن نستطيع مكافأتكم".

فقـــال الفـــارس: "إننا لم نفعل ذلك لمكافأة، وإنما فعلناه ابتغاء مرضاة الله".

ولاحظ الشيخ أن لهجته مصرية فقال له: "لعل السيد من أهل مصر؟".

قال: "نعم يا سيدي".

فقال الشيخ: "وهل للسيد أقارب في دمشق جاء لزيارتهم؟".

قال: "لا... ولكن جئت لرؤية أصدقاء فيها".

فقال الشيخ: "هل لك أن تخبرني عن هؤلاء الأصدقاء لأننا من دمشق، و لم نتركها إلا صباح اليوم فلعلنا نعرف شيئاً عنهم، وإلا فأسألك الإغضاء عن جرأتي بهذا السؤال".

فقـــال الفارس وقد أزاح اللثام عن وجهه تاركاً الكوفية على رأسه: "العفـــو يا سيدي، ليس في سؤالك ما يوجب الاعتذار، ولكن أصدقائي هؤلاء غرباء، والأغلب أنكم لا تعرفونهم لأنهم من مصر أيضاً".

فقـــال: "إن صهري الذي رأيته الآن معنا قادم من مصر، فلعله يعرف أحداً من أصدقائك".

قال ذلك ودخل يدعو صهره فجاء وهو لا يزال ملثماً، وحيا الفارس بكـــل لطف وبدأ بالاعتذار إليه على تأخره عن شكره لاشتغاله بتضميد جراح خادمه. ثم أخذ يشكر همته وغيرته، والفارس مطرق خجلاً.

فقـــال الشـــيخ للباشا: "إن السيد قادم من مصر يريد دمشق لمشاهدة بعض أصدقائه من المصريين".

فالتفت الباشا إلى الفارس وقال: "ومن هم أصدقاء حضرتك؟".

قال: "هم أسرة مصرية عميدها فلان باشا". وذكر اسم الباشا نفسه.

و لم يتم كلامه حتى نهض الباشا ودنا منه متأملاً ثم قال: "عجباً!.. إنني أنا هو يا سيدي!".

فـــنهض الفارس وألقى بنفسه بين يدي الباشا قائلاً: "مرحباً بسيدي وعمي". وطفق يقبل يديه، فبهت الباشا ولكنه أدرك رغم ضعف النور أن الشـــاب الـــذي يكـــلمه هـــو شفيق بعينه، فوقع في حيرة بين الانذهال والاضطراب واليأس والرجاء ولكنه لم يستطع التوقف عن تقبيله وضمه إلى صدره، وسأله شفيق عن فدوى وبقية الأسرة فقال: "هي في خير وستراها قريباً".

ثم جلســـا يتحدثان بأمر هذا الاتفاق العجيب، وكيف أنهما لم يعرف

أحدهما الآخر، لما كان فيه كل منهما من الشواغل، ولمبالغة الباشا ومن معه من التلثم، وهم الباشا بأن يعرفه بالشيخ جد فدوى، فسمع ضوضاء في حجرة السيدات فتركهما مستأذناً ليرى ما حدث فرأى امرأته وامرأة عمه وصاحب المنزل متعانقين وهم يبكون ويقبلون بعضهم بعضاً، فأخذه العجب، ثم بادرته امرأة عمه قائلة: "ولدي.. ولدي عبد الرحمن". ثم أغمي عليها فأسرعت امرأة صاحب المنزل وجاءت بالماء ورشتها به حتى أفاقت، ففهم الباشا أن صاحب المنزل هو أخو أخته الذي كان مفقوداً، ثم أمعن النظر فيه فإذا هو إبراهيم والد شفيق، فوقف مبغوتاً ولحيته ترقص على صدره من شدة التأثر لغرابة ذلك الاتفاق، وتساقطت عبراته و لم يعد يعلم ماذا يقول. فقالت له امرأته: "هذا هو شقيقي الذي لم أره منذ خمس وعشرين سنة، فنشكر الله على وجوده". فأخذ الباشا يهنئهم بالسلامة وحدثته نفسه بأن يخبرهم بأمر شفيق ولكنه خشي على أبويه أن يموتا من شدة الفرح".

وأخيراً قال إبراهيم: "آه من الدهر الذي قسم ظهري ونغص عيشي أما كان يحسن به أن يتم عقد اجتماعنا، بولدي شفيق؟!".

فأخذ الباشا يخفف عنه قائلاً: "إن الله قادر أن يجمعكما به، فتأس الآن بأختك وأبيك، وها أنذا ذاهب لأدعو لك أباك". وخرج فلقيه الشيخ قبل وصوله إلى موضعه وسأله عن سبب تلك الضوضاء فقص عليه الخبر بأسلوب لطيف بحيث لا يتأثر، فدخل الشيخ وألقى بنفسه على ولده وقبله حتى أغمي عليه، فرشوه بالماء حتى أفاق. وجلس الجميع يهنئ بعضهم بعضاً. أما الباشا فخرج إلى شفيق والتأثر ظاهر في وجهه، فسأله شفيق عن سبب الضجة، وكان قد أشفق على فدوى لئلا تكون قد أصيبت بسوء، فقال الباشا: "ليس هناك إلا الخير يا ولدي ولكني أسألك أن تمهلني قليلاً لآتيك بالخبر اليقين". ثم دخل الباشا الغرفة التي بها الشيخان وولداهما

وبنـــتهما وحفيدتهمـــا، فوجدهم جميعاً يندبون شفيقاً، فوقف في وسطهم قـــائلاً: "ماذا ينقصكم الآن حتى يتم عقد اجتماعكم". فصاحوا بصوت واحد: "شفيق، شفيق".

وكـــان بخيت في غرفة قريبة فلما سمع كلمة (شفيق) هب من فراشه كأنـــه ليس عليه بأس وجاء ماشياً وقد نسي أوجاعه ودخل بلهفة قائلاً: "أيـــن ســـيدي شفيق؟". وجاء من الجهة الأخرى الخادم أحمد بمثل تلك اللهفة. فقال الباشا: "ما الذي أقامك من فراشك يا بخيت؟". قال: "والله يـــا سيدي إن اسم شفيق كاف ليبعثني من القبر وليس من الفراش. فأين هو؟".

فلما سمعت فدوى كلام بخيت علمت أنه يتكلم بلسان حالها، فهاجت عواطفها فازدادت في البكاء، فعاد بخيت يسأل: "أين سيدي شفيق أليس هنا؟".

فقال الباشا: "ماذا تصنعون إذا جئتكم به الآن؟". فقال بخيت: "أما أنا، فـــأعطيك روحـــي يـــا سيدي". وقال الخادم أحمد: "وروحي أيضاً فداء لسيدي وحبيبي". فاشتد بكاء فدوى، ثم قال عبد الرحمن وهو يمسح دموعه وامرأته تبكي بجانبه: "أرغب إليك يا سعادة الباشا ألا تهيج أشجاننا أكثر من ذلك".

فقـــال الباشا: "أمهلوني بضع دقائق فأخبركم الخبر اليقين". قال ذلك وخـــرج إلى حيث كان شفيق ينتظره وقال له: "أتذكر أني سألتك عندما قابلتك في مصر قبل سفرك إلى السودان عن أبيك فلم تجبني جواباً صريحاً، ولكـــنك ذكرت أنك ستكتب إليه في لندن ليكتب إلي، ولما سألتك عن وطنه ومذهبه لم تجبني جواباً قاطعاً، فهل علمت الآن وطن أبيك ودينه؟".

فـــتأوه شـــفيق وأراد الإجابة فسبقته العبرات، ثم تنهد وقال: "آه يا سيدي، لا تذكرني بمصائبي لأني لا أعلم أين مقر والدي الآن، وقد سألت

عـــنهما في مصر فعلمت أنهما غادراها إلى حيث لا يعلم أحد، ثم علمت أنكـــم في الشام فلحقت بكم وما زلت أسأل حتى علمت أنكم في دمشق فســـرت برفقة هؤلاء العساكر اللبنانيين حتى التقيت بكم وكنت أؤمل أن أعرف منكم شيئاً عن والدي".

فقـــال الباشا: "لم يكن علمي عنهما أكثر من علمك أنت حتى هذه الليلة بل حتى هذه الساعة".

فقال بلهفة: "وهل عرفت عنهما شيئاً الآن؟".

قال: "نعم، علمت أنهما على مسافة قريبة من هنا!".

فنهض شفيق مبغوتاً وقال: "قل بالله أين مقرهما".

قال: "هما يا ولدي في مكان قريب من هنا، وفي الصباح أبعث معك بمن يهديك إليهما".

فصاح شفيق كيف أنتظر إلى الغد، يجب أن أسير إليهما في هذه اللحظة فأرشدني إليهما يا سيدي ولك الفضل.

فضحك الباشا وقال: "إنهما في هذا البيت يا ولدي".

فقفـــز شفيق من شدة الفرح قائلاً: "في هذا البيت؟ أفي حلم أنا أم في يقظة؟ أم أنت تمزح؟".

فقال الباشا: "بل أنت في يقظة يا ولدي، وإنه لأعجب اتفاق لم يسمع بمثله أحد من قبل".

ثم حكـــى له الحكايـــة فأراد شفيق الهجوم على الحجرة، فمنعه الباشا قـــائلاً: "كان يمكنني أن أخبرهم عنك، ولكنني أشفقت عليهم من سلطان العواطف إذ قد يترتب على شدة فرحهم ضرر جسيم، فتعال ورائي وقف بالباب وأنا أدخل قبلك وأنبههم إلى مجيئك".

-٢٠-

لقاء الحبيبين

سار الباشا وشفيق في أثره حتى وصلا إلى باب الحجرة، فدخل الباشا وأغلق الباب وراءه والتفت إلى إبراهيم وامرأته قائلاً: "انزعا عنكما ثياب الحداد، لأن وقت فرحكما قد جاء، بل هو وقت فرحنا جميعاً".

فبهت الجميع وأصغوا لسماع تتمة كلامه، فإذا به قد تحول نحو الباب ففتحه وخرج وعاد ممسكاً شفيقاً بيده.

فلما دخل شفيق بهت الجميع وجعلوا ينظرون إليه وهم لا يدرون أفي حلم هم أم في يقظة، ولم يكن هو أقل انذهالاً منهم، فاستولى السكوت على جميع الحاضرين لحظة، لم يكن فيها قلب غير مختلج، ولا ركبتان غير مرتجفتين، ولا عينان غير شاخصتين. وكان أكثر الحاضرين انذهالاً ذانك الوالدان اللذان اختارا التنسك ولبس الحداد والابتعاد عن العالم بعد فراق ولدهما الوحيد الذي قضيا العمر في تربيته وتثقيفه. أما فدوى التي قاست الأهوال العظام وهي غضة العود لطيفة المزاج ولم تكد تفتح عينيها حتى داهمها الحب بل الوجد فأخذ بمجامع قلبها ثم بعد عنها حبيبها الذي لم يكن لديها أعز منه في هذا العالم، فلا تسل عن حالتها حين عاينت حبيبها أمامها بعد أن يئست من حياته.

وأما شفيق ذلك الشاب الذي ربي في مهد العز، وعرف قلبه الحب يافعاً، فقاده حب العلا وإرضاء سالبة لبه إلى تجشم الأسفار الطويلة واحتمال الأخطار في أقصى السودان، فلا عجب إن كان ذهوله أعظم وأشد حين دخل الغرفة فإذا فيها حبيبة قلبه، ووالداه اللذان زهدا في الدنيا يأساً من حياته واختارا التنسك على الرفاهية حتى لا يكون بينهما وبينه تفاضل في الحياة.

وما أفاق من ذهوله حتى هم بيدي أبويه يقبلهما وهما يقبلانه والجميع

يبكون فرحاً، ولا سيما فدوى، التي كانت أشد الجميع تأثراً، ولكن الحياء حـــال بينها وبين إظهار عواطفها. على أنها نسيت نفسها وأخذت تصيح قائلةً: "شفيق؟... شفيق هنا؟ هل أنت حي.. آه يا مهجة فؤادي أفي حلم أنا أم في يقظة؟".

أما هو فلم يكن يدري من يخاطب ولا إلى من ينظر و لم تكن تسمع في تلك الغرفة إلا شهيقاً وبكاء يمازجه السرور والابتهاج.

وأما بخيت وأحمد فأخذا يرقصان ويقبلان يدي شفيق وكتفيه وصدره وظهره ووجهه، ويقولان: "الحمد لله على السلامة سيدي".

ثم نهض الشيخ الكبير وتقدم إلى حفيده وقبله بدموع الفرح، وكذلك صـــنعت امـــرأته وامرأة الباشا، ثم انتصب الشيخ واقفاً وقد امتلأت عيناه بدموع الفرح وقال: " هلم بنا يا أولادي نسجد شكراً لله تعالى على هذه المـــنة العظـــيمة التي وهبنا إياها بجمع شتاتنا من أقاصي العالم". فشاركه الجميـــع في ذلـــك، ثم جلسوا يقصون أقاصيصهم. وكانت حكاية شفيق أغرب الحكايات، وما زالوا كذلك إلى الصباح. فاتفقوا جميعاً على المسير إلى بعلبك يقضون فيها ذلك النهار ويشاهدون قلعتها الشهيرة العجيبة البناء ثم يسافرون معاً إلى بيروت فمصر.

★★★

ظل الباشا طول ليلته يفكر في أمر هذا الاتفاق العجيب، كما يفكر في أمر عزيز وما قد يترتب على مجيئه في الغد، وأخيراً قرر في نفسه أن عزيزاً لا يســـتحق الاهتمام بأمره لأنه خائن ذميم، ومهما يصبه فلا أسف عليه، ولا سيما أن أملاكه كلها قد خرجت من يده وآلت إليه هو بمقتضى ذلك الصك.

وفي الصباح خرج شفيق إلى الفرسان الذين كانوا معه فأثنى على همتهم وكافـــأهم مكافأة حسنة، ثم ركب مع سائر العائلة في العربتين، وساروا

قاصـــدين بعلبك، فوصلوا إليها في الضحى ونزلوا بفندق هناك. ثم تجولوا لمشـــاهدة آثارهـــا وقضوا بقية ذلك النهار في التنقل من مكان إلى آخر يســـرحون الطرف في مناظر تلك السهول الخصبة التي كساها الربيع حلة خضراء وفي المساء عادوا مارين بحجر الحبلى الهائل المعد للبناء، ولا يستطيع حمله أقل من ستة آلاف رجل، كما شاهدوا فيها أحجار كثيرة مثله.

أمـــا بخيت فبقي راقداً في سريره وقاية لجراحه، فلما كان الأصيل سمع صـــوت رجـــل يعرفه، ثم أدرك أنه صوت عزيز فخفق قلبه خفوق الفرح ونهض لكي يخبره بمجيء شفيق والتقاء سائر العائلة بخير.

ودخل عزيز حجرة بخيت وهو لا يدري أنه فيها، فلما وقع نظره عليه تعجـــب مـــن رقاده في منتصف النهار وسأله عن سبب ذلك فأخبره أنه أصيب بجرح من اللصوص الذين سطوا عليهم في وادي القرن.

فبغت عزيز وقال: "وكيف نجوتم منهم، وهل أصاب فدوى سوء؟".

فضـــحك بخيت وقال: "نعم إننا وصلنا إلى أشد الخطر وقد نجونا بهمة ذلك البطل الصنديد والشهم المجيد".

قال عزيز وقد خفق قلبه جزعاً: "ومن هو هذا البطل؟".

قـــال بخيت: "لا أقول لك من هو حتى تسألني بإلحاح". فاغتاظ عزيز وصرخ بإلحاح "قل بالله قل". قال: "هو سيدي شفيق".

فوثـــب عزيـــز مـــن كرسيه وقد امتقع لونه وارتعدت فرائصه وقال: "أصحيح ذلك يا بخيت؟".

قال: "نعم وحياة سيدي شفيق أني لم أقل إلا الصحيح، ومع ذلك تمهل ريثما ترى جميع العائلة آتين معاً، وفيهم والدا شفيق، وأخبرك بشيء آخر أظنه لا يسرك وهو أن شفيقاً ابن خال فدوى".

فاسودت الدنيا في عيني عزيز، ولم يدر أيصدق كلام بخيت أم يكذبه، فلـــبث ينتظر عودة الباشا، ثم دخل غرفة تشرف على الشارع وجلس إلى

النافذة.

ولما كان الغروب رأى جمهوراً كبيراً قادماً فحقق نظره فإذا بشفيق إلى جانب فدوى يتحادثان، وقد حمل كل منهما طاقة من الأزهار وهما في غاية السرور، والباشا سائر بجانب شفيق فرحاً. فتحقق لديه أن فدوى قد خرجت من يده و لم يعد يمكنه الحصول عليها. ثم تذكر الصك الذي أعطاه للباشا فاشتعل قلبه ندماً وأحس كأنما صُب عليه ماء يغلي ثم ماء بارد، ثم سمع وقع أقدامهم على السلم فلم يعد يتمالك نفسه عن الارتعاش، فذهب إلى سريره وهو ينتفض من البرد والقشعريرة وأصابته حمى شديدة أخذت تتعاظم حتى بلغت درجة الخطر، فبادر صاحب الفندق باستدعاء الأطباء الموجودين في بعلبك فعقدوا مشورة طبية فإذا هو في حالة الخطر الشديد.

وشاع الخبر في الفندق، وكان الباشا وأسرته قد علموا بمجيء عزيز من بخيت، وهذا لم يكن لديه يوم أكثر سعادة من ذلك اليوم، فلما سمعوا بمرضه تراكضوا لمشاهدته فلم يأذن لهم الأطباء في الدخول بدعوى أن المريض في حالة لا تسمح لأحد بالدخول عليه، فلما علم شفيق بذلك تكدر لما ألم بذلك الشاب في ديار الغربة لأنه خشي أن تكون تلك الضربة قاضية عليه، وأما أحمد وبخيت فكانا مسرورين بذلك لأنهما اتفقا على الانتقام من عزيز لما عرفا من دسائسه وخيانته. وأما الباشا فبقي صامتاً يراجع في ذاكرته حكاية الصك وما قاساه ذلك الشاب من الأسفار والذل وكيف أنه استولى على كل ماله وكيف كانت نهاية أمره من الفشل الذي أورث له هذا الداء الشديد.

على أن شفيق كان أشد الجميع أسفاً على ما أصاب صديقه القديم، ولا سيما أنه علم أن سبب مرضه إنما هو الفشل وخيبة الأمل، فلم يذق طعاماً في ذلك المساء أسفاً عليه، وقضى الجميع معظم الليل في حديث عزيز ومرضه وفيما هم في ذلك جاءهم خادم الفندق يقول: "إن العليل يود

مقابلـــتكم غير مبال بوصية الطبيب". فخف شفيق والباشا إلى غرفته، ولما دخلا وقع نظرهما عليه وهو متوسد في فراشه وقد علا وجهه الاحمرار من اشتداد الحمى عليه. فلما سمع وقع خطواتهما حول وجهه نحوهما وامتلأت عيناه بالدموع ولم يكن يستطيع الحركة، فأشار إليهما بأهداب عينيه فاقتربا منه باكيين ووقفا بإزاء سريره صامتين لئلا يزعجاه بالكلام. وكان الطبيب في الغرفة ساهراً من أجله، فأشار عزيز إليه أن يخرج قليلاً ولم يبق في الغرفة غيره والباشا وشفيق، فأومأ إليهما وقد ضاق تنفسه من اشتداد الحمى أن يجلســـا، فـــأخذ كل منهما كرسياً وجلسا أمام السرير ينظران إليه نظرة الأســـف، ولا ســـيما شفيق فإنه نسي كل سيئاته وكاد ينفطر قلبه شفقةً عليه.

وبعد بضع دقائق أعاد عزيز نظره إليهما وهو يريد التكلم فلا يستطيعه، فسأله شفيق: "وهل تحتاج إلى شيء؟". فأشار إليه بيده أن ينتظر ريثما يهدأ روعـــه فيخاطبه، ثم مد يده إلى شفيق فمد شفيق يده إليه وأمسكه فأحس بارتجاف شديد ومد يده الأخرى فأمسكه شفيق باليد الأخرى فتوكأ عزيز على يدي شفيق يريد الجلوس فلم يستطع، فوقف الباشا وأسند ظهره، ثم أجلســـاه وجعلا الوسائد وراء ظهره، فجلس وهو لا زال قابضاً على يد شفيق، ثم جذبه إليه حتى دنا منه فضمه إلى صدره وجعل يقبله ويبكي بكاء الطفل والدموع تتساقط على خديه كالمطر، ولم يكن شفيق أقل بكاء منه وقد أدرك أنه يريد استغفاره مما فرط منه فقال له: "طب نفساً يا عزيزي، إني غافر لك كل ما تقدم من ذنبك".

فتكـــلم عزيز ضد ذلك وقال: "إني مستوجب لأكثر من الموت، لأن السماء قد سخطت علي لجنايتي ودناءتي، وكأن الله لم يرد أن تدنس يدك بقتلي فقتلني بالمرض، فأتقدم إليك، أن تشفق على دموعي وضعفي وتصفح عني فإني لا أستحق أقل من القتل، وعما قليل أفارق هذه الدنيا، فلم أشأ مفارقـــتها قبل أن أستغفرك أيها الشهم الكريم، لأني قد أخطأت في حقك

وأذنبت ذنباً لا يغتفر، وكم أردت بك السوء فجازيتني بالصفح، وقد انتقم الله لك مني انتقاماً عادلاً".

فلم يعد شفيق يتمالك عن البكاء، ولكنه هم بعزيز وقبله مراراً وقال له: "إن الله يغفر الذنوب جميعاً يا عزيزي، وكل شيء بقضاء منه سبحانه وتعالى، وقد صفحت عنك وأطلب إلى الله تعالى أن ينقذك من هذا الداء".

فصاح عزيز وقد أنهكه العياء قائلاً: "لا... لا... إني لا أستحق الحياة، ولم يعد يحلو لي المقام في هذه الدنيا لأني دنستها بشروري وارتكبت فيها الخيانة والغدر... أجل إني غادر خائن، وقد كرهت حياتي الرديئة المدنسة بالشرور". ثم التفت إلى الباشا قائلاً: "وأنت أيها الشيخ الجليل، اصفح عن شروري، واسأل ذلك الملاك الأرضي أن تعفو عني لما سببت لها من الشقاء بخيانتي، فكم نغصت عيشها وحاولت أذاها وهي ثابتة على وداد من لا أستحق أن ألثم حذاءه، آه لو أراها فأقبل نعلها وأستغفرها قبل موتي، لأني أشعر بثقل آثامي نحوها ونحو حبيبها هذا... آه إني أشعر بأثقال أعظم مما أحتمل وها أنذا أرى الأبالسة قادمة لاختطاف روحي الشقية لتلقيها إلى السعير.

فقال الباشا: "شفاك الله يا ولداه، ولا أراك مكروهاً، وما دمت قد شعرت بخطئك فإن الله سيرفع عنك هذه الشدة، لأنه يقبل التائبين".

★★★

فقال عزيز: "إن ذنوبي أكثر من أن تغتفر، والموت أحب إلي من الحياة، ولم تعد عيناي تستحق النظر إلى خيال تلك الفتاة الطاهرة العفيفة الودودة الخالية من كل عيب، ولا إلى هذا الشهم الفاضل الشريف الكريم الأخلاق". قال ذلك وألقى بنفسه على السرير وغاب عن الصواب، فأسرع شفيق باستدعاء الطبيب، فدخل وأمر بالثلج فوضع على رأسه، ثم جس نبضه وهز رأسه أسفاً، فاشتد قلب شفيق والباشا ولم يعد يمكنهما

مـــبارحة الغـــرفة، ولكن الطبيب طلب إليهما أن يخرجا قليلاً ففعلا، فإذا بفـــدوى وسائر الأسرة في انتظارهما، وما علموا باشتداد الخطر على عزيز حتى أخذهم الشفقة به وأسفوا لذلك كثيراً.

-٢١-

خاتمة المطاف

مضى الليل دون أن يناموا إلا يسيراً، ثم بكر شفيق في الصباح إلى غرفة عزيـــز فقيل له: "إنه راقد وقد كلله العرق". فاستبشر بزوال الحمى وعاد فأخبر الأسرة بما كان.

أمـــا فدوى فكانت تعجب لشهامة حبيبها وكرم أخلاقه وودت شفاء عزيز إكراماً لعواطفه لأنها رأته آسفاً كثيراً على موته.

ولما كان الضحى جاءهم خادم الفندق يدعوهم إلى غرفة عزيز، فذهبوا إليـــه فإذا هو في السرير وقد صفا لون بشرته، فدخل شفيق والباشا فقال لهما: "ألا يأذن لي سيدي بنظرة قبل الممات من تلك العذراء الطاهرة ولو مـــن وراء اللـــثام لعلها إذا رأت حالتي ترثي لها وتعفو عن زلتي فإن الله يستجيب دعاء الطاهرين".

فـــبعث الباشا إلى فدوى فحضرت ملثمة ومعها والدتها وجداها فلما وقع نظره عليها بكى وقال: "إليك أتوسل أيها الملاك الأرضي أن تصفحي عن ذلتي وتغفري ذنبي أنا الخائن الغادر الكاذب. وها أنذا مفارق هذا العالم المدنـــس بشروري قريباً، فأطلب إلى الله بهذا اللسان الدنس وهذا القلب الشقي أن يتم اقترانك بهذا الشهم الذي يليق بك، وأن يحفظكما سعيدين راتعـــين في الـــرغد والهناء، لكي تنسيا ما كابدتماه بسببـــي من المتاعب والعذاب".

قال ذلك وأخذ يشهق بالبكاء حتى كاد يشرق بدموعه.

أما فدوى فلم تجب ببنت شفة ولكنها تأثرت من تلك العبارات كثيراً

حتى بكت وصفحت عما تحملته بسببه.

فقال له الباشا: "إنك يا ولدي قد فطرت قلوبنا بتوبتك وندمك، وصرنا نود شفاءك من كل قلوبنا، وأنا واثق أن ولدي شفيقاً لا يريد لك إلا الخير فنطلب إلى الله أن يشفيك".

فهم شفيق بعزيز وقبله قائلاً: "إن الله قادر على أن يشفيك، وأعاهدك على ألا أعاملك إلا معاملة الأخ إذ قد نسيت كل ما جنيته، وما هي إلا هفوات يرتكبها بنو الإنسان لضعفهم، وجل من لا يخطئ".

وفيما هم في الحديث جاء الطبيب وفحصه ثم تبسم فاستبشر الجميع بزوال الخطر وشكروا الله، ثم قال الطبيب: "إن العليل يحتاج إلى الرقاد الآن فإذا رقد ساعة ينهض معافى إن شاء الله".

فخرجوا من الغرفة فرحين، وعادوا بعد الغداء فإذا هو جالس في الفراش وعلى وجهه أمارات الصحة وقد زالت عنه الحمى تماماً، وما زال يتقدم نحو الصحة يوماً بعد يوم حتى عوفي تماماً بعد ثلاثة أيام.

وزاره شفيق وهنأه بالسلامة فقال عزيز: "إني لا أستطيع النظر إلى وجهك حتى تؤكد لي صفحك عني". فقبله وأقسم له بالشرف أنه قد صفح عنه، فقبله عزيز ونادى الباشا فحضر فقبل يده قائلاً: "إني أكون سعيداً إذا قبلتموني خادماً في ركابكم". فقال الباشا: "العفو يا ولدي". فقال شفيق لعزيز: "إنك ستكون معنا أخاً وصديقاً، وقد علمت بأمر الصك الذي كتبته لعمي ولا حاجة لنا به، وها أنذا أتقدم إلى سعادة الباشا أن يتكرم بإرجاعه إليك لتعيش به فإنه مالك وأنت أولى به، أما نحن فإننا مكتفون بحول الله تعالى".

فصاح عزيز قائلاً: "كلا.. كلا.. إني لا أستحق قرشاً واحداً من ذلك المال، وحسبي أني بقيت حياً بعد كثرة ذنوبي، وهذا المال حق شرعي

لكم".

فتبسم شفيق وأخذ الصك من يد الباشا ودفعه إلى عزيز فلم يرض تسلمه وألح عليه أن يبقيه معه وأنه قد تنازل عن أمواله كلها له لا يريد منها أكثر من سد الرمق، فأبى شفيق ذلك، ولما لم يقبل عزيز تسلم الصك مزقه شفيق بين يديه ثم أحرقه.

فأعجب الجميع بتلك الشهامة، ولا سيما عزيز الذي أصبح أسيراً له طوع ما يريد ثم قال: "سواء أردتم أم لم تريدوا فلا أقبل مفارقتكم بعد الآن، وإني أعد نفسي خادماً لكم".

فقال الباشا: "إذا أردت البقاء معنا فإنك تكون ولداً لنا".

وقال له شفيق: "أنت أخي بعهد الله والله غفار الذنوب".

أما بخيت فعاد بعد شفاء عزيز إلى حب الانتقام منه إذ تذكر سابق خياناته، وقد اغتاظ لما رأى شفيقاً يمزق الصك ولكنه سحر بشهامته ونظر إلى عزيز قائلاً: "انظر يا عزيز إنك والله لا تستوجب بحسب شريعتي أقل من الصلب، ولكن شهامة هذا البطل قد عفت عنك، ولو أمرنا بأن نعبدك لعبدناك لأن أمره مطاع، والأمر له ولسيدي الباشا. ولكنني لا أنسى أعمالك وذلك الكتاب الذي بعثت به بل تلك الكتب التي سببت الشقاء لسيدتي ولكن...".

فابتدره أحمد الخادم وقال: "أتذكر يوم رافقته إلى الإسكندرية و...".

فأسكته شفيق قائلاً: "كفى ما قلتماه، واعلما أن من يريد الأذى لأخي عزيز فقد أراده لي، ولا أقول أكثر من ذلك". فقال الاثنان معاً: "إنه سيدنا ومولانا والأمر أمره بعد أمرك".

ومكث الجميع في بعلبك يوماً آخر، ثم ساروا إلى بيروت ومنها إلى مصر، ولما دخلوا المدينة نزلوا ببيت الباشا، وكانوا قد أعدوا فيه سائر وسائل الزينة.

ففي ليلة وصولهم قالت سعدى لإبراهيم: "أتذكر كلامي لك في لندن عن زواج شفيق بإحدى غنيات مصر فلم ترض".

قال: "نعم".

قالت: "هي فدوى التي كنت أعنيها، فها قد تزوجها".

فقال: "ألم أقل لك إني لا أزوجه إلا بواحدة من أقاربي فها إنه لم يتزوج إلا ابنة عمته، فسبحان مدبر الأمور وموفق الحوادث".

واحتفل الباشا احتفالاً شائقاً بزفاف ابنته إلى شفيق، دعا إليه عدداً غفيراً من أعيان القاهرة ونزلائها.

وعاشت الأسرة كلها بعد ذلك في رغد وسعادة إلى أن قضى الله بما شاء.

obeikandl.com